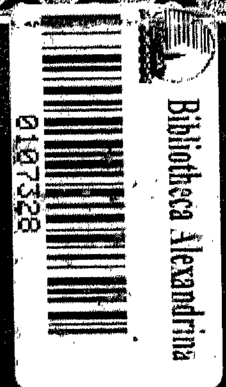
تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق

لابن مسكويه

حققه وشرح غريبه

ابن الخطيب



مكتبة الثقافة الدينية

تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق

لابن مسكويه

حققه وشرح غريبه

ابن الخطيب

أنفس ما قاله فلاسفة العالم في الأخلاق

الطبعة الأولى



تأسست عام ١٩٢٤

تعريف بالمؤلف

هو أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه ، أبو على : باحث ، مؤرخ .

أصله من الرى ، وسكن أصفهان ، وتوفى بها عام ٤٢١ هجرية — ١٠٣٠ ميلادية .

اشتغل بالكيمياء ، والفلسفة ، والمنطق : مدة طويلة ، ثم أولع بالأدب ، والتاريخ والإنشاء ؛ وكان نفوذه عظيما بالرى .

اشتهر بالخازن : لأنه كان أميناً على خزانة كتب ابن العميد . ثم كتب عضد الدولة : ابن بويه .

ثم اختص ببهاء الدولة البويهى ، وعظم شأنه عنده .

قال أبو حيان — فى جملة وصفه — لطيف الألفاظ ، سهل المأخذ ، مشهور المعانى ، شديد التوقى ، ضعيف الترقى : يتطاول جهده : ثم يقصر . وله مآخذ ، وغرائب من الكذب . وهو حائل العقل : لشغفه بالكيمياء . اه .

بيد أننا لا نوافقه فيما نسبه إليه من الوصفين الأخيرين .

ألف كتباً كثيرة ، نافعة . منها : تجارب الأمم ، وتعاقب الهمم : فى التاريخ : انتهى به إلى السنة التى مات فيها عضد الدولة (٣٧٢ هجرية) .

ومنها أيضاً : طهارة النفس ، وكتاب آداب العرب والفرس ، والفوز الأصغر فى أصول الديانات ، والفوز الأكبر ، وفوز النجاة : فى الأخلاق . وكتاب السياسة ، ومختار الأشعار ، ونديم الفريد ، ونزهة نامة علائى (فارسى) كتبه باسم علاء الدولة الديلمى ، وجاويدان خرد (فارسى أيضاً) ، وترتيب السعادات : فى الأخلاق ، والأدوية المفردة ، والأشربة ، وغير ذلك : مما لم نستطع الوصول إليه .

وجاء فى إرشاد اللبيب : أنه كان مجوسياً وأسلم .

ولعله أراد بذلك : جده القفطى .

وهو لا يعيبه الإسلام بعد التمجس : إن لم يكن يشرفه : إذ اهتدى بعد ضلال ؛ ونجا بنفسه من شرور الضلال !

وقال عنه : إنه من كبار فضلاء العجم ، وأجلاء فارس .

وقد جزم بعضهم أن مسكويه : جده لا أبوه .

وكل ما نأخذه عليه فى هذا الكتاب : ضعف تعبيره : رغم ارتفاعه بالمعانى ؛ التى بلغ فيها شأواً بعيداً : لم يدانه فيه كاتب ؟

المحقق

مقدّمة المحقق

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله الأمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين !

وبعد فإن من أكرم الفضائل ، وأحسن الشمائل ، خلق يتحلى به الإنسان ، ليعلو به عن مراتب الحيوان !

فالإنسان : لحم ، وعصب ، ودم . والحيوان أيضاً : لحم ، وعصب ، ودم : يفرق بين الاثنين : الخلق ، والفهم . فإذا ما انعدما : انعدمت الفروق بينهما . وصارا مثلين ، متشابهين ، وبالجهل ، والحمق ، متلازمين .

غير أن هذا : ينطق . وذاك : لا ينطق . وقد ينطق الإنسان بالفحش والهجر ! حيث لا ينطق الحيوان بفحش ولا هجر !

وحينئذ يكون الصامت : خير من الناطق ؛ والساكت خير من المتكلم !

هذا ، وقد نزع فلاسفة العالم إلى البحث عما يخرج الإنسان من هذه المرتبة الدنيئة الوضيعة : إلى المرتبة السامية الرفيعة : التى ترتفع به عن مصاف الحيوان ، إلى المرتبة : التى اختصه الله تعالى بها ، وخلقه من أجلها : وهى خلافته فى الأرض : ليبسط فيها العدل الإلهى : الذى يرتضيه الله ؛ والخلق الفاضل : التى جبله المولى عليه ؛ ووهبه أداته ، وهو العقل : الذى يعقله عن السيئات ، ويحثه على الحسنات !

ولما رأى الفلاسفة : أن عودة الإنسان إلى إنسانيته ، وبعده عن حيوانيته . لا يكون إلا بالتحلى بالأخلاق الفاضلة ، والخلال الكاملة : عمدوا إلى التآليف : التى تحضه على ذلك ، وتبعده عن المهالك !

وكان من خير ما كتبه الكاتبون ، وأنصع مادونه المدونون : كتاب « تهذيب الأخلاق ، وتطهير الأعراق » لابن مسكويه ، وقد اطلع على كل ماألفه فلاسفة المتقدمين : كأرسطوطاليس ، وزينون ، وجالينوس ، وغيرهم ممن ألف كتباً نفيسة فى الأخلاق : كانت عدة للكثيرين من فضلاء المتقدمين والمتأخرين !

وبذلك : جمع فيه مؤلفه : خلاصة من تقدمه من فلاسفة العالم . وزاد عليه ما ارتآه : من فيض علمه ومزيد فهمه .

مستدلا — على ما يقول — بآيات من الكتاب الكريم ، وأحاديث للرسول الرؤف الرحيم !

فإذا به خلاصة الخلاصة ، وصفوة الصفوة !

ولم يترك شاردة : إلا أحصاها ، ولا واردة : إلا بينها ونماها .

فجاء — لحسن نية مؤلفه — كما أراده ، وكما يريده الله !

هذا . وقد كنت — وقت اشتغالى بصناعة المطابع — قد جمعت حروف هذا الكتاب جميعه بيدى . وقد كانت سنى وقتذاك : لا تعدو الثانية عشرة .

وقد هز وجدانى : ما رأيته فيه ، وعلق بذهنى قوة إقناعه بما يقول ، وصدق دعوته إلى الأخلاق المنجية ، والبعد عن الخلال المردية !

هذا : وقد قرأت — فيما قرأت — أبواباً من هذا الكتاب برمتها فى إحياء علوم الدين للإمام الغزالى ، فظننت — بادىء ذى بدء — أن ابن مسكويه : نقل عن الغزالى هذه الأبواب .

ولكنى — بعد البحث — وجدت أن ابن مسكويه : توفى فى عام ٤٢١ فى حين أن الغزالى قد توفى فى عام ٥٠٥ فيكون ابن مسكويه : أسبق من الغزالى ، وبذلك يكون الغزالى هو الناقل عن ابن مسكويه .

وكفاه ذلك فخراً ، ومحمدة .

وقد كانت لنظارة المعارف قد قررته لمدرسة المعلمين الناصرية (دار العلوم الآن) . وقد أصابت فى ذلك . فقد تخرج منها أساطين الأدب ، ودهاقين البلاغة !

بيد أن الكتاب : لم يأخذ حظه من الانتشار ، وأهملته وزارة التعليم ، حتى غدا أثراً بعد عين .

ومن حقه على القائمين بالأمر : أن يحفلوا به ، ويخدمون أمتهم بدراسته !

وقد وقعت فى يدى نسخة منه : فاحتفيت بها ، وشمرت عن ساعد الجد فى إخراجها : فى الثوب اللائق بمثلها .

فشرحت غريبه ، وصححت أخطاءه ؛ فجاء — كما ترى — حسن منظر ومخبر ؛ كما قال الشاعر :

تزين معانيه ألفاظه   وألفاظه زائنات المعانى

والله أسأل أن ينفع به ؛ وينفعنى بما قدمت فيه ؟

رمضان المعظم سنة ١٣٩٨ هـ   ابن الخطيب

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أرشد إلى الصراط المستقيم ، ومدح الخلق العظيم ، وأرسل نبيه محمداً متمماً لمكارم الأخلاق ، وأدّبه فأحسن تأديبه على الإطلاق !

اللهم إنا نتوجه إليك ، ونسعى نحوك ، ونجاهد نفوسنا فى طاعتك ، ونركب الصراط المستقيم الذى نهجته لنا إلى مرضاتك !

فأعنا بقوتك ، واهدنا بعزتك ، واعصمنا بقدرتك ، وبلغنا الدرجة العليا برحمتك ، والسعادة القصوى بجودك ورأفتك ، إنك على ما تشاء قدير !

« قال » أحمد بن محمد بن مسكويه : غرضنا فى هذا الكتاب أن نحصل لأنفسنا خلقاً تصدر به عنا الأفعال كلها جميلة ، وتكون مع ذلك سهلة علينا : لا كلفة فيها ولا مشقة ، ويكون ذلك بصناعة ، وعلى ترتيب تعليمى .

والطريق فى ذلك أن نعرف أولا نفوسنا : ما هى ؟ وأى شىء هى ؟ ولأى شىء أوجدت فينا ؟

أعنى كمالها وغايتها ، وما قواها وملكاتها ، التى إذا استعملناها على ماينبغى : بلغنا بها هذه الرتبة العلية !

وما الأشياء العائقة لنا عنها ؟ وما الذى يزكيها فتفلح ؟ وما الذى يدسيها فتخيب ؟

فإن الله عز من قائل يقول ﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ٭ قد أفلح من زكاها ٭ وقد خاب من دساها ﴾ .

ولما كان لكل صناعة مباد : عليها تبتنى ، وبها تحصل .

وكانت تلك المبادى ؛ مأخوذة من صناعة أخرى ، وليس فى شىء من هذه الصناعات : أن تبين مبادى أنفسنا : كان لنا عذر واضح فى ذكر مبادى هذه الصناعة : على طريق الإجمال والإشارة بالقول الوجيز .

وإن لم يكن بما قصدنا له ، وإتباعها بعد ذلك بما توخيناه : من إصابة الخلق الشريف ، الذى يشرف شرفاً ذاتياً حقيقياً : لا على طريق العرض الذى لا ثبات له ، ولا حقيقة .

أعنى المكتسب بالمال ، والمكاثرة ، أو السلطان ، والمغالبة ، أو الاصطلاح والمواضعة .

فنقول وبالله التوفيق : قولا نبين به أن فينا شيئاً : ليس بجسم ، ولا بجزء من جسم ، ولا عرض ، ولا يحتاج فى وجوده إلى قوة جسمية . بل هو جوهر بسيط ، غير محسوس بشىء من الحواس .

ثم نبين ما مقصودنا منه ؟ الذى خلقنا له وندبنا إليه ، فنقول :

المقالة الأولى

النفس

تعريف النفس

إنا لما وجدنا فى الإنسان شيئاً ما : يضاد أفعال الأجسام ، وأجزاء الأجسام : بحده ، وخواصه ، وله أيضاً أفعال : تضاد أفعال الجسم وخواصه ، حتى لا يشاركه فى حال من الأحوال .

وكذلك نجده يباين الأعراض ، ويضادها كلها ، غاية المباينة .

ثم وجدنا هذه المباينة المضادة منه للأجسام والأعراض : إنما هى من حيث كانت الأجسام أجساماً ، والأعراض أعراضاً : حكمنا بأن هذا الشىء : ليس بجسم ، ولا جزء من جسم ، ولا عرضا . وذلك أنه لا يستحيل ولا يتغير ، وأيضاً فإنه يدرك جميع الأشياء بالسوية ، ولا يلحقه فتور ، ولا كلال ، ولا نقص .

(وبيان ذلك) : أن كل جسم له صورة ما : فإنه ليس يقبل صورة أخرى من جنس صورته الأولى ، إلا بعد مفارقته الصورة الأولى ، مفارقة تامة .

(مثال ذلك) : أن الجسم إذا قبل صورة ، وشكلا من الأشكال : كالتثليث مثلا . فليس يقبل شكلا آخر ، من التربيع ، والتدوير ، وغيرهما : إلا بعد أن يفارقه الشكل الأول .

وكذلك إذا قبل صورة نقش ، أو كتابة ، أو أى شىء كان من الصور : فليس يقبل صورة أخرى من ذلك الجنس : إلا بعد زوال الأولى وبطلانها البتة .

فإن بقى فيه شىء من رسم الصورة الأولى : لم يقبل الصورة الثانية على التمام ؛ بل تختلط به الصورتان فلا يخلص له إحداهما على التمام .

(مثال ذلك) إذا قبل الشمع صورة نقش فى الخاتم ، لم يقبل غيره من النقوش : إلا بعد أن يزول عنه رسم النقش الأول .

وكذلك الفضة : إذا قبلت صورة الخاتم ، وهذا حكم مستقيم ، مستمر فى الأجسام .
ونحن نجد أنفسنا تقبل صور الأشياء كلها : على اختلافها من المحسوسات ، والمعقولات : على التمام والكمال ، من غير مفارقة للأولى ، ولا معاقبة ، ولا زوال رسم ، بل يبقى الرسم الأول : تاماً ، كاملا . وتقبل الرسم الثانى أيضاً تاماً كاملا . ثم لا تزال تقبل صورة بعد صورة ، أبداً دائماً : من غير أن تضعف ، أو تقصر : فى وقت من الأوقات عن قبول ما يرد ، ويطرأ عليها من الصور ، بل تزداد بالصورة الأولى : قوة على ما يرد عليها من الصورة الأخرى .

وهذه الخاصة : مضادة لخواص الأجسام ، ولهذه العلة : يزداد الإنسان فهماً ، كلما ارتاض . وتخرج فى العلوم والآداب . فليست النفس إذن جسما ؛ فأما إنها ليست بعرض : فقد تبين من قبل : أن العرض لا يحمل عرضاً ، لأن العرض فى نفسه : محمول أبداً موجود فى غيره . لا قوام له بذاته .

وهذا الجوهر الذى وصفنا حاله ، هو قابل أبداً ، حامل أتم وأكمل من حمل الأجسام للأعراض .

فإذن النفس ليست جسما ، ولا جزءاً من جسم ، ولا عرضاً .

وأيضاً فإن الطول ، والعرض ، والعمق : الذى به صار الجسم جسما : يحصل فى النفس فى قوتها الوهمية من غير أن تصير به طويلة ، عريضة ، عميقة .

ثم تزداد فيها هذه المعانى أبداً بلا نهاية : فلا تصير بها أطول ، ولا أعرض ، ولا أعمق . بل لا تصير بها جسما البتة ؛ ولا إذا تصورت أيضاً : كيفيات الجسم تكيفت بها .

أعنى إذا تصورت الألوان ، والطعوم ، والروائح : لم تتصور بها كما تتصور الأجسام ، ولا يمنع بعضها قبول بعض من أضدادها : كما يمنع فى الجسم . بل تقبلها كلها فى حالة واحدة بالسواء .

وكذلك حالها فى المعقولات ؛ فإنها تزداد بكل معقول تحصله قوة على قبول غيره دائماً أبداً بلا نهاية .

وهذه حالة مقابلة لأحوال الأجسام ، وخاصة فى غاية البعد من خواصها .

وأيضاً فإن الجسم قواه لا تعرف العلوم ، إلا من الحواس ، ولا تميل إلا إليها . فهى تتشوقها بالملابسة ، والمشابكة : كالشهوات البدنية ، ومحبة الانتقام والغلبة .

وبالجملة كل ما يحس ، ويوصل إليه الحس ، والجسم : يزداد بهذه الأشياء قوة ، ويستفيد منها تماماً ، وكمالا : لأنها مادته ، وأسباب وجوده .

فهو يفرح بها ، ويشتاق إليها : من أجل أنها تتمم وجوده ، وتزيد فيه وتمده .

فأما هذا المعنى الآخر الذى سميناه نفساً : فإنه كلما تباعد من هذه المعانى البدنية ، التى أحصيناها ، وتداخل إلى ذاته ، وتخلى من الحواس بأكثر ما يمكن : ازداد قوة ، وتماماً ، وكمالا : وتظهر له الآراء الصحيحة ، والمعقولات البسيطة .

وهذا إذن أول دليل على أن طباعه ، وجوهره : من غير طباع الجسم والبدن ، وأنه أكرم جوهراً ، وأفضل طباعاً من كل ما فى هذا العالم من الأمور الجسمانية .

وأيضاً فإن تشوقها إلى ما ليس من طباع البدن ، وحرصها على معرفة حقائق الأمور الإلهية ، وميلها إلى الأمور التى هى أفضل من الأمور الجسمية ، وإيثارها لها ، وانصرافها عن الأمور ، واللذات الجسمانية : يدلنا دلالة واضحة : أنها من جوهر أعلى ، وأكرم جداً من الأمور الجسمانية . لأنه لا يمكن فى شىء من الأشياء : أن يتشوق ما ليس من طباعه وطبيعته ، ولا أن ينصرف عما يكمل ذاته ، ويقوم جوهره .

فإذن كانت أفعال النفس إذا انصرفت إلى ذاتها ، فتركت الحواس مخالفة لأفعال البدن ، ومضادة لها ، فى محاولاتها وإراداتها : فلا محالة أن جوهرها مفارق لجوهر البدن ، ومخالف له فى طبعه .

وأيضاً فإن النفس ، وإن كانت تأخذ كثيراً من مبادى العلوم عن الحواس ، فلها من نفسها مباد أخر ، وأفعال لا تأخذها عن الحواس ألبتة ، وهى المبادى : الشريفة العالية ، التى تنبنى عليها القياسات الصحيحة .

وذلك أنها إذا حكمت أنه ليس بين طرفى النقيض واسطة : فإنها لم تأخذ هذا الحكم من شىء آخر : لأنه أولى ، ولو أخذته من شىء آخر لم يكن أولياً .

وأيضاً فإن الحواس : تدرك المحسوسات فقط . وأما النفس : فإنها تدرك أسباب الاتفاقات ، وأسباب الاختلافات التى من المحسوسات . وهى معقولاتها التى لا تستعين عليها بشىء من الجسم ، ولا آثار الجسم .

النفس العاقلة : وماتستبينه من خطإ الحواس

وكذلك إذا حكمت على الحس : أنه صدق ، أو كذب : فلست تأخذ هذا الحكم من الحس : لأنه لا يضاد نفسه فيما يحكم فيه . ونحن نجد النفس العاقلة فينا : تستدرك شيئاً كثيراً من خطإ الحواس ، فى مبادئ أفعالها ، وترد عليها أحكامها .

من ذلك أن البصر يخطىء فيما يراه : من قرب ، ومن بعد .

أما خطؤه فى البعيد : فيادرا كه الشمس صغيرة ، مقدارها عرض قدم ، وهى مثل الأرض : مائة ونيفا وستين ومرة .

يشهد بذلك البرهان العقلى : فتقبل منه ، وترد على حس ما شهد به ؛ فلا يقبله .

وأما خطؤه فى القريب : فبمنزلة ضوء الشمس إذا وقع علينا من ثقب مربعات صغار : كحلل الأهواز[1] وأشباهها ، التى يستظل بها ؛ فإنه يدرك بها الضوء الواصل إلينا منها مستديراً ، فترد النفس العاقلة عليه هذا الحكم ، وتغلطه فى إدراكه ، وتعلم أنه ليس كما يراه .

ويخطىء البصر أيضاً فى حركة القمر ، والسحاب ، والسفينة ، والشاطىء .

ويخطىء فى الأساطين[2] المسطرة ، والنخيل . وأشباهها : حين يراها مختلفة فى أوضاعها .

ويخطىء أيضاً فى الأشياء التى تتحرك على الاستدارة : حتى يراها كالحلقة والطوق .

ويخطىء أيضاً فى الأشياء الغائصة فى الماء : حتى يرى أن بعضه أكبر من مقداره ، ويرى بعضها مكسوراً : وهو صحيح ، وبعضها معوجا وهو مستقيم ، وبعضها منكسراً وهو منتصب .

---

(١) الحلل : جمع حلة (بكسر الحاء) وهى : مجتمع الناس .
والأهواز : تسع مدن صغيرة : بين البصرة وفارس .

(٢) الأساطين جمع أسطوانة . وهى جسم صلب : ذو طرفين متساويين : على هيأة دائرتين متماثلتين : تحصران سطحاً ملفوفاً بحيث يمكن متابعته بخط يتحرك موازياً لنفسه .

فيستخرج العقل أسباب هذه كلها : من مباد عقلية ، ويحكم عليها أحكاماً صحيحة .

وكذلك الحال فى حاسة السمع ، وحاسة الذوق ، وحاسة الشم ، وحاسة اللمس .

أعنى حاسة الذوق : تغلط فى الحلو : تجده مراً عند الصدإ[1] وما أشبهه .

وحاسة الشم تغلط كثيراً فى الأشياء المنتنة : لاسيما فى المنتقل من رائحة إلى رائحة : فالعقل يرد هذه القضايا ، ويقف فيها ، ثم يستخرج أسبابها ، ويحكم فيها أحكاماً صحيحة .

والحاكم فى الشىء المزيف له ، أو المصحح : أفضل وأعلى رتبة ، من المحكوم عليه .

وبالجملة فإن النفس إذا علمت أن الحس : صدق أو كذب . فليست تأخذ هذا العلم من الحس ، ثم إذا علمت أنها قد أدركت معقولاتها : فليست تعلم هذا العلم من علم آخر . لأنها لو علمت هذا العلم من علم آخر : لاحتاجت فى ذلك العلم أيضاً إلى علم آخر ، وهذا يمر بلا نهاية . فإذن علمها بأنها علمت : ليس بمأخوذ من علم آخر البتة . بل هو من ذاتها ، وجوهرها : أعنى العقل . وليست تحتاج فى إدراكها ذاتها إلى شىء آخر غير ذاتها .

ولهذا ما قيل فى أواخر هذا العلم : إن العقل ، والعاقل ، والمعقول : شىء واحد ، لا غيرية شىء يتبين فى موضعه . فأما الحواس : فلا تحس ذواتها ، ولا ما هو موافق لها كل الموافقة ، كما سيتبين أيضاً .

النفس : لا تقاس بالأجسام

وإذ قد تبين من هذه الأشياء بياناً واضحاً بأن النفس ليست بجسم ، ولا بجزء من جسم ، ولا حال من أحوال الجسم ، وأنها شىء آخر : مفارق للجسم بجوهره ، وأحكامه ، وخواصه ، وأفعاله فنقول :

---

(١) الصدأ : الكدرة تعلو وجه الشىء . ولعله أراد : عند صدإ اللسان : بمرض أو نحوه . قال البوصيرى رضى الله تعالى عنه :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفم طعم الماء : من سقم

شوق النفس إلى أفعالها الخاصة بها

أما شوقها إلى أفعالها الخاصة بها : أعنى العلوم ، والمعارف . مع هربها من أفعال الجسم الخاصة به ، فهو فضيلتها .

وبحسب طلب الإنسان لهذه الفضيلة ، وحرصه عليها : يكون فضله . وهذا الفضل يتزايد بحسب عناية الإنسان بنفسه ، وانصرافه عن الأمور العائقة له عن هذا المعنى ؛ بجهده ، وطاقته .

وقد وضح مما تقدم : ما الأشياء العائقة لنا عن الفضائل .

أعنى الأشياء البدنية ، والحواس ، وما يتصل بها .

فأما الفضائل أنفسها : فليست تحصل لنا إلا بعد أن تطهر نفوسنا من الرذائل ، التى هى أضدادها .

أعنى شهواتها الرديئة الجسمانية ، ونزواتها الفاحشة البهيمية !

فإن الإنسان إذا علم أن هذه الأشياء : ليست فضائل ، بل هى رذائل ؛ تجنبها ، وكره أن يوصف بها .

وإذا ظن أنها فضائل : لزمها ، وصارت له عادة .

وبحسب التباسه وتدنسه بها : يكون بعده من قبول الفضائل .

وقد يظهر للإنسان أن هذه الأشياء التى يشتاقها البدن بالحواس ، ويميل إليها الجمهور : أعنى المآكل ، والمشارب ، والمناكح : هى رذائل ، وليست فضائل ، وأنه إذا عقلها فى الحيوانات الأخر : وجد كثيراً منها ، أقدر على الاستكثار منها ، وأحرص عليها ؛ كالخنزير ، والكلب ، وأصناف كثيرة من حيوان الماء ، وسباع الوحش ، والطير : فإنها أقوى ، وأحرص من الإنسان على هذه الأشياء ، وأكثر احتمالا لها ، وليست تكون بها أفضل من الإنسان .

وأيضاً فإن الإنسان إذا اكتفى من طعامه وشرابه ، وسائر لذاته البدنية : إذا عرض عليه الاستزادة منها : كما يستزاد من الفضائل : أبى ذلك وعافه ، وتبين له قبح صورة من يتعاطاها . لاسيما مع الاستغناء عنها ، والاكتفاء منها . بل يتجاوز ذلك إلى مقته ، وذمه ، بل إلى تقويمه ، وتأديبه .

فينبغى الآن أن نقدم أمام ما نطلبه من سعادة النفس ، وفضائلها : كلاما يسهل به فهم ما نريده فنقول :

كل موجود : من حيوان ، ونبات ، وجماد ، وكذلك بسائطها : أعنى النار ، والهواء ، والأرض ، والماء .

وكذلك الأجرام العلوية : له قوى ، وملكات ، وأفعال : بها يصير ذلك الموجود هو ما هو ، وبها يميز عن كل ما سواه . وله أيضاً قوى ، وملكات ، وأفعال : بها يشارك ما سواه .

ولما كان الإنسان من بين الموجودات كلها : هو الذى يلتمس له الخلق المحمود ، والأفعال المرضية : وجب أن لا ننظر فى هذا الوقت : فى قواه ، وملكاته ، وأفعاله : التى بها يشارك سائر الموجودات : إذ كان ذلك من حق صناعة أخرى ، وعلم آخر يسمى العلم الطبيعى .

وأما أفعاله ، وقواه ، وملكاته : التى يختص بها من حيث هو إنسان ، وبها تتم إنسانيته ، وفضائله : فهى الأمور الإرادية : التى بها تتعلق قوة الفكر ، والتمييز .

والنظر فيها يسمى الفلسفة العلمية .

والأشياء الإرادية التى تنسب إلى الإنسان : تنقسم إلى الخيرات ، والشرور . وذلك أن الغرض المقصود من وجود الإنسان : إذا توجه الواحد منا إليه : حتى يحصل هو الذى يجب أن يسمى به خيراً ، أو سعيداً .

فأما من عاقه عنها عوائق أخر : فهو الشرير الشقى .

فإذن الخيرات : هى الأمور التى تحصل للإنسان بإرادته وسعيه : فى الأمور التى لها أوجد الإنسان : ومن أجلها خلق .

والشرور وهى الأمور التى تعوقه عن هذه الخيرات : بإرادته وسعيه ، أو كسله وانصرافه .

والخيرات قد قسمها الأولون إلى أقسام كثيرة . وذلك أن منها ما هى شريفة ، ومنها ما هى ممدوحة ، ومنها ما هى بالقوة كذلك .

ونعنى بالقوة : التهيؤ والاستعداد ، ونحن نعددها فيما بعد إن شاء الله تعالى .

وقد قدمنا القول أن كل واحد من الموجودات : له كمال خاص ، وفعل : لا يشاركه فيه غيره من حيث هو ذلك الشىء . أعنى أنه لا يجوز أن يكون موجود آخر سواه : يصلح لذلك الفعل منه ، وهذا حكم مستمر فى الأمور العلوية والسفلية : كالشمس وسائر الكواكب ، وكأنواع الحيوان كلها : كالفرس والبازى[1] ، وكأنواع النبات والمعادن ، وكالعناصر البسائط : التى متى تصفحت أحوالها : تبين لك من جميعها صحة ما قلناه وحكمنا به .

فإذن الإنسان من بين سائر الموجودات : له فعل خاص به : لا يشاركه فيه غيره ، وهو ما صدر عن قوته المميزة المروية .

فكل من كان تمييزه أصح ، ورويته أصدق ، واختياره أفضل : كان أكمل فى إنسانيته .

وكما أن السيف والمنشار ، وإن صدر عن كل واحد منهما فعله الخاص : بصورته الذى من أجله عمل . فأفضل السيوف : ما كان أمضى وأنضر ، وما كفاه يسير من الإيماء فى بلوغ كماله : الذى أعد له .

وكذلك الحال فى الفرس ، والبازى[1] وسائر الحيوانات .

فإن أفضل الأفراس : ما كان أسرع حركة ، وأشد تيقظاً لما يريده الفارس منه : فى طاعة اللجام ، وحسن القبول فى الحركات ، وخفة العدو والنشاط .

فكذلك الناس أفضلهم : من كان أقدر على أفعاله الخاصة به ، وأشد ... جوهره الذى تميز به عن الموجودات .

---

(١) البازى : نوع من الصقور : يتخذ للصيد .

الحرص على الخيرات

فإذن الواجب الذى لا مرية فيه : أن نحرص على الخيرات التى هى كمالنا ، والتى من أجلها خلقنا ، ونجتهد فى الوصول إلى الانتهاء إليها ، ونتجنب الشرور التى تعوقنا عنها ، وتنقص حظنا منها .

فإن الفرس : إذا قصر عن كماله ، ولم تظهر أفعاله الخاصة به على أفضل أحوالها : حط عن مرتبة الفرسية ، واستعمل بالإكاف[1] كما تستعمل الحمير .

وكذلك حال السيف ، وسائر الآلات : متى قصرت ونقصت أفعالها الخاصة بها : حطت عن مراتبها ، واستعملت استعمال ما دونها .

والإنسان إذا نقصت أفعاله ، وقصرت عما خلق له .

أعنى أن تكون أفعاله التى تصدر عنه ، وعن رويته : غير كاملة : أحرى بأن يحط عن مرتبة الإنسانية ، إلى مرتبة البهيمية !

هذا إن صدرت أفعاله الإنسانية عنه ناقصة غير تامة .

فإذا صدرت عنه الأفعال بضد ما أعد له : أعنى الشرور التى تكون بالروية الناقصة ، والعدول بها عن جهتها : لأجل الشهوة التى يشاركه فيها البهيمة أولا ، أو الاغترار بالأمور الحسية : التى تشغله عما عرض له من تزكية نفسه : التى ينتهى بها إلى الملك الرفيع ، والسرور الحقيق ، وتوصله إلى قرة العين : التى قال الله تعالى « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين » .

وتبلغه إلى رب العالمين فى النعيم المقيم ، واللذات التى لم ترها عين ، ولا سمعتها أذن ، ولا خطرت على قلب بشر !

---

(١) الإكاف : البرذعة .

وانخدع عن هذه الموهبة السرمدية الشريفة ، بتلك الخساسات التى لا ثبات لها .

فهو حقيق بالمقت من خالقه عز وجل ، خليق بتعجيل العقوبة له ، وإراحة العباد والبلاد منه .

وإذ تبين أن سعادة كل موجود : إنما هى صدور أفعاله التى تخص صورته عنه ، تامة كاملة !

السّعادات وأُضدادها

وأن سعادة الإنسان : تكون فى صدور أفعاله الإنسانية عنه : بحسب تمييزه ورويته .

وأن لهذه السعادة مراتب كثيرة بحسب الروية والمروى فيه .

ولذلك قيل : أفضل الروية : ما كان فى أفضل مروى .

ثم ينزل رتبة فرتبة إلى أن ينتهى إلى النظر فى الأمور الممكنة من العالم الحسى ، فيكون الناظر فى هذه الأشياء قد استعمل رويته ، والصور الخاصة به : التى صار من أجلها سعيداً معرضاً للملك الأبدى ، والنعيم السرمدى : فى أشياء دنيئة : لا وجود لها بالحقيقة .

فقد تبين أيضاً أجناس من السعادات بالجلة ، وأضدادها من الشقاوات وأجناسها .

وأن الخيرات والشرور ، فى الأفعال الإرادية ، هى إما باختيار الأفضل ، والعمل به ، وإما باختيار الأدون والميل إليه .

ولما كانت هذه الخيرات الإنسانية وملكاتها ، التى فى النفس كثيرة ، ولم يكن فى طاقة الإنسان الواحد القيام بجميعها : وجب أن يقوم بجميعها جماعة كثيرة منهم .

ولذلك وجب أن تكون أشخاص كثيرة ، وأن يجتمعوا فى زمان واحد ، على تحصيل هذه السعادات المشتركة : لتكميل كل واحد منهم بمعاونة الباقين له ؛ فتكون الخيرات

مشتركة : والسعادة مفروضة بينهم : فيتوزعونها حتى يقوم كل واحد منهم بجزء منها ، ويتم للجميع بمعاونة الجميع : الكمال الإنسى ، وتحصل لهم السعادات الثلاث التى شرحناها فى كتاب الترتيب .

ولأجل ذلك : وجب على الناس أن يحب بعضهم بعضاً .

لأن كل واحد يرى كماله عند الآخر ، ولولا ذلك لما تمت للفرد سعادته .

فيكون إذن كل واحد بمنزلة عضو من أعضاء البدن .

وقوام الإنسان بتمام أعضاء بدنه .

قوى النفس الثلاث

وقد تبين للناظر فى أمر هذه النفس وقواها أنها تنقسم إلى ثلاثة : أعنى القوة التى بها يكون الفكر والتميز ، والنظر فى حقائق الأمور ، والقوة التى بها يكون الغضب والنجدة والإقدام على الأهوال ، والشوق إلى التسلط والترفع ، وضروب الكرامات ، والقوة التى بها تكون الشهوة وطلب الغذاء ، والشوق إلى الملاذ التى فى المآكل والمشارب والمناكح ، وضروب اللذات الحسية .

وهذه الثلاث : متباينة .

ويعلم من ذلك أن بعضها إذا قوى : أضر بالآخر ، وربما أبطل أحدهما فعل الآخر .

وربما جعلت نفوساً ، وربما جعلت قوى لنفس واحدة .

والنظر فى ذلك ليس يليق بهذا الموضع ، وأنت تكتفى فى تعلم الأخلاق : بأنها قوى ثلاث متباينة : تقوى إحداها وتضعف : بحسب المزاج ، أو العادة ، أو التأديب .

فالقوة الناطقة : هى التى تسمى الملكية ، وآلتها التى تستعملها من البدن : الدماغ .

والقوة الشهوية : هى التى تسمى بالبهيمية ، وآلتها التى تستعملها من البدن : الكبد .

والقوة الغضبية : هى التى تسمى السبعية [١] ، وآلتها التى تستعملها من البدن : القلب .

فلذلك وجب أن يكون عدد الفضائل بحسب أعداد هذه القوى .

وكذلك أضدادها التى هى رذائل : فمتى كانت حركة النفس الناطقة : معتدلة ، وغير خارجة عن ذاتها . وكان شوقها إلى المعارف الصحيحة : لا المظنونة : معارف . وهى بالحقيقة جهالات . حدثت عنها فضيلة العلم : وتتبعها الحكمة .

ومتى كانت حركة النفس البهيمية : معتدلة ، منقادة للنفس العاقلة ، غير متأبية عليها : فيما تقسطه لها ، ولا منهمكة فى اتباع هواها : حدثت عنها فضيلة العفة ، وتتبعها فضيلة السخاء !

ومتى كانت حركة النفس الغضبية معتدلة : تطيع العاقلة فيما تسقطه لها : فلا تهيج فى غير حينها ، ولا تحمى أكثر مما ينبغى لها : حدثت منها فضيلة الحلم ، وتتبعها فضيلة الشجاعة .

ثم يحدث عن هذه الفضائل الثلاث : باعتدالها ونسبة بعضها إلى بعض : فضيلة هى كمالها ، وتمامها ؛ وهى فضيلة العدالة .

فلذلك أجمع الحكماء : على أن أجناس الفضائل أربع : وهى الحكمة ، والعفة ، والشجاعة ، والعدالة .

ولهذا لا يفتخر أحد ، ولا يتباهى إلا بهذه الفضائل فقط .

فأما من افتخر بآبائه وأسلافه : فلأنهم كانوا على بعض هذه الفضائل ، أو عليها كلها .

وكل واحدة من هذه الفضائل إذا تعدت صاحبها إلى غيره [٢] : تسمى صاحبها بها ، ومدح عليها .

---

(١) السبعية نسبة إلى السبع : لأن متخذها : يتعجل الغضب ، والاقدام : كالسبع فى بطشه .

(٢) أى إذا تعدت حكمته ، وعفته ، وشجاعته ، وعدله إلى غيره : فانتفع بها : إفادة ، أو تقليداً ، أو تأسياً .

وإذا اقتصرت على نفسه : لم يسم بها : بل غيرت هذه الأسماء .

أما الجود فإنه إذا لم يتعد صاحبه : سمى صاحبه منفاقا[1] .

وأما الشجاعة فإن صاحبها يسمى أنفا[2] .

وأما العلم فإن صاحبه يسمى مستبصراً .

ثم إن صاحب الجود والشجاعة : إذا عم غيره بفضيلتيه ، وتعدياه : رجى بإحداهما واحتشم وهيب بالأخرى .

وذلك فى الدنيا فقط : لأنهما فضيلتان حيوانيتان .

أما العلم إذا تعدى صاحبه : فإنه يرجى ويحتشم فى الدنيا والآخرة .

لأنه فضيلة إنسانية ملكية .

وأضداد هذه الفضائل الاربع : أربع أيضاً .

وهى الجهل ، والشره ، والجبن ، والجور .

وتحت كل واحد من هذه الأجناس : أنواع كثيرة ، سنذكر منها ما يمكن ذكره .

فأما أشخاص الأنواع : فهى بلا نهاية .

وهى أمراض نفسانية : تحدث منها أمراض كثيرة : كالخوف ، والحزن ، والغضب ، وأنواع العشق الشهوانى ، وضروب من سوء الخلق .

وسنذكرها ونذكر علاجاتها فيما بعد إن شاء الله تعالى .

والذى يجب علينا الآن : هو تحديد هذه الأشياء ، أعنى الاجناس الاربعة التى تحتوى على جمل الفضائل فنقول :

---

(١) منفاقاً : أى متلافاً .

(٢) أنفاً : أى مستعلياً ، مستكبراً .

الحكمة

أما الحكمة : فهى فضيلة النفس الناطقة المميزة وهى :

أن تعلم الموجودات كلها : من حيث هى موجودة .

وإن شئت فقل : أن تعلم الأمور الإلهية ، والأمور الإنسانية .

ويثمر علمها بذلك : أن تعرف المعقولات : أيها يجب أن يفعل ، وأيها يجب أن يغفل .

وأما العفة : فهى فضيلة الحس الشهوانى . وظهور هذه الفضيلة فى الإنسان يكون بأن يصرف شهواته بحسب الرأى .

أعنى أن يوافق التمييز الصحيح : حتى لا ينقاد لها . ويصير بذلك حراً غير متعبد لشىء من شهواته .

الشجاعة

وأما الشجاعة : فهى فضيلة النفس الغضبية .

وتظهر فى الإنسان بحسب انقيادها للنفس الناطقة المميزة ، واستعمال ما يوجبه الرأى فى الأمور الهائلة .

أعنى أن لا يخاف من الأمور المفزعة : إذا كان فعلها جميلا ، والصبر عليها محموداً .

العدالة

فأما العدالة : فهى فضيلة للنفس : تحدث لها من اجتماع هذه الفضائل الثلاث التى عددناها .

وذلك عند مسالمة هذه القوى : بعضها البعض ، واستسلامها للقوة المميزة : حتى لا تتغالب ، ولا تتحرك لنحو مطلوباتها على سوم طباعها .

ويحدث للإنسان بها سمة : يختار بها أبداً الإنصاف من نفسه على نفسه أولا ، ثم الإنصاف والإنتصاف من غيره وله .

وسنتكلم على كل واحدة من هذه الفضائل بكلام أوسع من هذا : إذا ذكرنا الفضائل التى تحت كل جنس من هذه الأربع .

إذ كان غرضنا فى هذا الموضع : الإشارة إليها بالرسوم الوجيزة : ليتصورها المتعلم .

والذى ينبغى الآن : أن نتبع ما قدمنا بذكر أنواع هذه الأجناس ، وما تحت كل واحد منها فنقول :

الأقسام التى تحت الحكمة

الذكاء ، الذكر ، التعقل ، سرعة الفهم وقوته ، صفاء الذهن ، سهولة التعلم .

وبهذه الأشياء يكون حسن الاستعداد للحكمة .

فأما الوقوف على جواهر هذه الأقسام فيكون من حدودها .

وذلك أن العلم بالحدود : يفهم جواهر الأشياء المطلوبة الموجودة دائما على حال واحد . وهو العلم البرهانى ، الذى لا يتغير ، ولا يدخله الشك بوجه من الوجوه .

والفضائل التى هى بذاتها فضائل : لا تكون فى حال من الأحوال غير فضائل . فكذلك العلوم بها .

أما الذكاء : فهو سرعة انقداح النتائج ، وسهولتها على النفس .

أما الذكر : فهو ثبات صورة ما يخلصه العقل ، أو الوهم من الأمور .

وأما التعقل : فهو موافقة بحث النفس عن الأشياء الموضوعة بقدر ما هى عليه .

وأما صفاء الذهن : فهو استعداد النفس لاستخراج المطلوب .

وأما جودة الذهن وقوته : فهو تأمل النفس لما قد لزم من المقدم .

وأما سهولة التعلم : فهى قوة للنفس ، وحدة فى الفهم : بها تدرك الأمور النظرية .

الفضائل التى تحت العفة

الحياء ، الدعة ، الصبر ، السخاء ، الحرية ، القناعة ، الدماثة ، الانتظام ، حسن الهدى ، المسالمة ، الوقار ، الورع .

أما الحياء : فهو انحصار النفس [1] خوف إتيان القبائح ، والحذر من الذم ، والسب الصادق [2] .

وأما الدعة : فهى سكون النفس عند حركة الشهوات .

وأما الصبر : فهو مقاومة النفس الهوى : لئلا تنقاد لقبائح اللذات .

---

(١) انحصار النفس : أى حبسها عن إتيان القبائح . ومنه قوله تعالى فى يحيى عليه السلام (وسيداً وحصورا) .

(٢) والسب الصادق : أى أن يسب بما هو فيه . أما السب الكاذب : فهو اعتداء : لا يؤبه به ، ولا يعيب .

وأما السخاء : فهو التوسط فى الإعطاء . وهو أن ينفق الأموال فيما ينبغى[1] على مقدار ما ينبغى ، وعلى ما ينبغى .

وتحت السخاء خاصة : أنواع كثيرة نحصيها فيما بعد ، لكثرة الحاجة إليها .

وأما الحرية : فهى فضيلة للنفس : بها يكتسب المال من وجهه ، ويعطى فى وجهه ، وتمنع من اكتسابه من غير وجهه .

وأما القناعة : فهى التساهل فى المآكل ، والمشارب ، والزينة [2] .

وأما الدماثة : فهى حسن انقياد النفس لما يجمل ، وتسرعها إلى الجميل .

وأما الانتظام : فهو حال للنفس تقودها إلى حسن تقدير الأمور وترتيبها كما ينبغى .

وأما حسن الهدى : فهو محبة تكميل النفس بالزينة الحسنة [3] .

وأما المسالمة : فهى موادعة تحصل للنفس عن ملكة لا اضطرار فيها .

وأما الوقار : فهو سكون النفس وثباتها عند الحركات التى تكون فى المطالب .

وأما الورع : فهو لزوم الأعمال الجميلة التى فيها كمال النفس .

---

(١) إنفاق الأموال : فيما ينبغى : هو الإنفاق فى سبيل الله ، وعلى الفقراء والمساكين : بغير عجب ، ولا مخيلة : بل ابتغاء وجه الله تعالى فحسب ! مع علمه بأنه لاسرف فى الخير ، ولا خير فى السرف !

(٢) التساهل فيها : ألا يتعمد دائماً : أكل طيب الطعام ، وشرب أحسن الشراب ، ولبس أنفر الثياب : لأن فى ذلك خروج عن التواضع : الذى يدعو إليه الإسلام : وفيه أيضاً كسر لخاطر الفقير : الذى يرى جميع ذلك ولا ينال بعضه !

(٣) أريد بالزينة الحسنة : الأخلاق المرضية .

الفضائل التي تحت الشجاعة

كبر النفس ، النجدة ، عظم الهمة ، الثبات ، الصبر ، الحلم ، عدم الطيش ، الشهامة ، احتمال الكد .

والفرق بين هـذا الصبر والصبر الذى فى العفة : أن هذا يكون فى الأمور الهائلة ، وذلك يكون فى الشهوات الهائجة .

أما كبر النفس : فهو الاستهانة باليسير ، والاقتدار على حمل الكرائه .

فصاحبه أبداً يؤهل نفسه للأمور العظام مع استخفافه لها .

وأما النجدة : فهى ثقة النفس عند المخاوف ، حتى لا يخامرها جزع .

وأما عظم الهمة : فهى فضيلة للنفس تحتمل بها سعادة الجد ، وضدها حتى الشدائد التى تكون عند الموت .

وأما الثبات : فهو فضيلة للنفس تقوى بها على احتمال الآلام ، ومقاومتها فى الأهوال خاصة .

وأما الحلم : فهو فضيلة للنفس تكسبها الطمأنينة ، فلا تكون شغبة ، ولا يحركها الغضب بسهولة وسرعة .

وأما السكون الذى نعنى به عدم الطيش : فهو إما عند الخصومات ، وإما فى الحروب التى يذب بها عن الحريم ، أو عن الشريعة : وهو قوة للنفس تقسر حركتها فى هذه الأحوال لشدتها .

وأما الشهامة : فهى الحرص على الأعمال العظام توقعاً للأحدوثة الجميلة .

وأما احتمال الكد : فهو قوة للنفس بها تستعمل آلات البدن فى الأمور الحسية بالتمرين وحسن العادة .

الفضائل التي تحت السخاء

السكرم ، الإيثار ، النبل ، المواساة ، السماحة ، المسامحة .

أما السكرم : فهو إنفاق المال الكثير بسهولة من النفس في الأمور الجليلة القدر ، الكثيرة النفع ؛ كما ينبغي وباقي شرائط السخاء التي ذكرناها .

وأما الإيثار : فهو فضيلة للنفس بها يكف الإنسان عن بعض حاجاته التي تخصه حتى يبذله لمن يستحقه .

وأما النبل : فهو سرور النفس بالأفعال العظام ، وابتهاجها بلزوم هذه السيرة .

وأما المواساة : فهي معاونة الأصدقاء ، والمستحقين ، ومشاركتهم في الأموال والأقوات .

وأما السماحة : فهي بذل بعض ما لا يجب .

وأما المسامحة : فهي ترك بعض ما يجب .

والجميع يكون بالإرادة والاختيار .



الفضائل التي تحت العدالة

الصداقة ، الألفة ، صلة الرحم ، المكافأة ، حسن الشركة ، حسن القضاء ، التودد ، العبادة ، ترك الحقد ، مكافأة الشر بالخير ، استعمال اللطف ، وركوب المروءة في جميع الأحوال ، ترك المعاداة ، ترك الحكاية عمن ليس بعدل مرضي[١] ، البحث عن سيرة من يحكي عنه العدل ، ترك لفظة واحدة لا خير فيها لمسلم ، فضلا عن حكاية توجب حداً ، أو قذفاً ، أو قتلا ، أو قطعاً ، ترك السكون إلى قول سفلة الناس وسقطهم[٢] ، ترك قول من يكدي[٣] بين الناس : ظاهراً باطنا ، أو يلحف في مسألة ، أو يلح بالسؤال .

فإن هؤلاء يرضيهم الشيء اليسير فيقولون : لأجله حسناً ، ويسخطهم إذا منعوا اليسير فيقولون ، لأجله قبيحاً ، ترك الشره في كسب الحلال ، وترك ركوب الدناءة في الكسب لأجل العيال ، الرجوع إلى الله ، وإلى عهده وميثاقه عند كل قول يتلفظ به ؛ أو لحظ يلحظه ، أو خطرة ، في أعدائه وأصدقائه ، ترك اليمين بالله ، وبشيء من أسمائه وصفاته رأساً .

وليس بعدل : من لم يكرم زوجته ، وأهلها المتصلين بها ، وأهل المعرفة الباطنة به .

وخير الناس : خيرهم لأهله وعشيرته والمتصلين به : من أخ ، أو ولد ، أو متصل بأخ ، أو والد ، أو قريب ، أو نسيب ، أو شريك ، أو جار ، أو صديق ، أو حبيب .

ومن أحب المال حباً مفرطاً : لم يؤهل لهذه المرتبة . فإن حرصه على جمع المال : يصده عن استعمال الرأفة ، وامتطاء الحق ، وبذل ما يجب ، ويضطره إلى الخيانة ،

---

(١) أي لا يروى عنه شيئا : كما كان يفعل رواة الأحاديث ، والأخبار .

(٢) سقط الناس : أوباشهم ، وأضافلهم .

(٣) كدى الرجل : بخل ، أو قلل عطاءه . قال الله تعالى (وأعطى قليلا وأكدى) أي أعطى قليلا ثم بخل . والعطاء القليل : بخل .

والتكذب ، والاختلاق ، والزور ، ومنع الواجب ، والاستقصاء ، واستجلاب الدانق[1] والحبة ، والذرة ؛ لبيع الدين والمروءة .

وربما أنفق أموالا جمة : محبة منه للمحمدة ، وحسن الثناء ، ولا يريد بذلك وجه الله وما عنده . بل يتخذها مصيدة ، ويجعل ذلك مكسبة ، ولا يعلم أن ذلك عليه سيئة ومسبة .

أما الصداقة : فهى محبة صادقة ، يهتم معها بجميع أسباب الصديق ، وإيثار فعل الخيرات التى يمكن فعلها به .

وأما الألفة : فهى اتفاق الآراء ، والاعتقادات ، وتحدث عن التواصل : فيعتقد معها التضافر على تدبير العيش .

وأما صلة الرحم : فهى مشاركة ذوى اللحمة فى الخيرات : التى تكون فى الدنيا .

وأما المكافأة : فهى مقابلة الإحسان بمثله ، أو بزيادة عليه .

وأما حسن الشركة : فهو الأخذ والإعطاء فى المعاملات : على الاعتدال الموافق للجميع .

وأما حسن القضاء : فهو مجازاة بعدل بغير ندم ولا منّ .

وأما التودد ، فهو طلب مودات الأكفاء ، وأهل الفضل : بحسن اللقاء ، وبالأعمال التى تستدعى المحبة منهم .

وأما العبادة : فهى تعظيم الله تعالى ، وتمجيده وطاعته ، وإكرام أوليائه : من الملائكة[2] ، والأنبياء ، والأئمة . والعمل بما توجبه الشريعة .

وتقوى الله تعالى : تتمم هذه الأشياء وتكملها .

وإذ قد تقصينا الفضائل الأولى وأقسامها ، وذكرنا أنواعها وأجزاءها : فقد عرفنا الرذائل ، التى تضاد الفضائل : لأنه يفهم من كل واحدة من تلك الفضائل كلها ما يقابلها ، لأن العلم بالأضداد واحد .

---

(١) الدانق : لقد كان متداولا : يبلغ سدس درهم .
وقد سمى الخليفة أبو جعفر المنصور بالدوانيق : لبخله ، وشدة محاسبته على الدانق .
(٢) إكرام الملائكة : أن يحبهم ، ويسلم عليهم : إذا ذكروا « عليهم السلام » .

ولما كانت هذه الفضائل : أوساطاً بين أطراف ، وتلك الأطراف هى الرذائل : وجب أن تفهم منها . وإن اتسع لنا الزمان ذكرناها : لأن وجود أسمائها فى هذا الوقت متعذر .

وينبغى أن تفهم من قولنا : إن كل فضيلة فهى وسط بين رذائل ما أنا واصفه .

أن الأرض لما كانت فى غاية البعد من السماء : قيل إنها وسط ، وبالجملة المركز من الدائرة : هو على غاية البعد من المحيط .

وإذا كان الشىء على غاية البعد من شىء آخر : فهو من هذه الجهة على القطر .

فعلى هذا الوجه : ينبغى أن يفهم معنى الوسط من الفضيلة ، إذا كانت بين رذائل بعدها منها أقصى البعد .

ولهذا إذا انحرفت الفضيلة عن موضعها الخاص بها أدنى انحراف : قربت من رذيلة أخرى ، ولم تسلم من العيب ؛ بحسب قربها من تلك الرذيلة التى تميل إليها . ولهذا صعب جداً وجود هذا الوسط ، ثم التمسك به بعد وجوده أصعب .

لذلك قالت الحكماء : إصابة نقطة الهدف : أعسر من العدول عنها ، ولزوم الصواب بعد ذلك حتى لا يخطأها : أعسر وأصعب .

وذلك أن الأطراف التى تسمى رذائل : من الأفعال ، والأحوال ، والزمان ، وسائر الجهات : كثيرة جداً .

ولذلك كانت دواعى الشر : أكثر من دواعى الخير .

ويجب أن تطلب أوساط تلك الأطراف بحسب كل فرد فرد .

فأما ما يجب على المؤلف : فهو أن يذكر جمل هذه الأوساط ، وقوانينها : بحسب ما يليق بالصناعة : لا على ما يجب على كل شخص شخص : فإن هذا غير ممكن .

فإن النجار ، والصائغ ، وجميع أرباب الصناعات : إنما يحصل فى نفوسهم قوانين ، وأصول : فيعرف النجار صورة الباب ، والسرير ، والصائغ صورة الخاتم ، والتاج على الإطلاق .

فأما أشخاص ما قام فى نفسه : فإنما يستخرجها بتلك القوانين ، ولا يمكنه تعرف الأشخاص لأنها بلا نهاية .

وذلك أن كل باب وخاتم : إنما يعمل بمقدار ما ينبغى ، وعلى قدر الحاجة ، وبحسب المادة .

والصناعة لا تضمن إلا معرفة الأصول فقط .

وإذ قد ذكرنا معنى الوسط فى الأخلاق ، وما ينبغى أن يفهم منه : فلنذكر هذه الأوساط لتفهم منها الأطراف التى هى رذائل ، وشرور : فنقول وبالله التوفيق :

أما الحكمة : فهى وسط بين السفه والبله .

وأعنى بالسفه ههنا : استعمال القوة الفكرية فيما لا ينبغى ، وكما لا ينبغى . وسماه القوم الجربزة .

وأعنى بالبله : تعطيل هذه القوة ، واطراحها ، وليس ينبغى أن يفهم أن البله ههنا نقصان الخلقة : بل ما ذكرته من تعطيل القوة الفكرية بالإرادة .

وأما الذكاء : فهو وسط بين الخبث والبلادة : فإن أحد طرفى كل وسط إفراط والآخر تفريط . أعنى الزيادة عليه والنقصان منه .

فالخبث ، والدهاء ، والحيل الرديئة : هى كلها إلى جانب الزيادة : فيما ينبغى أن يكون الذكاء فيه .

وأما البلادة ، والبله ، والعجز عن إدراك المعارف : فهى كلها إلى جانب النقصان من الذكاء .

وأما الذكر : فهو وسط بين النسيان ؛ الذى يكون بإهمال ما ينبغى أن يحفظ ، وبين العناية بما لا ينبغى أن يحفظ .

وأما التعقل : وهو حسن التصور : فهو وسط بين الذهاب بالنظر فى الشىء الموضوع إلى أكثر مما هو عليه ، وبين القصور بالنظر فيه عما هو عليه .

وأما سرعة الفهم : فهى وسط بين اختطاف خيال الشىء من غير إحكام لفهمه ، وبين الإبطاء عن فهم حقيقته .

وأما صفاء الذهن : فهو وسط بين ظلمة النفس عن استخراج المطلوب ، وبين التهاب يعرض فيها : فيمنعها من استخراج المطلوب .

وأما جودة الذهن وقوته : فهو وسط بين الإفراط فى التأمل لما لزم من المقدم : حتى يخرج منه إلى غيره ، وبين التفريط فيه ، حتى يقصر عنه .

وأما سهولة التعلم : فهى وسط بين المبادرة إليه بسلاسة ، تثبت معها صورة العلم ، وبين التعصب عليه وتعذره .

وأما العفة : فهى وسط بين رذيلتين : وهما الشره ، وخمود الشهوة .

وأعنى بالشره : الانهماك فى اللذات ، والخروج فيها عما ينبغى .

وأعنى بخمود الشهوة : السكون عن الحركة التى تسلك نحو اللذة الجميلة ، التى يحتاج إليها البدن فى ضروراته : وهى ما رخص فيه صاحب الشريعة والعقل .

وأما الفضائل التى تحت العفة : فإن الحياء ، وسط بين رذيلتين .

إحداهما الوقاحة ، والأخرى الخرق .

وأنت تقدر على أن تلحظ أطراف الفضائل الأخرى : التى هى رذائل ، وربما وجدت لها أسماء بحسب اللغة ، وربما وجدت لها اسما ، وليس يعسر عليك فهم معانيها ، والسلوك فيها على السبيل التى سلكناها .

وأما الشجاعة : فهى وسط بين رذيلتين : إحداهما الجبن ، والأخرى التهور .

أما الجبن : فهو الخوف مما لا ينبغى أن يخاف منه .

وأما التهور : فهو الإقدام على ما لا ينبغى أن يقدم عليه .

وأما السخاء : فهو وسط بين رذيلتين : إحداهما السرف والتبذير ، والأخرى البخل والتقتير .

أما التبذير : فهو بذل ما لا ينبغى لمن لا يستحق .

وأما التقتير : فهو منع ما ينبغى عمن يستحق .

وأما العدالة : فهى وسط بين الظلم والانظلام .

أما الظلم : فهو التوصل إلى كثرة المقتنيات من حيث لا ينبغى : كما لا ينبغى .

وأما الانظلام : فهو الاستخذاء[1] ، والاستماتة فى المقتنيات لمن لا ينبغى ، وكما لا ينبغى .

ولذلك يكون للجائر أموال كثيرة : لأنه يتوصل إليها من حيث لا يجب ، ووجوه التوصل إليها كثيرة .

وأما المنظلم : فمقتنياته وأمواله : يسيرة جداً : لأنه يتركها من حيث لا يجب .

وأما العادل : فهو فى الوسط . لأنه يقتنى الأموال من حيث يجب ، ويتركها من حيث لا يجب .

فالعدالة : فضيلة ينصف بها الإنسان من نفسه ، ومن غيره ؛ من غير أن يعطى نفسه من النافع أكثر ، وغيره أقل .

وأما الضار فبالعكس : وهو أن لا يعطى نفسه أقل وغيره أكثر ؛ لكن يستعمل المساواة التى هى تناسب ما بين الأشياء : ومن هذا المعنى اشتق اسمه أعنى العدل .

وأما الجائر : فإنه يطلب لنفسه الزيادة من المنافع ، ولغيره النقصان منها .

وأما فى الأشياء الضارة : فإنه يطلب لنفسه النقصان ، ولغيره الزيادة منها .

فقد ذكرنا الأخلاق : التى هى خيرات ، وفضائل ، وأطرافها : التى هى شرور ورذائل : على طريق الإيجاز . وحددنا ما يحد منها . ورسمنا ما يرسم .

وسنشرح كل واحد منها : على سبيل الاستقصاء فيما بعد إن شاء الله تعالى .

وينبغى أن نلخص فى هذا الموضع شكاراً : ربما لحق طالب هذه الفضائل ، فنقول :

إنا قد بينا فيما تقدم : أن الإنسان من بين جميع الحيوان : لا يكتفى بنفسه فى تكميل ذاته .

ولا بد له من معاونة قوم كثيرى العدد : حتى يتمم به حياته طيبة ، ويجرى أمره على السداد !

---

(١) استخذى الرجل : مال ، وذل ، وضعف .

ولهذا قال الحكماء : إن الإنسان مدنى بالطبع . أى هو محتاج إلى مدينة فيها خلق كثير : لتتم له السعادة الإنسانية .

فكل بالطبع وبالضرورة ، يحتاج إلى غيره : فهو لذلك مضطر إلى مصافاة الناس ، ومعاشرتهم العشرة الجميلة ، ومحبتهم المحبة الصادقة : لأنهم يكملون ذاته ، ويتممون إنسانيته ، وهو أيضاً يفعل بهم مثل ذلك .

فإذا كان كذلك بالطبع ، وبالضرورة : فكيف يؤثر الإنسان ، العاقل العارف بنفسه : التفرد والتخلى ، ولا يتعاطى ما يرى الفضيلة فى غيره .

فإذا القوم الذين رأوا الفضيلة فى الزهد ، وترك مخالطة الناس ، وتفردوا عنهم .

إما بملازمة المغارات فى الجبال . وإما ببناء الصوامع فى المفاوز .

وإما بالسياحة فى البلدان : لا يحصل لهم شىء من الفضائل الإنسانية التى عددناها .

ذلك أن من لم يخالط الناس ، ولم يساكنهم فى المدن : لا تظهر فيه العفة ، ولا النجدة ، ولا السخاء ، ولا العدالة : بل تصير قواه وملكاته التى ركبت فيه : باطلة لأنها لا تتوجه لا إلى خير ، ولا إلى شر .

فإذا بطلت ولم تظهر أفعالها الخاصة بها : صاروا بمنزلة الجمادات ، والموتى من الناس : ولذلك يظنون ويظن بهم : أنهم أعفاء : وليسوا بأعفاء ، وأنهم عدول : وليسوا بعدول ، وكذلك فى سائر الفضائل .

أعنى أنه إذا لم يظهر منهم أضداد هذه التى هى شرور : ظن بهم الناس أنهم أفاضل ، وليست الفضائل أعداماً : بل هى أفعال وأعمال : تظهر عند مشاركة الناس ، ومساكنتهم ، وفى المعاملات ، وضروب الاجتماعات .

ونحن إنما نعلم ونتعلم الفضائل الإنسانية : التى نساكن بها الناس ، ونخالطهم ، ونصبر على أذاهم : لنصل منها وبها إلى سعادات أخر : إذا صرنا إلى حال أخرى . وتلك الحال غير موجودة لنا الآن .

المقالة الثانية

الخلق

الخـــلق

الخلق : حال للنفس داعية لها إلى أفعالها : من غير فكر ولا روية .

وهـذه الحال تنقسم إلى قسمين :

١ - منها ما يكون طبيعياً : من أصل المزاج : كالإنسان الذى يحركه أدنى شىء نحو غضب ، ويهيج من أقل سبب .

وكالإنسان : الذى يجبن من أيسر شىء : كالذى يفزع من أدنى صوت يطرق سمعه ، أو يرتاع من خبر يسمعه . وكالذى يضحك ضحكا مفرطاً : من أدنى شىء يعجبه . وكالذى يغتم ويحزن : من أيسر شىء يناله .

٢- ومنها ما يكون مستفاداً بالعادة والتدرب ، وربما كان مبدؤه بالروية والفكر . ثم يستمر عليه : أولا فأولا ، حتى يصير ملكة وخلقاً .

ولهذا اختلف القدماء فى الخلق . فقال بعضهم : الخلق خاص بالنفس غير الناطقة .

وقال بعضهم : قد يكون للنفس الناطقة فيه حظ .

ثم اختلف الناس أيضاً اختلافاً ثانياً .

فقال بعضهم : من كان له خلق طبيعى : لم ينتقل عنه .

وقال آخرون : ليس شىء من الأخلاق طبيعياً للإنسان . ولا نقول إنه غير طبيعى .

وذلك أنا مطبوعون على قبول الخلق . بل ننتقل بالتأديب والمواعظ : إما سريعاً ، أو بطيئاً .

وهذا الرأى الأخير : هو الذى نختاره ، لأنا نشاهده عياناً .

ولأن الرأى الأول : يؤدى إلى إبطال قوة التمييز والعقل ، وإلى رفض السياسات كلها ، وترك الناس همجاً مهملين ، وإلى ترك الأحداث والصبيان : على ما يتفق أن يكونوا عليه بغير سياسة ولا تعليم ، وهذا ظاهر الشناعة جداً !

وأما الرواقيون[1] : فظنوا أن الناس كلهم يخلقون أخياراً بالطبع ، ثم بعد ذلك يصيرون أشراراً : بمجالسة أهل الشر ، والميل إلى الشهوات الرديئة ، التى لا تقمع بالتأديب : فينهمك فيها ثم يتوصل إليها من كل وجه ، ولا يفكر فى الحسن منها والقبيح .

وقوم آخرون كانوا قبل هؤلاء : ظنوا أن الناس خلقوا من الطينة السفلى : وهى كدر العالم : فهم لأجل ذلك أشرار بالطبع .

وإنما يصيرون أخياراً بالتأديب والتعليم . إلا أن فيهم من هو فى غاية الشر : لا يصلحه التأديب ، وفيهم من ليس فى غاية الشر : فيمكن أن ينتقل من الشر إلى الخير بالتأديب من الصبا ، ثم بمجالسة الأخيار وأهل الفضل .

فأما جالينوس[2] فإنه رأى أن الناس فيهم من هو خير بالطبع ؛ وفيهم من هو شرير بالطبع ، وفيهم من هو متوسط بين هذين .

ثم أفسد المذهبين الأولين : اللذين ذكرناهما .

أما الأول : فبأن قال : إن كان كل الناس أخياراً بالطبع ، وإنما ينتقلون إلى الشر بالتعليم . فبالضرورة إما أن يكون تعلمهم الشرور من أنفسهم ، وإما من غيرهم .

فإن تعلموا من غيرهم : فإن المعلمين الذين علموهم الشر : أشرار بالطبع . فليس الناس إذاً كلهم أخياراً بالطبع .

وإن كانوا تعلموه من أنفسهم : فإما أن يكون فيهم قوة يشتاقون بها إلى الشر فقط ؛ فهم إذاً أشرار بالطبع . وإما أن يكون فيهم مع هذه القوة التى تشتاق إلى الشر ، قوة أخرى تشتاق إلى الخير . إلا أن القوة التى تشتاق إلى الشر غالبة قاهرة للتى تشتاق إلى الخير .

---

(١) الرواقيون : هم تلاميذ زينون : الفيلسوف اليونانى : لأنه كان يعلمهم فى رواق . ويطلق أيضاً على شيعة من اليهود : تقول بالتقدير ، والتناسخ .

وزينون هذا : مؤسس المذهب الرواق : ينسبون إليه القول المأثور : إنما العيش : العيش مع الطبيعة . ولد فى القرن الرابع قبل الميلاد .

(٢) جالينوس : طبيب يونانى . له اكتشافات خطيرة فى عالم التشريح . وقد ائتم به أطباء العرب . واشتغل أيضاً بالفلسفة ، وبرع فيها .

وعلى هذا أيضاً يكونون أشراراً بالطبع .

وأما الرأى الثانى : فإنه أفسده بمثل هذه الحجة . وذلك أنه قال : إن كان كل الناس أشراراً الطبع : فإما أن يكونوا تعلموا الخير من غيرهم ، أو من أنفسهم . ونعيد الكلام الأول بعينه .

ولما أفسد هذين المذهبين : صحح رأى نفسه من الأمور البينة الظاهرة .

وذلك أنه ظاهر جداً أن من الناس من هو خير بالطبع : وهم قليلون ، وليس ينتقل هؤلاء إلى الشر .

ومنهم من هو شرير بالطبع : وهم كثيرون ، وليس ينتقل هؤلاء إلى الخير .

ومنهم من هو متوسط بين هذين ، وهؤلاء قد ينتقلون بمصاحبة الأخيار ومواعظهم إلى الخير . وقد ينتقلون بمقاربة أهل الشر وإغوائهم إلى الشر .

وأما أرسطوطاليس[1] فقد بين فى كتاب الأخلاق ، وفى كتاب المقولات أيضاً ، أن الشرير : قد ينتقل بالتأديب إلى الخير ، ولكن ليس على الإطلاق : لأنه يرى أن تكرير المواعظ والتأديب ، وأخذ الناس بالسياسات الجيدة الفاضلة : لا بد أن يؤثر ضروب التأثير فى ضروب الناس : فنهم من يقبل التأديب ويتحرك إلى الفضيلة بسرعة ، ومنهم من يقبله ويتحرك إلى الفضيلة بإبطاء .

ونحن نؤلف من ذلك قياساً وهو هذا :

كل خلق يمكن تغييره ، ولا شىء مما يمكن تغييره هو بالطبع .

فإذاً لا خلق ، ولا واحد منه بالطبع .

والمقدمتان صحيحتان ، والقياس منتج فى الضرب الثانى من الشكل الأول .

---

(١) أرسطوطاليس : من أكابر فلاسفة اليونان ، ومن أعاظم مفكرى العالم ، وقد كان مؤدباً للاسكندر ، وتآليفه : لاحصر لها : فى المنطق ، والطبيعيات ، والإلهيات ، والأخلاق ، وما وراء الطبيعة ، وقد تأثر بتآليفه : مفكروا العرب وفلاسفتهم ، ومن أهم من نقل عنه : إسحاق بن حنين ، مؤسس مذهب المشائين .

أما تصحيح المقدمة الأولى : وهى أن كل خلق يمكن تغيره : فقد تكلمنا عليه وأوضحناه : وهو بين من العيان .

وعما استدللنا به : من وجوب التأديب ونفعه ، وتأثيره فى الأحداث والصبيان .

ومن الشرائع الصادقة التى هى سياسة الله لخلقه .

وأما تصحيح المقدمة الثانية : وهى أنه لا شىء مما يمكن تغيره هو بالطبع : فهو ظاهر أيضاً .

وذلك أنا لا نروم تغيير شىء مما هو بالطبع أبداً .

فإن أى أحد لا يروم أن يغير حركة النار : التى إلى فوق بأن يعودها الحركة إلى أسفل .

ولا أن يعوّد الحجر حركة العلو : يروم بذلك أن يغير حركة الطبيعة التى إلى أسفل .

ولو رامه : ما صح له تغيير شىء من هذا ، ولا ما يجرى مجراه .

أعنى الأمور التى هى بالطبع . فقد صحت المقدمتان ، وصح التأليف فى الشكل الأول . وهو الضرب الثانى منه ، وصار برهاناً .

فأما مراتب الناس فى قبول هذه الآداب التى سميناها خلقاً ، والمسارعة إلى تعلمها ، والحرص عليها : فإنها كثيرة ، وهى تشاهد وتعاين فيهم ، وخاصة فى الأطفال : فإن أخلاقهم تظهر فيهم منذ بدء نشأتهم ، ولا يستترونها بروية ، ولا فكر : كما يفعله الرجل التام : الذى انتهى فى نشئه وكماله : إلى حيث يعرف من نفسه ما يستقبح منه : فيخفيه بضروب من الحيل ، والأفعال المضادة لما فى طبعه .

وأنت تتأمل من أخلاق الصبيان : واستعدادهم لقبول الأدب ، أو نفورهم عنه ، أو ما يظهر فى بعضهم من القحة ، وفى بعضهم من الحياء .

وكذلك ما ترى فيهم : من الجود ، والبخل ، والرحمة ، والقسوة ، والحسد وضده .

ومن الأحوال المتفاوتة : ما تعرف به مراتب الإنسان ؛ فى قبول الأخلاق الفاضلة ، وتعلم معه أنهم ليسوا على رتبة واحدة . وأن فيهم المواتى والممتنع ، والسهل السلس ، والفظ العسر ، والخير والشرير .

والمتوسطون بين هذه الأطراف : فى مراتب لا تحصى كثرة .

وإذا أهملت الطباع ولم ترض بالتأديب والتقويم : نشأ كل إنسان على سوم طباعه ، وبقى عمره كله على الحال التى كان عليها فى الطفولية ، وتبع ما وافقه فى الطبع : إما الغضب وإما اللذة وإما الزعارة [1] ، وإما الشره ، وإما غير ذلك من الطباع المذمومة !

الشريعة

والشريعة : هى التى تقوم الأحداث ، وتعودهم الأفعال المرضية ، وتعد نفوسهم لقبول الحكمة ، وطلب الفضائل ، والبلوغ إلى السعادة الإنسية : بالفكر الصحيح ، والقياس المستقيم .

وعلى الوالدين : أخذهم بها ، وبسائر الآداب الجميلة ؛ بضروب السياسات ، من الضرب إذا دعت إليه الحاجة ، أو التوبيخات إن صدتهم ، أو الإطماع فى الكرامات ، أو غيرها : مما يميلون إليه من الراحات ، أو يحذرونه من العقوبات .

حتى إذا تعودوا ذلك ، واستمروا عليه مدة من الزمان كثيرة : أمكن فيهم حينئذ أن يعلموا براهين ما أخذوه تقليداً ، أو ينبهوا على طرق الفضائل واكتسابها والبلوغ إلى غاياتها ، بهذه الصناعة التى نحن بصددها والله الموفق !

---

(١) الزعارة : سوء الخلق . والأزعر : المنسوب إلى الزعارة .

وللإنسان فى ترتيب هذه الآداب وسياقها : أولا فأولا إلى الكمال الأخير : طريق طبيعى يتشبه فيها بفعل الطبيعة .

وهو أن ينظر إلى هذه القوى التى تحدث فينا : أيها أسبق إلينا وجوداً : فيبدأ بتقويمها ، ثم بما يليها على النظام الطبيعى : وهو بين ظاهر .

وذلك أن أول ما يحدث فينا : هو الشىء العام للحيوان والنبات كله ، ثم لا يزال يختص بشىء شىء : يتميز به عن نوع نوع : إلى أن يصير إلى الإنسانية .

فلذلك يجب أن نبدأ بالشوق الذى يحصل فينا للغذاء فنقومه .

ثم بالشوق الذى يحصل فينا إلى الغضب ومحبة الكرامة فنقومه .

ثم بآخره وهو الشوق الذى يحصل فينا إلى المعارف ، والعلوم فنقومه .

وهذا الترتيب الذى قلنا إنه طبيعى : إنما حكمنا فيه بذلك : لما يظهر فينا منذ أول نشوئنا .

أعنى أنا نكون أولا أجنة ، ثم أطفالا ، ثم أناساً كاملين ، وتحدث فينا هذه القوى مرتبة .

فأما ان هذه الصناعة هى أفضل الصناعات كلها ، أعنى صناعة الأخلاق : التى تعنى بتجويد أفعال الإنسان : بحسب ما هو إنسان ؛ فيتبين بما أقول .

الإنسان

لما كان للجوهر الإنسانى فعل خاص : لا يشاركه فيه شىء من موجودات العالم ، كما بيناه فيما تقدم .

وكان الإنسان أشرف موجودات عالمنا ، ثم لم تصدر عنه افعاله بحسب جوهره .

وشبهناه بالفرس : الذى إذا لم تصدر عنه أفعال الفرس على التمام : استعمل مكان الحمار بالإكاف[1] .

وكان وجوده : أروح له من عدمه : وجب أن تكون الصناعة التى تعنى بتجويد أفعال الإنسان حتى تصدر عنه أفعاله كلها تامة كاملة بحسب جوهره ، ورفعه عن رتبة الأخس : التى يستحق بها المقت من الله ، والقرار فى العذاب الأليم : أشرف الصناعات كلها وأكرمها .

وأما سائر الصناعات الأخر : فمراتبها من الشرف بحسب مراتب جوهر الشىء الذى تستصلحه ، وهذا ظاهر جداً من تصفح الصناعات : لأن فيها الدباغة التى تعنى باستصلاح جلود البهائم الميتة ، وفيها صناعة الطب والعلاج : التى تهتم باستصلاح الجواهر الشريفة الكريمة ، وهكذا الهمم المتفاوتة التى ينصرف بعضها إلى العلوم الدنيئة ، وبعضها إلى العلوم الشريفة .

وإذا كانت جواهر الموجودات ، متفاوتة فى الشرف : فى الجماد والنبات والحيوان .

أما فى الحيوان فكجوهر الديدان والحشرات : إذا قيس إلى جوهر الإنسان .

وأما فى جوهر الموجودات الأخر : فظاهر لمن أراد أن يحصيها :

فالصناعة والهمة التى تصرف إلى أشرفها : أشرف من الصناعة والهمة التى تصرف إلى الأدون منها .

ويجب أن يعلم أن اسم الإنسان : وإن كان يقع على أفضلهم ، وعلى أدونهم : فإن بين هذين الطرفين : أكثر مما بين كل متضادين من البعد .

وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ليس شىء خيراً من ألف مثله إلا الإنسان) .

وقال عليه الصلاة والسلام : (الناس كإبل مائة : لا تجد فيها راحلة واحدة) [2] .

---

(١) الإكاف : البرذعة .

(٢) أى لا تجد فيها واحدة تصلح للركوب . أى أن الأشرار : أكثر من الأخيار (وقليل من عبادى الشكور) .

وقال : (الناس كأسنان المشط ، وفى بعضها كأسنان الحمار ، وإنما يتفاضلون بالعقل ، ولا خير فى صحبة من لا يعرف لك من الفضل ما تعرف له) وفى نظائر هذه أشياء كثيرة تدل على هذا المعنى ، وان الشاعر الذى قال :

ولم أر أمثال الرجال تفاوتاً إلى المجد : حتى عدّ ألف بواحد

وإن كان عنده أنه قد بالغ : فإنه قد قصر .

والخبر المروى عن النبي عليه الصلاة والسلام (أنى وزنت بأمتى فرجحت بهم) أصدق وأوضح .

وليس هذا فى الإنسان وحده : بل فى كثير من الجواهر الأخر .

وإن كان فى الإنسان أكثر وأشد تفاوتاً : فإن بين السيف المعروف بالصمصام ، وبين السيف المعروف بالكهام[1] تفاوتاً عظيما .

وكذلك الحال فى التفاوت الذى بين الفرس الكريم ، وبين البرذون[2] المقرف[3] .

فمن أمكنه أن يرقى بالصناعة من أدون هذه الجواهر مرتبة إلى أعلاها : فأشرف به وبصناعته : ما أكرمه وأكرمها !

فأما الإنسان من بين هذه الجواهر : فهو مستعد بضروب من الاستعدادات ، لضروب من المقامات .

وليس ينبغى أن يكون الطمع فى استصلاحه على مرتبة واحدة ، وهذا شيء يتبين فيما بعد بمشيئة الله وعونه .

إلا أن الذى ينبغى أن يعلم الآن : أن وجود الجوهر الإنسانى : متعلق بقدرة فاعله وخالقه ، تبارك وتقدس اسمه وتعالى !

---

(١) الصمصام : السيف الصارم : الذى لا ينثنى . والكهام : السيف الضعيف ، الكليل .
(٢) البرذون : ضرب من الدواب ، يخالف الخيل العراب : عظيم الخلقة ، غليظ الأعضاء .
(٣) المقرف : الفرس : الذى أحد أبويه عربياً ، والآخر غير عربى .

فأما تجويد جوهره : فمفوض إلى الإنسان ، وهو معلق بإرادته ؛ فاعرف هذه الجملة إلى أن تلخص فى موضعها إن شاء الله تعالى . وقد قدمنا فى صدر هذا الكتاب أن قلنا : ينبغى أن نعرف نفوسنا : ما هى ؟ ولأى شىء هى ؟ .

ثم قلنا : إن لكل جوهر موجود كمالا خاصاً به ، وفعلا لا يشاركه فيه غيره : من حيث هو ذلك الشىء . وقد بينا ذلك غاية البيان فى الرسالة المسعدة [١] .

وإذا كان ذلك محفوظاً : فنحن مضطرون إلى أن نعرف الكمال الخاص بالإنسان ، والفعل الذى لا يشاركه فيه غيره ، من حيث هو إنسان ؛ لنحرص على طلبه وتحصيله ، ونجتهد فى البلوغ إلى غايته ونهايته .

ولما كان الإنسان مركباً : لم يجز أن يكون كماله ، وفعله الخاص به كمال بسائطه ، وأفعالها الخاصة بها ، وإلا كان وجود المركب باطلا : كالحال فى الخاتم والسرير .

فإذاً له فعل خاص به ، من حيث هو مركب وإنسان : لا يشاركه فيه شىء من الموجودات الأخر .

فأفضل الناس أقدرهم على إظهار فعله الخاص ، وألزمهم له : من غير تلون فيه ، ولا إخلال به ، فى وقت دون وقت .

وإذا عرف الأفضل : فقد عرف الأنقص على اعتبار الضد .

فالكمال الخاص بالإنسان : كمالان . وذلك أن له قوتين : إحداهما العالمة ، والأخرى العاملة ، فلذلك يشتاق بإحدى القوتين إلى المعارف والعلوم ، وبالأخرى إلى نظم الأمور ، وترتيبها . وهذان الكمالان : هما اللذان نص عليهما الفلاسفة فقالوا :

---

(١) الرسالة المسعدة : هى إحدى رسائله التى لم تصل إلينا .

الفلسفة

الفلسفة : تنقسم إلى قسمين : إلى الجزء النظرى ، والجزء العملى .

فإذا كمل الإنسان بالجزء العملى ، والجزء النظرى : فقد سعد السعادة التامة .

أما كماله الأول بإحدى قوتيه : أعنى العالمة : وهى التى يشتاق بها إلى العلوم ، فهو أن يصير فى العلم بحيث يصدق نظره ، وتصح بصيرته ، وتستقيم رويته : فلا يغلط فى اعتقاد ، ولا يشك فى حقيقة .

وينتهى فى العلم بأمور الموجودات على الترتيب : إلى العلم الإلهى الذى هو آخر مرتبة العلوم ، ويثق به ، ويسكن إليه ، ويطمئن قلبه ، وتذهب حيرته ، وينجلى له المطلوب الأخير : حتى يتحد به .

وهذا الكمال قد بينا الطريق إليه ، وأوضحنا سبله فى كتب أخر .

وأما الكمال الثانى : الذى يكون بالقوة الأخرى ، أعنى القوة العاملة : فهو الذى نقصده فى كتابنا هذا ، وهو الكمال الخلقى : ومبدؤه من ترتيب قواه وأفعاله الخاصة بها : حتى لا تتغالب ، وحتى تتسالم هذه القوى فيه ، وتصدر أفعاله كلها بحسب قوته المميزة ، منتظمة مرتبة كما ينبغى ، وينتهى إلى التدبير المدنى : الذى يرتب الأفعال والقوى بين الناس : حتى تنتظم ذلك الانتظام ، ويسعدوا سعادة مشتركة : كما كان ذلك فى الشخص الواحد .

فإذاً الكمال الأول النظرى منزلته : منزلة الصورة ، والكمال الثانى العملى منزلته : منزلة المادة ، وليس يتم أحدهما إلا بالآخر ، لأن العلم مبدأ ، والعمل تمام ، والمبدأ بلا تمام : يكون ضائعاً ، والتمام بلا مبدإ يكون مستحيلا .

وهذا الكمال هو الذى سميناه غرضاً .

وذلك أن الغرض والكمال بالذات : هما شيء واحد ، وإنما يختلفان بالإضافة . فإذا نظر إليه وهو بعد فى النفس ، ولم يخرج إلى الفعل ، فهو غرض ، فإذا خرج إلى الفعل وتم فهو كمال .

وكذلك الحال فى كل شيء : لأن البيت إذا كان متصوراً للبانى ، وكان عالماً بأجزائه وتركيبه وسائر أحواله : كان غرضاً . فإذا أخرجه إلى الفعل وتممه : كان كمالا .

فقد صح من جميع ما قدمناه : أن الإنسان يصير إلى كماله ، ويصدر عنه فعله الخاص به : إذا علم الموجودات كلها .

أى يعلم كلياتها ، وحدودها : التى هى ذواتها ، لا أعراضها ، وخواصها التى تميزها بلا نهاية .

فإنك إذا علمت كليات الموجودات : فقد علمت جزئياتها بنحو ما : لأن الجزئيات لا تخرج عن كلياتها . فإذا كملت هذا الكمال : فتممه بالفعل المنظوم ، ورتب القوى والملكات التى فيك : ترتيباً علمياً كما سبق علمك به .

فإذا انتهيت إلى هذه الرتب : فقد صرت عالماً وحدك ، واستحقيت أن تسمى عالماً صغيراً : لأن صور الموجودات كلها قد حصلت فى ذاتك : فصرت أنت هى بنحو ما . ثم نظمتها بأفعالك على نحو استطاعتك : فصرت فيها خليفة لمولاك : خالق الكل : جلت عظمته ! فلم تخط فيها ، ولم تخرج عن نظامه الأول الحكمى ، فتصير حينئذ عالماً تاماً .

والتام من الموجودات : هو الدائم الوجود ، والدائم الوجود : هو الباقى بقاء سرمدياً ، فلا يفوتك حينئذ شيء من النعيم المقيم ، لأنك بهذا الكمال مستعد لقبول الفيض من المولى دائماً أبدا . وقد قربت منه القرب الذى لا يجوز أن يحول بينك وبينه حجاب .

وهذه هى الرتبة العليا ، والسعادة القصوى .

ولولا أن الشخص الواحد من أشخاص الناس ، يمكنه تحصيل هذه المنزلة فى ذاته ، وتكميل صورته بها ، وإتمام نقصانه بالترقى إليها : لكان سبيله سبيل أشخاص الحيوانات

الآخر ، أو كسبيل أشخاص النبات : فى مصيرها إلى الفناء والاستحالة التى تلحقها ، والنقصانات التى لا سبيل إلى تمامها . ولا استحال فيه البقاء الأبدى ، والنعيم السرمدى ، والمصير إلى ربه ، ودخول جنته .

ومن لا يتصور هذه الحالة ، ولا ينتهى إلى علمها من المتوسطين فى العلم : يقع له شكوك ، فيظن أن الإنسان إذا انتقض تركيبه الجسمانى : بطل وتلاشى : كالحال فى الحيوانات الآخر ، وفى النبات : فحينئذ يستحق اسم الإلحاد ، ويخرج عن سمة الحكمة ، وسنة الشريعة !

كمال الإنسان : فى اللّذات المعنويّة

وقد ظن قوم أن كمال الإنسان وغايته : هما فى اللذات الحسية . وأنها هى الخير المطلوب ، والسعادة القصوى .

وظنوا أن جميع قواه الآخر : إنما ركبت فيه من أجل هذه اللذات ، والتوصل إليها . وأن النفس الشريفة التى سميناها ناطقة : إنما وهبت له ليرتب بها الأفعال ويميزها . ثم يوجهها نحو هذه اللذات : لتكون الغاية الأخيرة هى حصولها له على النهاية والغاية الجسمانية .

وظنوا أيضاً أن قوى النفس الناطقة : أعنى الذكر ، والحفظ ، والروية : كلها تراد لتلك الغاية .

قالوا : وذلك أن الإنسان إذا تذكر اللذات التى كانت حصلت له : بالمطاعم ، والمشارب ، والمناكح : اشتاق إليها ، وأحب معاودتها : فقد صارت منفعة الذكر والحفظ : إنما هى اللذات وتحصيلها .

ولأجل هذه الظنون التى وقعت لهم : جعلوا النفس المميزة الشريفة : كالعبد المهين ، وكالأجير المستعمل فى خدمة النفس الشهوية لتخدمها فى المآكل ، والمشارب ، والمناكح ، وترتبها لها ، وتعد لها إعداداً كاملا موافقاً .

وهذا هو رأى الجمهور : من العامة الرعاع ، وجهال الناس السقاط[1]

وإلى هذه الخيرات التى جعلوها غاياتهم : تشوقوا عند ذكر الجنة ، والقرب من بارئهم عز وجل ؛ وهى التى يسألونها ربهم تبارك وتعالى فى دعواتهم وصلواتهم .

وإذا خلوا بالعبادات ، وتركوا الدنيا ، وزهدوا فيها : فإنما ذاك منهم على سبيل المتجر ، والمرابحة فى هذه بعينها : كأنهم تركوا قليلها ليصلوا إلى كثيرها ، وأعرضوا عن الفانيات منها : ليبلغوا إلى الباقيات .

إلا أنك تجدهم مع هذا الاعتقاد وهذه الأفعال : إذا ذكر عندهم الملائكة ، والخلق الأعلى الأشرف ، ومانزههم الله عنه : من هذه القاذورات : علموا بالجملة أنهم أقرب إلى الله تعالى ، وأعلى رتبة من الناس ، وأنهم غير محتاجين إلى شىء من حاجات البشر . بل يعلمون أن خالقهم ، وخالق كل شىء ، الذى تولى إبداع الكل : هو منزه عن هذه الأشياء ، متعال عنها : غير موصوف باللذة والتمتع : مع التمكن من إيجادها .

وأن الناس يشاركون فى هذه اللذات : الخنافس ، والديدان ، وصغار الحشرات ، والهمج[2] من الحيوان .

وإنما يناسبون الملائكة : بالعقل والتمييز . ثم يجمعون بين هذا الاعتقاد والاعتقاد الأول . وهذا هو العجب العجيب !

وذلك أنهم يرون عياناً ضروراتهم : بالأذى الذى يلحقهم : بالجوع ، والعرى ، وضروب النقص : وحاجاتهم إلى مداواتها : بما يدفعها عنهم .

---

(١) سقاط الناس : أراذلهم .

(٢) الهمج : ذباب صغير : يقع على وجوه الغنم والحمير . ويطلق أيضاً على الحمقى ، ورعاع الناس : لا نظام لهم .

فإذا زالت آثارها، وعادوا إلى حال السلامة منها، التذوا بذلك، ووجدوا للراحة لذة، ولا يشعرون أنهم إذا اشتاقوا إلى لذة المأكل: فقد اشتاقوا أولا إلى ألم الجوع.

وذلك أنهم إن لم يؤلموا بالجوع: لم يلتذوا بالأكل.

وهكذا الحال في سائر اللذات الأخر. إلا أن هذا الحال في بعضها أظهر منها في بعض.

وسنتكلم على أن صورة الجميع: واحدة. وأن اللذات كلها: إنما تحصل للملتذ بعد آلام تلحقه، لأن اللذة: هي راحة من ألم، وأن كل لذة حسية: إنما هي خلاص من ألم، أو أذى. في غير هذا الموضع.

وسيظهر عند ذلك: أن من رضي لنفسه بتحصيل اللذات البدنية، وجعلها غايته، وأقصى سعادته: فقد رضي بأخس العبودية، لأخس الموالي[1].

لأنه يصير نفسه الكريمة التي يناسب بها الملائكة: عبداً للنفس الدنيئة: التي يناسب بها الخنازير، والخنافس، والديدان، وخسائس الحيوانات: التي تشاركه في هذا الحال.

وقد تعجب جالينوس[2] في كتابه الذي سماه بأخلاق النفس من هذا الرأي، وكثر استجهاله للقوم الذين هذه مرتبتهم من العقل.

إلا أنه قال: إن هؤلاء الخبثاء: الذين سيرتهم أسوأ السير وأردأها: إذا وجدوا إنساناً هذا رأيه ومذهبه: نصروه ونوهوا به، ودعوا إليه: ليوهموا بذلك أنهم غير منفردين بهذه الطريقة: لأنهم يظنون أنهم متى وصف أهل الفضل، والنبل: من الناس بمثل ما هم عليه: كان ذلك عذراً لهم، وتمويها على قوم آخرين: في مثل طريقتهم.

وهؤلاء هم الذين يفسدون الأحداث: بإيهامهم أن الفضيلة: هي ما تدعوهم إليه طبيعة البدن من الملاذ.

---

(١) أخس العبودية: أن يكون المرء عبداً لشهواته. وأخس الموالي: إبليس عليه اللعنة.

(٢) جالينوس: طبيب يوناني. له اكتشافات خطيرة في عالم التشريح. وقد ائتم به أطباء العرب. واشتغل أيضاً بالفلسفة، وبرع فيها.

وأن تلك الفضائل الأخر الملكية : إما أن تكون باطلة : ليست بشيء البتة . وإما أن تكون غير ممكنة لأحد من الناس .

والناس مائلون بالطبع الجسداني : إلى الشهوات : فيكثر اتباعهم ، وتقل الفضلاء فيهم .

وإذا تنبه الواحد بعد الواحد منهم ، إلى أن هذه اللذات : إنما هي لضرورة الجسد ، وأن بدنه مركب من الطبائع المتضادة : أعني الحرارة ، والبرودة ، واليبوسة ، والرطوبة ، وأنه إنما يعالج بالمأكل والمشرب : أمراضاً تحدث به عند الانحلال : لحفظ تركيبه على حالة واحدة أبداً ما أمكن ذلك فيه .

وأن علاج المرض : ليس بسعادة تامة ، والراحة من الألم : ليست بغاية مطلوبة ولا خير محض .

وأن السعيد التام : هو من لا يعرض له مرض البتة .

وعرف مع ذلك أيضاً : أن الملائكة الأبرار : الذين اصطفاهم الله بقربه : لا تلحقهم هذه الآلام : فلا يحتاجون إلى مداواتها بالأكل والشرب .

وأن الله تعالى : منزه متعال عن هذه الأوصاف : عارضوه بأن بعض البشر : أشرف من الملائكة ، وأن الله تعالى أجل من أن يذكر مع الخلق .

وشاغبوه وسفهوا رأيه ، وأوقعوا له شبهاً باطلة : حتى يشك في صحة ما تنبه إليه ، وأرشده عقله إليه .

والعجب الذي لا ينقضي : هو أنهم مع رأيهم هذا إذا وجدوا واحداً من الناس : قد ترك طريقتهم التي يميلون إليها ، واستهان باللذة والتمتع ، وصام وطوى ، واقتصر على ما أنبتت الأرض : عظموه ، وكثر تعجبهم منه ، وأهلوه المراتب العظيمة ، وزعموا أنه ولي الله وصفيه ، وأنه شبيه بالملك ، وأنه أرفع طبقة من البشر ، ويخضعون له ، ويذلون غاية الذل . ويعدون أنفسهم أشقياء بالإضافة إليه .

والسبب فى ذلك : هو أنهم : وإن كانوا من أفن الرأى [1] وسفاهته : على ما ترى .

فإن فيهم من تلك القوة الأخرى الكريمة ، المميزة : وإن كانت ضعيفة ما يريهم فضيلة ذوى الفضائل ، فيضطرون إلى إكرامهم وتعظيمهم .

قوى النفس الثلاث

وإذا كانت القوى ثلاثاً ، كما قلنا مراراً : فأدونها النفس البهيمية ، وأوسطها النفس السبعية [2] ، وأشرفها النفس الناطقة .

والإنسان إنما صار إنساناً : بأفضل هذه النفوس ، أعنى الناطقة ، وبها شارك الملائكة ، وبها باين البهائم .

فأشرف الناس : من كان حظه من هذه النفس : أكثر ، وانصرافه إليها أتم وأوفر .

ومن غلبت عليه إحدى النفسين الأخريين : انحط عن مرتبة الإنسانية : بحسب غلبة تلك النفس عليه .

فانظر رحمك الله : أين تضع نفسك ؟ وأين تحب أن تنزل من المنازل التى رتبها الله تعالى الموجودات ؟

فإن هذا أمر موكول إليك ، ومردود إلى اختيارك .

فإن شئت فانزل فى منازل البهائم : فإنك تكون منهم .

وإن شئت فانزل فى منازل السباع .

---

(١) أفن الرجل : نقص عقله . فهو مأفون .

(٢) السبعية : نسبة إلى السبع : فى سرعة غضبه ، وشدة فتكه .

وإن شئت فانزل فى منازل الملائكة وكن منهم .

وفى كل واحدة من هذه المراتب : مقامات كثيرة .

فإن بعض البهائم : أشرف من بعض ، وذلك لقبول التأديب : لأن الفرس إنما شرف عن الحمار : لقبوله الأدب .

وكذلك فى البازى[1] فضيلة على الغراب .

وإذا تأملت الحيوان كله : وجدت القابل للتأديب ، الذى هو أثر النطق . أعنى النفس الناطقة : أفضل من سائره ، وهو يتدرج فى ذلك إلى أن يصير إلى الحيوان الذى هو فى أفق الإنسان .

أعنى الذى هو أكمل البهائم : وهو فى أخس مرتبة الإنسانية .

وذلك أن أخس الناس : هو من كان قليل العقل ، قريباً من البهيمية ، وهم القوم الذين فى أقاصى الأرض المعمورة ، وسكان أخر ناحية الجنوب والشمال : لا ينفصلون عن القرود إلا بشىء قليل من التميز .

وبذلك القدر يستحقون اسم الإنسانية ، ثم يتميزون ويتزايدون فى هذا المعنى : حتى يبلغوا إلى وسط الأقاليم ، ويعتدل فيهم المزاج القابل لصورة العقل : فيصير فيهم العاقل التام ، والمميز العالم .

ثم يتفاضلون فى هذا المعنى أيضاً : إلى أن يصيروا إلى غاية ما يمكن للإنسان أن يبلغ إليه : من قبول قوة العقل والنطق ، فيصير حينئذ فى الأفق : الذى بين الإنسان والملك .

ويصير فيهم القابل للوحى ، والمطيق لحمل الحكمة : فتفيض عليه قوة العقل ، ويسيح إليه نور الحق .

ولا حالة للإنسان : أعلى من هذه ما دام إنساناً .

---

(١) البازى : نوع من الصقور : يتخذ للصيد .

ثم ارجع القهقرى إلى النظر فى الرتبة الناقصة : التى هى أدون مراتب الإنسان : فإنك تجد القوم الذين تضعف فيهم القوة الناطقة ، وهم القوم الذين ذكرنا أنهم فى أفق البهائم : تقوى فيهم النفس البهيمية : فيميلون إلى شهواتها المأخوذة بالحواس : كالمأكول ، والمشروب ، والملبوس ، وسائر النزوات الشبيهة بها .

وهؤلاء هم الذين تجذبهم الشهوات القوية بقوة نفوسهم البهيمية : حتى يرتكبوها ، ولا يرتدعوا عنها .

وبقدر ما يكون فيهم من القوة العاقلة : يستحيون منها : حتى يستتروا بالبيوت ، ويتواروا بالظلمات : إذا هموا بلذة تخصهم .

وهذا الحياء منهم : هو الدليل على قبحها .

فإن الجميل بالإطلاق : هو الذى يتظاهر به ، ويستحب إخراجه وإذاعته .

وهذا القبح : ليس بشىء أكثر من النقصانات اللازمة للبشر ، وهى التى يشتاقون إلى إزالتها ، وأخسها : هو أنقصها . وأنقصها : أحوجها إلى الستر والدفن .

ولو سألت القوم : الذين يعظمون أمر اللذة ، ويجعلونها الخير المطلوب ، والغاية الانسانية : لم تكتمون الوصول إلى أعظم الخيرات عندكم ؟ وما بالكم تعدون موافقتها خيراً ثم تسترونها ؟

أترون سترها وكتمانها ، فضيلة ، ومروءة . وإنسانية . والمجاهرة بها وإظهارها بين أهل الفضل ، وفى مجامع الناس : خساسة ، وقحة ؟

لظهر من انقطاعهم ، وتبلدهم فى الجواب : ما تعلم به سوء مذهبهم ، وخبث سيرتهم .

وأقلهم حظاً من الانسانية : إذا رأى إنساناً فاضلا احتشمه ، ووقره ، وأحب أن يكون مثله : إلا الشاذ منهم : الذى يبلغ من خساسة الطبع ، ونزارة الإنسانية ، ووقاحة الوجه : إلى أن يقيم على نصرة ما هو عليه : من غير محبة لرتبة من هو أفضل منه !

الواجب على العاقل

فإذاً : يجب على العاقل : أن يعرف ما ابتلى به الإنسان : من هذه النقائص : التى فى جسمه ، وحاجاته الضرورية : إلى إزالتها وتكميلها . إما بالغذاء : الذى يحفظ به اعتدال مزاجه ، وقوام حياته : فينال منه قدر الضرورة فى كماله ، ولا يطلب اللذة لعينها . بل قوام الحياة التى تتبعه اللذة .

فإن تجاوز ذلك قليلا : فبقدر ما يحفظ رتبته فى مروءته . ولا ينسب إلى الدناءة والبخل : بحسب حاله ومرتبته بين الناس .

وأما باللباس : فالذى يدفع به أذى الحر والبرد ، ويستر العورة .

فإن تجاوز ذلك : فبقدر ما لا يستحقر ، ولا ينسب إلى الشح على نفسه ، وإلى أن يسقط بين أقرانه ، وأهل طبقته .

وأما بالجماع : فالذى يحفظ نوعه ، وتبقى به صورته : أعنى طلب النسل .

فإن تجاوز ذلك : فبقدر ما لا يخرج به عن السنة ، ولا يتعدى ما يملكه إلى ما يملك غيره . ثم يلتمس الفضيلة فى نفسه العاقلة : التى بها صار إنساناً ، وينظر إلى النقائص التى فى هذه النفس خاصة : فيروم تكميلها بطاقته وجهده .

فإن هذه الخيرات : هى التى لا تستر . وإذا وصل إليها : لا يمنع عنها الحياء ، ولا يتوارى عنها بالحيطان والظلمات . ويتظاهر بها أبداً بين الناس ، وفى المحافل . وهى التى يكون بها بعض الناس أفضل من بعض ، وبعضهم : أكثر إنسانية من بعض .

ويغذو هذه النفس : بغذائها الموافق لها ، المتمم لنقصانها . كما يغذو تلك بأغذيتها الملائمة لها .

فإن غذاء هذه : هو العلم ، والزيادة فى المعقولات ، والارتياض بالصدق فى الآراء ، وقبول الحق حيث كان ، ومع من كان ، والنفور من الكذب ، والباطل : كيف كان ، ومن أين جاء .

فمن اتفق له فى الصبا أن يربى على أدب الشريعة ، ويؤخذ بوظائفها وشرائطها : حتى يتعود .

ثم ينظر بعد ذلك فى كتب الأخلاق : حتى تتأكد تلك الآداب والمحاسن فى نفسه بالبراهين .

ثم ينظر فى الحساب والهندسة : حتى يتعود صدق القول ، وصحة البرهان : فلا يسكن إلا إليها . ثم يتدرج كما رسمناه فى كتابنا الموسوم بترتيب السعادات ومنازل العلوم . حتى يبلغ إلى أقصى مرتبة الانسان ، فهو السعيد الكامل : فليكثر حمد الله تعالى : على الموهبة العظيمة ، والمنة الجسيمة !

ومن لم يتفق له ذلك فى مبدإ نشوه ، ثم ابتلى بأن يربيه والده على رواية الشعر الفاحش ، وقبول أكاذيبه ، واستحسان ما يوجد فيه من ذكر القبائح ، ونيل اللذات . كما يوجد فى شعر امرىء القيس ، والنابغة ، وأشباههما

ثم صار بعد ذلك إلى رؤساء : يقربونه على روايتها ، وقول مثلها ، ويجزلون له العطية ، وامتحن بأقران يساعدونه على تناول اللذات الجسمانية ، ومال طبعه إلى الاستكثار من المطاعم ، والملابس : والمراكب ، والزينة : وارتباط الخيل الفره[1] والعبيد الروقة[2] ، كما اتفق لى مثل ذلك فى بعض الأوقات .

ثم انهمك فيها ، واشتغل بها عن السعادة : التى أهل لها .

---

(١) ارتباط الخيل : أن يجعل لها رباطاً لتربيتها ورعايتها . والفره كركع : جمع فاره ، وهو الجميل الحسن .

(٢) العبد الأروق : الذى حسنت أسنانه ، وصفا خلقه ، وتجمع على روق ، وأريد به هنا : العبيد الحسان ، غالية الأثمان .

فليعد جميع ذلك شقاء لا نعيا . وخسراناً لا ربحاً .

وليجتهد على التدريج إلى فطام نفسه منها . وما أصعب ذلك ، إلا أنه على كل حال خير من التمادى فى الباطل .

وليعلم الناظر فى هذا الكتاب : أنى خاصة تدرجت إلى فطام نفسى بعد الكبر ، واستحكام العادة ، وجاهدتها جهاداً عظيما .

ورضيت لك أيها الفاحص عن الفضائل ، والطالب للأدب الحقيق : بما رضيت لنفسى .

بل تجاوزت لك فى النصيحة إلى أن أشرت عليك بما فاتنى فى ابتداء أمرى : لتدركه أنت ، ودللتك على طريق النجاة : قبل أن تتيه فى مفاوز الضلالة ، وقدمت لك السفينة قبل أن تغرق فى بحر المهالك .

فالله الله فى نفوسكم معاشر الإخوان والأولاد : استسلموا للحق ، وتأدبوا بالأدب الحقيق : لا المزور ، وخذوا الحكمة البالغة ، وانتهجوا الصراط المستقيم ، وتصوروا حالات أنفسكم ، وتذكروا قواها .

واعلموا أن أصح مثل ضرب لكم من نفوسكم الثلاث التى مرّ ذكرها فى المقالة الأولى : مثل ثلاثة حيوانات مختلفة : جمعت فى مكان واحد : ملك ، وسبع ، وخنزير : فأيها غلب بقوته قوة الباقين كان الحكم له .

وليعلم من تصور هذا المثال : أن النفس لما كانت جوهراً غير جسم ، ولا شىء فيها من قوى الجسم وأعراضه ، كما بينا ذلك فى صدر هذا الكتاب : كان اتحادها واتصالها بخلاف اتحاد الأجسام واتصال بعضها ببعض .

النفوس الثلاث

وذلك أن هذه الأنفس الثلاث : إذا اتصلت : صارت شيئاً واحداً .

ومع أنها تكون شيئاً واحداً : فهى باقية التغاير ، وباقية القوى : تثور الواحدة بعد الواحدة : حتى كأنها لم تتصل بالأخرى ، ولم تتحد بها ، وتستجدى أيضاً الواحدة للأخرى : حتى كأنها موجودة ولا قوة لها ، تنفرد بها .

وذلك أن اتحادها ليس بأن تتصل نهايتها ، ولا بأن تتلاقى سطوحها ، كما يكون ذلك فى الأجسام : بل تصير فى بعض الأحوال شيئاً واحداً ، وفى بعض الأحوال أشياء مختلفة ، بحسب ما تهيج قوة بعضها أو تسكن .

ولذلك قال قوم : إن النفس واحدة : ولها قوى كثيرة .

وقال آخرون : بل هى واحدة بالذات ، كثيرة بالعرض وبالموضوع ، وهذا شىء يخرج الكلام فيه عن غرض الكتاب ، وسيمر بك فى موضعه ، وليس يضرك فى هذا الوقت : أن تعتقد أى هذه الآراء شئت ، بعد أن تعلم أن بعض هذه كريمة أدبية بالطبع ، وبعضها مهينة عادمة للأدب بالطبع ، وليس فيها استعداد لقبول الأدب ، وبعضها عادمة للأدب ، إلا أنها تقبل التأديب ، وتنقاد للتى هى أدبية .

أما الكريمة الأدبية بالطبع : فالنفس الناطقة .

وأما العادمة للأدب : وهى مع ذلك غير قابلة له : فهى النفس البهيمية .

وأما التى عدمت الأدب ، ولكنها تقبله ، وتنقاد له : فهى النفس الغضبية .

وإنما وهب الله تعالى لنا هذه النفس خاصة : لنستعين بها على تقويم البهيمية التى لا تقبل الأدب .

وقد شبه القدماء : الإنسان وحاله فى هذه الأنفس الثلاث : بإنسان راكب دابة قوية : يقود كلباً ، أو فهداً للقنص . فإن كان الإنسان من بينهم : هو الذى يروض دابته وكلبه : يصرفهما ويطيعانه فى سيره ، وتصيده ، وسائر تصرفاته : فلا شك فى رغد العيش المشترك بين الثلاثة ، وحسن أحواله : لأن الانسان يكون مرفهاً فى مطالبه : يجرى فرسه حيث يحب ، وكما يحب ، ويطلق كلبه أيضاً كذلك ، فإذا نزل واستراح : أراحهما معه ، وأحسن القيام عليهما : فى المطعم ، والمشرب ، وكفاية الأعداء ، وغير ذلك من مصالحهما .

وإذا كانت البهيمية هى الغالبة : ساءت حال الثلاثة ، وكان الإنسان مضعوفاً عندهما : فلم تطع فارسها وغلبت .

فإن رأت عشباً من بعيد : عدت نحوه ، وتعسفت فى عدوها ، وعدلت عن الطريق النهج : فاعترضتها الأودية ، والوهاد ، والشوك ، والشجر : فتقحمتها ، وتورطت فيها ، ولحق فارسها ما يلحق مثله فى هذه الأحوال ، فيصيبهم جميعاً من أنواع المكاره ، والاشراف على الهلكة : ما لا خفاء فيه .

وكذلك إن قوى الكلب : لم يطع صاحبه : فإن رأى من بعيد صيداً ، أو ما يظنه صيداً أخذ نحوه : فجذب الفارس وفرسه ، ولحق الجميع من الضرر والضر أضعاف ما ذكرناه .

وفى تصور هذا المثل الذى ضربه القدماء : تنبيه على حال هذه النفوس ، ودلالة على ما وهبه الله عز وجل للإنسان ، ومكنه منه ، وعرضه له ، وما يضيعه بعصيان خالقه تعالى فيه : عند إهمال السياسة ، واتباعه أمر هاتين القوتين ، وتعبده لهما ، وهما اللذان ينبغى أن يتبعاه بتأمره عليهما ، فمن أسوأ حالا ممن أهمل سياسة الله عز وجل ، وضيع نعمته عليه ، وترك هذه القوى فيه : هائجة ، مضطربة : تتغالب ، وصار الرئيس منها مرؤسا ، والملك منها مستعبداً : يتقلب معها فى المهالك : حتى تتمزق ، ويتمزق معها هو أيضاً .

نعوذ بالله من الانتكاس فى الخلق : الذى سببه طاعة الشيطان ، واتباع الأبالسة : فليست الاشارة بها إلى غير هذه القوى التى وصفناها ووصفنا أحوالها .

نسأل الله تعالى عصمته : ومعونته على تهذيب هذه النفوس : حتى ننتهى فيها إلى طاعة الله : التى هى نهاية مصالحنا ، وبها نجاتنا وخلاصنا : إلى الفوز الأكبر ، والنعيم السرمدى !

سياسة النفس العاقلة

وقد شبه الحكماء من أهمل سياسة نفسه العاقلة ، وترك سلطان الشهوة ، يستولى عليها : برجل معه ياقوتة حمراء شريفة : لا قيمة لها من الذهب والفضة : جلالة ونفاسة .

وكان بين يديه نار تضطرم : فرماها فى حباحبها[1] : حتى صارت كلساً[2] : لا منفعة فيها فخسرت : فخسر ضروب منافعها .

فقد علمنا الآن : أن النفس العاقلة : إذا عرفت شرف نفسها ، وأحست بمرتبتها من الله عز وجل : أحسنت خلافته فى تربية هذه القوى وسياستها ، ونهضت بالقوة التى أعطاها الله تعالى : إلى محلها من كرامة الله تعالى ، ومنزلتها من العلو والشرف ، ولم تخضع للسبعية[3] ، ولا البهيمية .

بل تقوم النفس الغضبية التى سميناها سبعية : وتقودها إلى الأدب : بحملها على حسن طاعتها . ثم تستنهضها فى أوقات هيجان هذه النفس البهيمية ، وحركتها إلى الشهوات : حتى يقمع بهذه سلطان تلك ، وتستخدمها فى تأديبها ، وتستعين بقوة هذه على تأبى تلك .

وذلك أن هذه النفس الغضبية : قابلة للأدب ، قوية على قمع الأخرى كما قلنا .

---

(١) الحباحب : الشرر الذى يتطاير من النار العظيمة .

(٢) الكلس : هو المادة التى تتبقى من الحجارة بعد حرقها ، وضياع خصائصها .

(٣) السبعية : نسبة إلى السبع ، فى سرعة غضبه ، وشدة بطشه .

وتلك النفس البهيمية : عادمة للأدب ، غير قابلة له .

وأما النفس الناطقة أعني العاقلة ، فهى كما قال أفلاطون بهذه الألفاظ : أما هذه فبمنزلة الذهب فى اللين والانعطاف .

وأما تلك فبمنزلة الحديد فى الصلابة والامتناع .

فإن أنت آثرت الفعل الجميل : فى وقت ، وجاذبتك القوة الأخرى إلى اللذة ، وإلى خلاف ما آثرت : فاستعن بقوة الغضب التى تثير وتهيج : بالأنفة والحمية ، واقهر بهما النفس البهيمية .

فإن غلبتك مع ذلك ثم ندمت وأنفت : فأنت فى طريق الصلاح : فتمم عزيمتك ، واحذر أن تعاودك بالطمع فيك ، والغلبة لك .

فإن لم تفعل ذلك ، ولم تمكن العقبى فى الغلبة لك : كنت كما قال الحكيم الأول :

إنى أرى أكثر الناس يدعون محبة الأفعال الجميلة ، ثم لا يحتملون المؤنة فيها على علمهم بفضلها : فيغلبهم الترفه ، ومحبة البطالة . فلا يكون بينهم وبين من لا يحب الأفعال الجميلة فرق ، إذا لم يحتملوا مؤنة الصبر ، ويصبروا إلى تعلم تمام ما آثروه وعرفوا فضله .

واذكر مثل البئر التى تردى فيها الأعمى والبصير : فيكونان فى الهلكة سواء : إلا أن الأعمى أعذر .

ومن وصل من هذه الآداب إلى مرتبة يعتد بها ، واكتسب بها الفضائل التى عددناها : فقد وجب عليه تأديب غيره ، وإفاضة ما أعطاه الله على أبناء جنسه !

فصل

في تأديب الأحداث والصبيان خاصة

(نقلت أكثره من كتاب بروسن)

قد قلنا فيما تقدم : إن أول قوة تظهر في الإنسان ، وأول ما يتكون : هي القوة التي يشتاق بها إلى الغذاء ، الذي هو سبب كونه حياً ، فيتحرك بالطبع إلى اللبن : يلتمسه من الثدي الذي هو معدنه ، من غير تعليم ، ولا توقيف ، أو يحدث له مع ذلك قوة على التماسه : بالصوت الذي هو مادته ، ودليله الذي يدل به على اللذة والأذى .

ثم تتزايد فيه هذه القوة ، ويتشوق بها أبداً إلى الازدياد ، والتصرف بها في أنواع الشهوات .

ثم تحدث فيه قوة على التحرك نحوها : بالآلات التي تخلق له الشوق إلى الأفعال التي تحصل له هذه .

ثم يحدث له من الحواس : قوة على تخيل الأمور ، ويرسم في قوته الخيالية : مثالات فيتشوق إليها .

ثم تظهر فيه قوة الغضب : التي يشتاق بها إلى دفع ما يؤذيه ، ومقاومة ما يمنعه من منافعه .

فإن أطاق بنفسه أن ينتقم من مؤذياته : انتقم منها ، وإلا التمس معونة غيره : وانتصر بوالديه : بالتصويت والبكاء .

ثم يحدث له الشوق إلى تمييز الأفعال الإنسانية خاصة : أولا أولا حتى يصير إلى كماله في هذا التمييز ، فيسمى حينئذ : عاقلا .

وهذه القوى كثيرة ، وبعضها ضروري في وجود الآخر. .
الأخيرة . وهي التي لا تراد لغاية أخرى . وهو الخير المطلق
حيث هو إنسان .

فأول ما يحدث فيه من هذه القوة : الحياء ، وهو الخوف من ظهور شو

ولذلك قلنا : إن أول ما ينبغي أن يتفرس في الصبي ، ويستدل به على عقل فإنه يدل على أنه قد أحس بالقبيح ، ومع إحساسه به هو : يحذره ويتجنبه أن يظهر منه أو فيه .

فإذا نظرت إلى الصبي : فوجدته مستحييا ، مطرقاً بطرفه إلى الأرض ، الوجه ، ولا محدق إليك : فهو أول دليل نجابته ، والشاهد لك أن نفسه قد أحس والقبيح ، وأن حياءه هو انحصار نفسه خوفاً من قبيح يظهر منه ، وهذا ليس بش من إيثار الجميل ، والهرب من القبيح : بالتمييز والعقل ، وهذه النفس مستعدة للت صالحة للعناية : لا يجب أن تهمل ، ولا تترك .

ومخالطة الأضداد الذين يفسدون بالمقارنة والمداخلة .

وإن كانت بهذه الحال من الاستعداد لقبول الفضيلة : فإن نفس الصبي ساذجة لم تنتقش بعد بصورة ، وليس لها رأي ، ولا عزيمة : تميلها من شيء إلى شيء .

فإذا نقشت بصورة وقبلتها : نشأ عليها واعتادها .

فالأولى بمثل هذه النفس : أن تنبه أبداً على حب الكرامة ، ولا سيما ما يحصل له منها بالدين دون المال ، وبلزوم سننه ووظائفه .

ثم يمدح الأخيار عنده ، ويمدح هو في نفسه : إذا ظهر شيء جميل منه .

ويخوف من المذمة على أدنى قبيح يظهر منه .

ويؤاخذ باشتهائه للمآكل ، والمشارب ، والملابس الفاخرة ، ويزين عنده خلق النفس ، والترفع عن الحرص فى المآكل خاصة ، وفى اللذات عامة .

ويحبب إليه إيثار غيره على نفسه بالغذاء ، والاقتصار على الشىء المعتدل والاقتصاد فى التماسه .

الملابس

ويعلم أن أولى الناس بالملابس الملونة والمنقوشة : النساء ، اللاتى يتزين للرجال ، ثم العبيد والخول (١) .

وأن الأحسن بأهل النبل والشرف من اللباس : البياض ، وما أشبهه : حتى يتربى على ذلك ، ويسمعه كل من يقرب منه ، ويتكرر عليه ، ولم يترك مخالطة من يسمع منه ضد ما ذكرته : لا سيما من أترابه ، ومن كان فى مثل سنه : ممن يعاشره ويلاعبه .

وذلك أن الصبى فى ابتداء نشوه ، يكون على الأكثر : قبيح الأفعال : إما كلها ، وإما أكثرها : فإنه يكون كذوباً ، ويخبر ويحكى : ما لم يسمعه ولم يره ، ويكون حسوداً ، سروقاً ، نماماً ، لجوجاً : ذا فضول : أضر شىء بنفسه ، وبكل أمر يلابسه .

ثم لا يزال به التأديب ، والسنن ، والتجارب : حتى ينتقل فى أحوال بعد أحوال .

فلذلك ينبغى أن يؤخذ ما دام طفلا : بما ذكرناه ، ونذكره : ثم يطالب بحفظ محاسن الأخبار ، والأشعار : التى تجرى مجرى ما تعوده بالأدب : حتى يتأكد عنده ، بروايتها وحفظها ، والمذاكرة بها ، جميع ما قدمنا .

---

(١) الخول : العبيد والإماء .

ويحذر النظر فى الأشعار السخيفة ، وما فيها من ذكر العشق وأهله ، وما يوهمه أصحابها : أنه ضرب من الظرف ، ورقة الطبع : فإن هذا الباب مفسدة للأحداث جداً .

ثم يمدح بكل ما يظهر منه من خلق جميل ، وفعل حسن ، ويكرم عليه .

فإن خالف فى بعض الأوقات ما ذكرته . فالأولى أن لا يوبخ عليه ، ولا يكاشف بأنه أقدم عليه : بل يتغافل عنه تغافل من لا يخطر بباله أنه قد تجاسر على مثله ، ولا هم به : لا سيا إن ستره الصبى ، واجتهد فى أن يخفى ما فعله عن الناس .

فإن عاد فليوبخ عليه سراً[1] وليعظم عنده ما أتاه : ويحذر من معاودته .

فإنك إن عودته التوبيخ ، والمكاشفة : حملته على الوقاحة ، وحرضته على معاودة ما كان استقبحه ، وهان عليه سماع الملامة فى ركوب قبائح اللذات : التى تدعو إليها نفسه ، وهذه اللذات كثيرة جداً !

آداب المطاعم

والذى ينبغى أن يبدأ به فى تقويمها ، آداب المطاعم : فيفهم أولا : أنها إنما تراد للصحة ، لا للذة ، وأن الأغذية كلها ، إنما خلقت ، وأعدت لنا : لتصح بها أبداننا ، وتصير مادة حياتنا ، فهى تجرى مجرى الأدوية ، ليتداوى بها الجوع ، والألم الحادث منه .

فكما أن الدواء : لا يرام للذة ، ولا يستكثر منه للشهوة ، فكذلك الأطعمة ، لا ينبغى أن يتناول منها إلا ما يحفظ صحة البدن ، ويدفع ألم الجوع ، ويمنع من المرض : فيحقر

---

(١) قال الشاعر :

تعمدنى بنصحك : فى انفرادى   وجنبنى النصيحة : فى الجماعه
فإن النصح بين الناس : نوع   من التوبيخ : لا أرضى استماعه

عنده قدر الطعام : الذى يستعظمه أهل الشره ، ويقبح عنده صورة من شره إليه ، وينال منه فوق حاجة بدنه ، أو ما لا يوافقه : حتى يقتصر على لون واحد [١] .

ولا يرغب فى الألوان الكثيرة .

وإذا جلس مع غيره : لا يبادر إلى الطعام ، ولا يديم النظر إلى ألوانه ، ولا يحدق إليه شديداً ، ويقتصر على ما يليه ، ولا يسرع فى الأكل ، ولا يوالى بين اللقم بسرعة ، ولا يعظم اللقمة ، ولا يبتلعها : حتى يجيد مضغها ، ولا يلطخ يده ، ولا ثوبه ، ولا يلحظ من يواكله ، ولا يتبع بنظره مواقع يده من الطعام .

ويعود أن يؤثر غيره بما يليه : إن كان أفضل ما عنده .

ثم يضبط شهوته حتى يقتصر على أدنى الطعام وأدونه ، ويأكل الخبز القفار : الذى لا أدم معه فى بعض الأوقات .

وهذه الآداب : وإن كانت جميلة بالفقراء : فهى بالأغنياء أفضل وأجمل .

وينبغى أن يستوفى غذاءه بالعشى ، فإن استوفاه بالنهار : كسل ، واحتاج إلى النوم ، وتبلد فهمه مع ذلك .

وإن منع اللحم فى أكثر أوقاته : كان أنفع له وقعاً : فى الحركة والتيقظ ، وقلة البلادة ، وبعثه على النشاط والخفة .

وأما الحلواء والفاكهة : فينبغى أن يمتنع منها ألبتة إن أمكن ، وإلا فليتناول أقل ما يمكن : فإنها تستحيل فى بدنه : فتكثر انحلاله ، وتعوده مع ذلك على الشره ، ومحبة الاستكثار من المآكل .

ويعود أن لا يشرب فى خلال طعامه الماء .

فأما النبيذ وأصناف الأشربة المسكرة : فإياه وإياها ، فإنها تضره فى بدنه ونفسه ، وتحمله على سرعة الغضب ، والتهور ، والإقدام على القبائح ، والقحة ، وسائر الخلال المذمومة .

---

(١) قال صلى الله تعالى عليه وسلم « ما ملأ ابن آدم وعاء : شر من بطنه » .

آدابٌ متنوّعة

ولا ينبغى أن يحضر مجالس أهل الشرب ، إلا أن يكون أهل المجلس : أدباء فضلاء [١] .

وأما غيرهم فلا ، لئلا يسمع الكلام القبيح ، والسخافات التى تجرى فيه .

وينبغى أن لا يأكل حتى يفرغ من وظائف الأدب التى يتعلمها ، ويتعب تعباً كافياً .

وينبغى أن يمنع من كل فعل : يستره ويخفيه .

فإنه ليس يخفى شيئاً ، إلا وهو يظن أو يعلم أنه قبيح .

ويمنع من النوم الكثير : فإنه يقبحه ، ويغلظ ذهنه ، ويميت خاطره : هذا بالليل ، فأما بالنهار ، فلا ينبغى أن يتعوده البتة .

ويمنع أيضاً من الفراش الوطىء ، وجميع أنواع الترفه : حتى يصلب بدنه ، ويتعود الخشونة ، ولا يتعود الخيش [٢] ، والأسراب [٣] فى الصيف ، ولا الأوبار والنيران : فى الشتاء ، للأسباب التى ذكرناها .

ويعود المشى ، والحركة ، والركوب ، والرياضة : حتى لا يتعود أضدادها .

---

(١) وأين الأدب والفضل : عند من أساء الأدب مع الله : الذى خلقه وسواه ، ومن الشرب : منعه ونهاه !

بل الواجب أن يمتنع عن مجالس الشرب البتة . فشاهد القمار لابد أن يصير لاعباً ، وشاهد الشرب لا بد أن يصير — يوما ما — شاربا ، وكل قرين بالمقارن يقتدى .

(٢) الخيش : ثياب تتخذ من الكتان ، أو هو ثياب مزينة بالقصب .

(٣) الأسراب : لم نجد فى كتب اللغة ما يدل عليه ، ولعله ثياب رقيقة : تلبس فى الصيف . أو ثوب يحلى بالخرز ، وكل هذه المعانى تحتملها الكلمة .

ويعود المشى : أن لا يكشف أطرافه ، ولا يسرع فى المشى ، ولا يرخى يديه ، بل يضمهما إلى صدره ، ولا يربى شعره ، ولا يزين بملابس النساء ، ولا يلبس خاتماً إلا وقت حاجته إليه ، ولا يفتخر على أقرانه ، بشىء مما يملكه والداه ، من مأكله وملابسه ، وما يجرى بجراه ، ولا يشين[1] : بل يتواضع لكل أحد ، ويكرم كل من عاشره .

ولا يتوصل بشرف : إن كان له ، أو سلطان من أهله : إن اتفق إلى غضب من هو دونه : أو استهداء من لا يمكنه أن يرده عن هواه ، أو تطاوله عليه .

كمن اتفق له أن كان خاله وزيراً أو عمه سلطاناً : فتطرق به إلى هضيمة أقرانه ، وسلم إخوانه [2] ، واستباحة أموال جيرانه ومعارفه .

وينبغى أن يعود أن لا يبصق فى مجالسه ، ولا يتمخط ، ولا يتثاءب بحضرة غيره ، ولا يضع رجلا على رجل ، ولا يضرب تحت ذقنه بساعده ، ولا يعمد رأسه بيديه : فإن هذا دليل الكسل ، وأنه قد بلغ به التقبيح إلى أن لا يحمل رأسه . حتى يستعين بيده .

ويعود أن لا يكذب ، ولا يحلف البتة : لا صادقاً ، ولا كاذباً ، فإن هذا قبيح بالرجال : مع الحاجة إليه فى بعض الأوقات .

فأما الصبى : فلا حاجة به إلى اليمين .

ويعود أيضاً قلة الكلام : فلا يتكلم إلا جوابا .

وإذا حضر من هو أكبر منه : اشتغل بالاستماع منه ، والصمت له .

ويمنع من خبيث الكلام ، وهجينه [3] ، ومن السب ، واللعن ، ولغو القول .

ويعود حسن الكلام وظريفه ، وجميل اللقاء وكريمه ، ولا يرخص له أن يستمع لأضدادها من غيره .

---

(١) الشين : العيب والقبيح ، وهو ضد الزين . ومن الشين : أن يكون غليظاً متكبراً .
(٢) أراد بسلم إخوانه : خذلانهم ، وإهمالهم ، وتركهم لعدوهم .
(٣) هجين الكلام : سيؤه ، وأرذله .

ويعود خدمة نفسه ، ومعلمه ، وكل من كان أكبر منه .

وأحوج الصبيان إلى هذا الأدب : أولاد الأغنياء والمترفين .

وينبغى : إذا ضربه المعلم : أن لا يصرخ ، ولا يستشفع بأحد . فإن هذا فعل المماليك ، ومن هو خوار ضعيف .

ولا يعير أحداً إلا بالقبيح ، والسيء من الأدب .

ويعود أن لا يوحش الصبيان : بل يبرهم ، ويكافئهم على الجميل : بأكثر منه : لئلا يتعود الربح على الصبيان وعلى الصديق .

ويبغض إليه الفضة والذهب ، ويحذر منهما : أكثر من تحذير السباع والحيات والعقارب والأفاعى .

فإن حب الفضة والذهب : آفته أكثر من آفات السموم .

وينبغى أن يؤذن له فى بعض الأوقات : أن يلعب لعباً جميلا : ليستريح إليه من تعب الأدب .

ولا يكون فى لعبه : ألم ولا تعب شديد .

ويعود طاعة والديه ، ومعلميه ، ومؤدبيه .

وأن ينظر إليهم بعين الجلالة والتعظيم ، ويهابهم .

وهذه الآداب النافعة للصبيان : هى للكبار من الناس أيضاً نافعة ، ولكنها للأحداث أنفع : لأنها تعودهم محبة الفضائل ، وينشأون عليها : فلا يثقل عليهم تجنب الرذائل . ويسهل عليهم بعد ذلك : جميع ما ترسمه الحكمة ، وتحده الشريعة والسنة .

ويعتادون ضبط النفس عما تدعوهم إليه من اللذات القبيحة ، وتكفهم عن الانهماك فى شيء منها ، والفكر الكثير فيها ، وتسوقهم إلى مرتبة الفلسفة العالية ، وترقيهم إلى معالى الأمور التى وصفناها فى أول الكتاب : من التقرب إلى الله عز وجل ، ومجاورة الملائكة :

مع حسن الحال فى الدنيا ، وطيب العيش ، وجميل الأحدوثة ، وقلة الأعداء ، وكثرة المداح ، والراغبين فى مودته من الفضلاء خاصة .

فإذا تجاوز هذه الرتبة ، وبلغ أيامه إلى أن يفهم أغراض الناس ، وعواقب الأمور : فهم أن الغرض الأخير من هذه الأشياء : التى يقصدها الناس ، ويحرصون عليها : من الثروة ، واقتناء الضياع ، والعبيد ، والخيل ، والفرش ، وأشباه ذلك : إنما هو لترفيه البدن وحفظ الصحة .

وأن يبقى على اعتداله مدة ما .

وأن لا يقع فى الأغراض ، ولا تفجأه المنية .

وأن يهنأ بنعمة الله عليه ، ويستعد لدار البقاء والحياة السرمدية .

وأن اللذات كلها فى الحقيقة : هى خلاص من آلام وراحات من تعب .

فإذا عرف ذلك وتحققه ، ثم تعوده بالسيرة الدائمة ، وعود الرياضيات : التى تحرك الحرارة الغريزية ، وتحفظ الصحة ، وتنفى الكسل ، وتطرد البلادة ، وتبعث النشاط ، وتذكى النفس .

فمن كان ممولا مترفاً : كانت هذه الأشياء التى رسمتها أصعب عليه ، لكثرة من يهتف به ، ويغويه ، ولموافقة طبيعة الإنسان فى أول ما تنشأ هذه اللذات ، وإجماع جمهور الناس على نيل ما أمكنهم منها . وطلب ما تعذر عليهم بغاية جهدهم .

فأما الفقراء : فالأمر عليهم أسهل ، بل هم قريبون إلى الفضائل ، قادرون عليها ، متمكنون من نيلها والإصابة منها .

وحال المتوسطين من الناس : متوسطة بين هاتين الحالتين .

وقد كان ملوك الفرس الفضلاء : لا يربون أولادهم بين حشمهم ، وخواصهم : خوفاً عليهم من الأحوال التى ذكرناها ، ومن سماع ما حذرت منه .

وكانوا ينفذونهم مع ثقاتهم إلى النواحى البعيدة منهم .

وكان يتولى تربيتهم : أهل الجفاء ، وخشونة العيش ، ومن لا يعرف التنعم ، ولا الترفه ، وأخبارهم فى ذلك مشهورة .

وكثير من رؤسائهم فى زماننا هذا : ينقلون أولادهم عند ما ينشأون : إلى بلادهم ليتعودوا بها هذه الأخلاق ، ويبعدوا عن عادات أهل البلدان الرديئة .

وإذ قد عرفت هذه الطرق المحمودة ، فى تأديب الأحداث : فقد عرفت أضدادها .

أعنى أن من نشأ على خلاف هذا المذهب من التأديب : لم يرج فلاحه ، ولا ينبغى أن يشتغل بصلاحه وتقويمه : فإنه قد صار بمنزلة الخنزير الوحشى : الذى لا يطمع فى رياضته . فإن نفسه العاقلة : تصير خادمة لنفسه البهيمية ، ولنفسه الغضبية : فهى منهمكة فى مطالبها من النزوات .

وكما أنه لا سبيل إلى رياضة سباع البهائم الوحشية : التى لا تقبل التأديب ، كذلك لا سبيل إلى رياضة من نشأ على هذه الطريقة واعتادها ، وأمعن قليلا فى السن .

اللهم إلا أن يكون فى جميع أحواله : عالماً بقبح سيرته ، ذاماً لها ، عائباً على نفسه ، عازماً على الإقلاع والإنابة .

فإن مثل هذا الإنسان : من يرجى له النزوع عن أخلاقه بالتدريج ، والرجوع إلى الطريقة المثلى : بالتوبة ، وبمصاحبة الأخيار ، وأهل الحكمة ، وبالإكباب على التفلسف .

وإذ قد ذكرنا الخلق المحمود ، وما ينبغى أن يؤخذ به الأحداث والصبيان : فنحن واصفون جميع القوى التى تحدث للحيوان أولا أولا إلى أن ينتهى إلى أقصى الكمال فى الإنسانية .

فإنك شديد الحاجة إلى معرفة ذلك : لتبتدئ على الترتيب الطبيعى فى تقويم واحد منها فنقول :

الأجسام الطبيعية

إن الأجسام الطبيعية كلها : تشترك فى الحد الذى يعمها : ثم تتفاضل بقبول الآثار الشريفة ، والصور التى تحدث فيها .

فإن الجماد منها : إذا قبل صورة مقبولة عند الناس : صار بها أفضل من الطينة الأولى : التى لا تقبل تلك الصورة .

فإذا بلغ إلى أن يقبل صورة النبات : صار بزيادة هذه الصورة أفضل من الجماد . وتلك الزيادة : هى الاغتذاء ، والنمو ، والامتداد فى الأقطار ، واجتذاب مايوافقه من الأرض والماء ، وترك مالا يوافقه ، ونفض الفضلات التى تتولد فيه من غذائه عن جسمه بالصموغ(١) .

وهذه هى الأشياء التى ينفصل بها النبات من الجماد ، وهى حال زائدة على الجسمية التى حددناها . وكانت حاصلة فى الجماد .

وهذه الحالة الزائدة فى النبات : التى شرف بها على الجماد تتفاضل . وذلك أن بعضه يفارق الجماد مفارقة يسيرة : كالمرجان وأشباهه . ثم يتدرج فيها : فيحصل له من هذه الزيادة شىء بعد شىء : فبعضه ينبت من غير زرع ، ولا بذر ، ولا يحفظ نوعه بالثمر والبذر . ويكفيه فى حدوثه : امتزاج العناصر ، وهبوب الرياح ، وطلوع الشمس . فلذلك هو فى أفق الجمادات ، وقريب الحال منها . ثم تزداد هذه الفضيلة فى النبات : فيفضل بعضه على بعض : بنظام وترتيب حتى تظهر فيه قوة الإثمار ، وحفظ النوع بالبذر : الذى يخلف به مثله . فتصير هذه الحالة زائدة فيه ، ومميزة له عن حال ما قبله .

ثم تقوى هذه الفضيلة فيه حتى يصير فضل الثالث على الثانى : كفضل الثانى على الأول . ولا يزال يشرف ويفضل بعضه على بعض : حتى يبلغ إلى أفقه ، ويصير فى أفق الحيوان :

---

(١) الصموغ : جمع صمغ . وأريد بذلك : مايتخلف فى الجسم من أذى الأطعمة الدسمة .

وهى كرام الشجر : كالزيتون ، والرمان ، والكرم ، وأصناف الفواكه . إلا أنها بعد مختلطة القوى : أعنى أن قوى ذكورها وإناثها : غير متميزة . فهى تحمل وتلد المثل ، ولم تبلغ غاية أفقها الذى يتصل بأفق الحيوان . ثم تزداد وتمعن فى هذا الأفق : إلى أن تصير فى أفق الحيوان : فلا تحتمل زيادة . وذلك أنها إن قبلت زيادة يسيرة : صارت حيواناً ، وخرجت عن أفق النبات : فحينئذ تتميز قواها ، ويحصل فيها ذكورة وأنوثة ، وتقبل من فضائل الحيوان : أموراً تتميز بها عن سائر النبات والشجر : كالنخل الذى طالع أفق الحيوان بالخواص العشر المذكورة فى مواضعها . ولم يبق بينه وبين الحيوان : إلا مرتبة واحدة : وهى الانقلاع من الأرض ، والسعى إلى الغذاء .

وقد روى فى الخبر ما هو كالإشارة ، أو كالرمز إلى هذا المعنى . وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « أكرموا عماتكم النخل : فإنها خلقت من بقية طينة آدم » فإذا تحرك النبات ، وانقلع من أفقه ، وسعى إلى غذائه ، ولم يتقيد فى موضعه : إلى أن يصير إليه غذاؤه : وكونت له آلات أخر : يتناول بها حاجاته : التى تكمله : فقد صار حيواناً .

وهذه الآلات تتزايد فى الحيوان : من أول أفقه ، وتتفاضل فيه : فيشرب فيه بعضها على بعض . كما كان ذلك فى النبات . فلا يزال يقبل فضيلة بعد فضيلة : حتى تظهر فيه قوة الشعور باللذة ، والأذى : فيلتذ بوصوله إلى منافعه ، ويتألم بوصول مضاره إليه . ثم يقبل إلهام الله عز وجل إياه : فيهتدى إلى مصالحه : فيطلبها . وإلى أضداده : فيهرب منها .

وما كان من الحيوان فى أول أفق النبات : فإنه لا يتزاوج ، ولا يخلف المثل : بل يتولد : كالديدان ، والذباب ، وأصناف الحشرات الخسيسة .

ثم يتزايد فيه قبول الفضيلة : كما كان فى النبات سواء .

ثم تحدث فيه قوة الغضب : التى ينهض بها إلى دفع ما يؤذيه : فيعطى من السلاح بحسب قوته ، وما يطيق استعماله ، فإن كانت قوته الغضبية شديدة : كان سلاحه تاماً قوياً . وإن

كانت ناقصة : كان ناقصاً . وإن كانت ضعيفة جداً : لم يعط سلاح البتة . بل أعطى آلة الهرب : كشدة العدو ، والقدرة على الحيل : التى تنجيه من مخاوفه .

وأنت ترى ذلك عياناً من الحيوان : الذى أعطى القرون ، التى تجرى له مجرى الرماح ، والذى أعطى الأنياب والمخالب : التى تجرى له مجرى السكاكين والخناجر .

والذى أعطى آلة الرمى التى تجرى له مجرى النبل والنشاب .

والذى أعطى الحوافر التى تجرى له مجرى الدبوس والطبرزين [1] .

فأما ما لم يعط سلاحاً : لضعفه عن استعماله ، ولقلة شجاعته ، ونقصان قوته الغضبية ، ولأنه لو أعطيه : لصار كلا عليه : فقد أعطى آلة الهرب ، والحيل : بجودة العدو ، والخفة ، والختل [2] ، والمراوغة : كالأرانب وأشباهها .

وإذا تصفحت أحوال الموجودات : من السباع ، والوحش ، والطير : رأيت هذه الحكمة مستمرة فيها ؛ فتبارك الله أحسن الخالقين : لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين . الحمد لله رب العالمين .

فأما الإنسان فقد عوض من هذه الآلات كلها : بأن هدى إلى استعمالها كلها ، وسخرت هذه كلها له ، وسنتكلم على ذلك فى موضعه .

فأما أسباب هذه الأشياء كلها ، والشكوك التى تعترض فى قصد بعضها بعضاً : بالتلف والأنواع من الأذى : فليس يليق بهذا الموضع ، وسأذكرها إن أخر الله فى الأجل : عند بلوغنا إلى الموضع الخاص بها .

---

(١) الطبرزين : فارسى معرب . وهو اسم آلة : تستعمل فى الحروب : يعلقها الفارس بجانبه . وهى تشبه الفأس . وتعرف — فى العربية — بالطبر : يستعملها القصابون . وهى ما يسمونه بالساطور (الشاطور) أى الذى يشطر اللحم والعظم وتسمى (بلطة) .

(٢) الختل : المكر ، والدهاء .

مراتب الحيوان

ونعود إلى ذكر مراتب الحيوان فنقول : إن ما أهدى منها إلى الازدواج ، وطلب النسل ، وحفظ الولد وتربيته ، والإشفاق عليه ، بالسكن والعش واللباس . كما نشاهد فيما يلد ويبيض ، وتغذيته إما باللبن ، وإما بنقل الغذاء إليه : فإنه أفضل مما لا يهتدى إلى شيء منها .

ثم لا تزال هذه الأحوال تتزايد فى الحيوان : حتى يقرب من أفق الإنسان .

فحينئذ يقبل التأديب ، ويصير بقبوله للأدب : ذا فضيلة يتميز بها من سائر الحيوانات .

ثم تتزايد هذه الفضيلة فى الحيوانات ، حتى يشرف بها ضروب الشرف : كالفرس ، والبازى [1] المعلم .

ثم يصير من هذه المرتبة ، إلى مرتبة الحيوان الذى : يحاكى الإنسان من تلقاء نفسه ، ويتشبه به من غير تعليم : كالقردة ، وما أشبهها ، ويبلغ من ذكائها : أن تستكفى فى التأدب : بأن ترى الإنسان يعمل عملا فتعمل مثله ، من غير أن تحوج الإنسان إلى تعب بها ، ورياضة لها .

وهذه غاية أفق الحيوان : التى إن تجاوزها ، وقبل زيادة يسيرة : خرج بها عن أفقه ، وصار فى أفق الإنسان : الذى يقبل العقل ، والتمييز ، والنطق ، والآلات التى يستعملها ، والصور التى تلائمها .

فإذا بلغ هذه الرتبة : تحرك إلى المعارف ، واشتاق إلى العلوم ، وحدثت له قوى ، وملكات ، ومواهب من الله عز وجل : يقتدر بها على الترقى ، والإمعان فى هذه الرتبة . كما كان ذلك فى المراتب الأخرى التى ذكرناها .

---

(١) البازى : نوع من الصقور : يعلم ، ويتخذ للصيد .

وأول هذه المراتب من الأفق الإنسانى : المتصل بآخر ذلك الأفق الحيوانى : مراتب الناس : الذين يسكنون فى أقاصى المعمورة : من الشمال والجنوب : كأواخر الترك ، من بلاد يأجوج ومأجوج ، وأواخر الزنج ، وأشباههم : من الأمم التى لا تميز عن القرود إلا بمرتبة يسيرة .

ثم تتزايد فيهم قوة التمييز ، والفهم : إلى أن يصيروا إلى وسط الأقاليم ، فيحدث فيهم الذكاء ، وسرعة الفهم ، والقبول للفضائل .

وإلى هذا الموضع ينتهى فعل الطبيعة : التى وكلها الله عز وجل بالمحسوسات .

ثم يستعد بهذا القبول : لاكتساب الفضائل واقتنائها : بالإرادة ، والسعى ، والاجتهاد : الذى ذكرناه فيما تقدم ، حتى يصل إلى آخر أفقه .

فإذا صار إلى آخر أفقه : اتصل بأول أفق الملائكة . وهذا أعلى مرتبة الإنسان . وعندها تتأحد الموجودات : ويتصل أولها بآخرها .

وهو الذى يسمى : دائرة الوجود . لأن الدائرة : هى التى قيل فى حدها : إنها خط واحد : يبتدىء بالحركة من نقطة ، وينتهى إليها بعينها .

ودائرة الوجود : هى المتأحدة : التى جعلت الكثرة وحدة . وهى التى تدل دلالة صادقة برهانية : على موجدها ، وحكمته ، وقدرته ، ووجوده : تبارك اسمه ، وتعالى جده ، وتقدس ذكره !

ولولا أن شرح هذا الموضوع : لا يليق بصناعة تهذيب الأخلاق : لشرحته ، وأنت تقف عليه إن بلغت هذه الرتبة بمشيئة الله .

وإذا تصورت قدر ما أومأنا إليه ، وفهمته : اطلعت على الحالة التى خلقت ، وندبت إليها ، وعرفت الأفق الذى يتصل بأفقك ، وتنقلك فى مرتبة بعد مرتبة ، وركوبك طبقاً عن طبق ، وحدث لك الإيمان الصحيح ، وشهدت ما غاب من غيرك : من الدهماء . وبلغت أن تتدرج إلى العلوم الشريفة المكنونة : التى مبدؤها تعلم المنطق . فإنه الآلة فى تقويم الفهم ، والعقل الغريزى .

ثم الوصول به إلى معرفة الخلائق وطباعها .

ثم التعلق بها ، والتوسع فيها ، والتوسل منها إلى العلوم الإلهية .

وحينئذ تستعد لقبول مواهب الله عز وجل ، وعطاياه : فيأتيك الفيض الإلهى ؛ فتسكن عن قلق الطبيعة ، وحركاتها نحو الشهوات الحيوانية ، وتلحظ المرتبة التى ترقيت فيها أولا فأولا : من مراتب الموجودات .

وعلمت أن كل مرتبة منها : محتاجة إلى ما قبلها فى وجودها .

وعلمت أن الإنسان ، لا يتم له كماله : إلا بعد أن يحصل له ما قبله .

وإذا صار إنساناً كاملا ، وبلغ غاية أفقه : أشرق نور الأفق الأعلى عليه : وصار إما حكيما تاماً تأتيه الإلهامات : فيما يتصرف فيه ، من المحاولات الحكمية ، والتأييدات العلوية فى التصورات العقلية [1] .

وإما نبياً مؤيداً يأتيه الوحى على ضروب المنازل : التى تكون له عند الله تعالى ذكره .

فيكون حينئذ ، واسطة بين الملإ الأعلى ، والملإ الأسفل .

وذلك بتصوره حال الموجودات كلها : والحال التى ينتقل إليها من حال الإنسية ، ومطالعة الآفاق التى ذكرناها .

وحينئذ يفهم عن الله عز وجل قوله (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) .

وتصور معنى قوله صلى الله عليه وسلم (هناك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) .

وإذا بلغ منا الكلام إلى ذكر هذه المنزلة العالية الشريفة : التى أهل الإنسان لها ، ونسقنا أحواله التى يترقى فيها ، وأنه يكون أولا بالشوق إلى المعارف والعلوم : فينبغى أن نزيد فى بيانه وشرحه فنقول :

---

(١) جاء فى الحديث القدسى عن رب العزة سبحانه وتعالى « . . . وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى : مما افترضت عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته : كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه ! . . . »

الشوق إلى المعارف والعلوم

إن هذا الشوق : ربما ساق الإنسان على منهج قويم ، وقصد صحيح : حتى ينتهى إلى غاية كماله ، وهى سعادته التامة .

وقلما يتفق ذلك ، وربما اعوج به عن السمت والسنن ، وذلك لأسباب كثيرة : يطول ذكرها ، ولا حاجة بك إلى علمها الآن وأنت فى تهذيب خلقك .

فكما أن الطبيعة : المدبرة للأجسام : ربما شوقت إلى ما ليس بتمام للجسم الطبيعى ، لعلل تحدث به ، وآفات تطرأ عليه : بمنزلة من يشتاق إلى أكل الطين ، وما جرى مجراه : عما لا يكمل طبيعة الجسد ، بل يهدمه ويفسده .

كذلك أيضاً النفس الناطقة : ربما اشتاقت إلى النظر والتمييز الذى لا يكملها ، ولا يشوقها نحو سعادتها ، بل يحركها إلى الأشياء التى تعوقها ، وتقصر بها عن كمالها : فحينئذ يحتاج إلى علاج نفسانى روحانى : كما احتاج فى الحالة الأولى : إلى طب طبيعى جسمانى .

ولذلك تكثر حاجات الناس إلى المقومين والمنفعين ، وإلى المؤدبين والمسددين . فإن وجود تلك الطبائع الفائقة التى تنساق بذاتها من غير توفق إلى السعادة ، عسرة الوجود ، ولا توجد إلا فى الأزمنة الطوال ، والمدد البعيدة .

وهذا الأدب الحق : الذى يؤدينا إلى غايتنا : يجب أن تلحظ فيه : المبدأ الذى يجرى مجرى الغاية : حتى إذا لحظت الغاية : تدرج منها إلى الأمور الطبيعية ، على طريق التحليل ، ثم يبتدئ من أسفل على طريق التركيب : فيسلك فيها إلى أن ينتهى إلى الغاية التى لحظت أولا .

وهذا المعنى : هو الذى أحوجنا فى مبدإ هذا الكتاب ، وفى فصول أخر منه : أن نذكر أشياء عالية لا تليق بهذه الصناعة : ليتشوق إليها من يستحقها .

وليس يمكن الإنسان أن يشتاق إلى ما لا يعرفه البتة .

فإذا لحظها من فيه قبول لها ، وعناية بها : عرفها بعض المعرفة ، فتشوقها ، وسعى نحوها ، واحتمل التعب والنصب فيها .

وينبغى أن يعلم أن كل إنسان : معد نحو فضيلة ما ، فهو إليها أقرب ، وبالوصول إليها أحرى .

ولذلك لا تصير سعادة الواحد من الناس : غير سعادة الآخر : إلا من اتفق له نفس صافية ، وطبيعة فائقة : فينتهى إلى غايات الأمور ، وإلى غاية غاياتها .

أعنى السعادة القصوى : التى لا سعادة بعدها

الواجبُ على الحاكم

ولأجل ذلك : يجب على مدير المدن ، أن [illegible] ق كل إنسان نحو سعادته : التى تخصه . ثم يقسم عنايته بالناس ، ونظره لهم بقسمين :

أحدهما فى تسديد الناس وتقويمهم : بالعلوم الفكرية .

والآخر فى تسديدهم نحو الصناعات ، والأعمال الحسية .

وإذا سددهم نحو السعادة الفكرية : بدأ بهم من الغاية الأخيرة : على طريق التحليل ، ووقف بهم عند القوى التى ذكرناها .

وإذا سددهم نحو السعادة العملية : بدأ بهم من عند هذه القوى وانتهى بهم إلى تلك الغاية .

ولما كان غرضنا فى هذا الكتاب : السعادة الخلقية ، وأن تصدر عنا الأفعال كلها جميلة كما رسمنا فى صدر الكتاب وعملناه نحى الفلسفة خاصة : لا للعوام ، وكان النظر يتقدم العمل :

وجب أن نذكر الخير المطلق ، والسعادة الإنسانية : لتلحظ الغاية الأخيرة ، ثم تطلب بالأفعال الإرادية التي ذكرنا جملها في المقالة الأولى .

وأرسطوطاليس إنما بدأ كتابه بهذا الموضع ، وافتتحه بذكر الخير المطلق : ليعرف ويتشوق .

ونحن نذكر ما قاله ، ونتبعه بما أخذناه أيضاً عنه في مواضع أخر : ليجتمع ما فرقه ونضيف إلى ذلك : ما أخذناه عن مفسري كتبه ، المنقلبين لحكمته : بحسب استطاعتنا ، والله الموفق المؤيد ؛ فإن الخير بيده وهو حسبنا ونعم الوكيل !

المقالة الثالثة

الخير والسعادة

الفرق بين الخير والسعادة

نبدأ بمعونة الله تعالى فى هذه المقالة : بذكر الفرق بين الخير والسعادة ، بعد أن نذكر ألفاظ أرسطوطاليس اقتداء به ، وتوفية لحقه فنقول :

إن الخير على ما حده واستحسنه من آراء المتقدمين : هو المقصود من الكل ، وهو الغاية الأخيرة ، وقد يسمى الشيء النافع فى هذه الغاية خيراً .

فأما السعادة : فهى الخير : بالإضافة إلى صاحبها ، وهى كمال له .

فالسعادة إذاً : خير ما ، وقد تكون سعادة الإنسان : غير سعادة الفرس ، وسعادة كل شيء فى تمامه وكماله الذى يخصه .

فأما الخير الذى يقصده الكل ، بالشوق : فهو طبيعة تقصد ، ولها ذات : وهو الخير العام للناس : من حيث هم ناس ، فهم بأجمعهم مشتركون فيها .

فأما السعادة : فهى خير ما : لواحد واحد من الناس ، فهى إذاً بالإضافة : ليست لها ذات معينة ، وهى تختلف بإضافة إلى قاصديها .

فلذلك يكون الخير المطلق : غير مختلف فيه .

وقد يظن بالسعادة : أنها تكون لغير الناطقين ، فإن كان ذلك : فإنما هى استعدادات فيها : لقبول تماماتها ، وكمالاتها : من غير قصد ، ولا روية ، ولا إرادة ، وتلك الاستعدادات : هى الشوق ، أو ما يجرى مجرى الشوق من الناطقين بالإرادة .

فأما ما يتأتى للحيوانات : فى مآكلها ، ومشاربها ، وراحاتها : فينبغى أن يسمى بختاً ، أو اتفاقاً ، ولا يؤهل لاسم السعادة : كما يسمى فى الإنسان أيضاً .

وإنما استحسن الحد الذى ذكرنا للخير المطلق : لأن العقل : لا يطلق السعى والحركة : إلا إلى نهاية ، وهذا أول فى العقل .

ومثال ذلك : أن الصناعات ، والهمم ، والتدابير الاختيارية : كلها يقصد بها خير ما . وما لم يقصد به خير ما : فهو عبث ، والعقل يحظره ، ويمنع منه ، وبالواجب صار الخير المطلق : هو المقصود إليه من كل الناس .

ولكن بقى أن يعلم ما هو ؟ وما الغاية الأخيرة منه التى هى غاية الخيرات : التى ترتقى الخيرات كلها إليها ؟ حتى نجعله غرضنا ، ونتوجه إليه ، ولا نلتفت إلى غيره ، ولا تنتشر أفكارنا فى الخيرات الكثيرة التى تؤدى إليه : إما تأدية بعيدة ، وإما تأدية قريبة ، ولا نغلط أيضاً فيما ليس بخير : فنظنه خيراً . ثم نفنى أعمارنا فى طلبه ، والتعب به ، وكلا سنبينه بمشيئة الله تعالى وعونه !

أقسام الخير

الخير على ما قسمه أرسطوطاليس[1] ، وحكاه عنه فرفوريوس وغيره . قال : الخيرات : منها ما هى شريفة ، ومنها ما هى ممدوحة ، ومنها ما هى بالقوة كذلك . وما هى نافعة فيها .

فالشريفة منها : هى التى شرفها من ذاتها ، وتجعل من اقتناها : شريفاً ، وهى الحكمة : والعقل .

والممدوحة منها : مثل الفضائل ، والأفعال الجميلة الإرادية ، والتى هى بالقوة مثل التهيؤ ، والاستعداد لنيل الأشياء التى تقدمت .

---

(١) أرسطوطاليس : من أكابر فلاسفة اليونان ، ومن أعاظم مفكرى العالم ، وقد كان مؤدباً للاسكندر ، وآليفه : لا حصر لها : فى المنطق ، والطبيعيات ، والإلهيات ، والأخلاق ، وما وراء الطبيعة ، وقد تأثر بتآليفه : مفكروا العرب وفلاسفتهم ، ومن أهم من نقل عنه : إسحاق بن حنين . مؤسس مذهب المشائين .

والنافعة : هي جميع الأشياء : التي تطلب لا لذاتها ، بل ليتوصل بها إلى الخيرات .

وعلى جهة أخرى : الخيرات : منها ما هي غايات ، ومنها ما ليست بغايات ، والغايات : منها ما هي تامة ، ومنها ما هي غير تامة . فالتي هي تامة : كالسعادة .

وذلك أنا إذا وصلنا إليها : لم نحتج أن نستزيد إليها بشيء آخر .

والتي هي غير تامة : فكالصحة ، واليسار . من قبيل أنا إذا وصلنا إليها : احتجنا أن نستزيد فنقتني أشياء أخر .

وأما التي ليست بغاية البتة : فكالعلاج ، والتعلم ، والرياضة .

وعلى جهة أخرى : الخيرات : منها ما هو مؤثر لأجل ذاته .

ومنها ما هو مؤثر لأجل غيره . ومنها ما هو مؤثر للأمرين جميعاً .

ومنها ما هو خارج عنهما .

وعلى جهة أخرى : الخيرات : منها ما هو خير على الإطلاق .

ومنها ما هو خير عند الضرورة ، والاتفاقات : التي تتفق لبعض الناس ، وفي وقت دون وقت .

وأيضاً منها ما هو خير لجميع الناس ، ومن جميع الوجوه ، وفي جميع الأوقات .

ومنها ما ليس بخير لجميع الناس ، ولا من جميع الوجوه .

وعلى جهة أخرى : الخيرات : منها ما هو في الجوهر . ومنها ما هو في الكمية .

ومنها ما هو في الكيفية ، وفي سائر المقولات : كالقوى ، والملكات .

ومنها كالأحوال ، ومنها كالأفعال ، ومنها كالغايات . ومنها كالمواد . ومنها كالآلات .

ووجود الخيرات في المقولات كلها : يكون على هذا المثال .

أما في الجوهر أعني ما ليس بعرض . فالله تبارك وتعالى : هو الخير الأول .

فإن جميع الأشياء : تتحرك نحوه بالشوق إليه ! ولأن مآل الخيرات الإلهية : من البقاء ، والسرمدية ، والتمام منه .

وأما فى الكمية : فالعدد المعتدل ، والمقدار المعتدل . وأما فى الكيفية : فكاللذات .

وأما فى الإضافة : فكالصداقات والرياسات .

وأما فى الأين والمتى : فكالمكان المعتدل ، والزمان الأنيق البهج .

وأما فى الموضع : فكالقعود ، والاضطجاع ، والاتكاء الموافق .

وأما فى الملك : فكالأموال ، والمنافع .

وأما فى الانفعال : فكاستماع الطيب ، وسائر المحسوسات المؤثرة .

وأما فى الفعل : فكنفاذ الأمر ، ورواج الفعل .

وعلى جهة أخرى : الخيرات : منها معقولات ، ومنها محسوسات .

السّعَادة

وأما السعادة ، فقد قلنا : إنها خير ما ، وهى تمام الخيرات وغاياتها ، والتمام : هو الذى إذا بلغنا إليه : لم نحتج معه إلى شىء آخر .

فلذلك نقول : إن السعادة : هى أفضل الخيرات . ولكنا نحتاج فى هذا التمام الذى هو الغاية القصوى : إلى سعادات أخرى ، وهى التى فى البدن ، والتى خارج البدن .

وأرسطوطاليس[1] يقول : إنه يعسر على الإنسان أن يفعل الأفعال الشريفة بلا مادة . مثل اتساع اليد ، وكثرة الأصدقاء ، وجودة البخت .

قال : ولهذا ما احتاجت الحكمة إلى صناعة الملك : فى إظهار شرفها .

قال : ولهذا قلنا : إن كان شىء : عطية من الله تعالى ، وموهبة للناس : فهو السعادة ، لأنها عطية منه عز اسمه ، وموهبة فى أشرف منازل الخيرات ، وفى أعلى مراتبها ، وهو خاصة بالإنسان التام ، ولذلك لا يشاركه فيها من ليس بتام : كالصبيان ومن يجرى مجراهم .

---

(١) ينظر ترجمته فى صفحة ٨٨

وأما أقسام السعادة على مذهب هذا الحكيم : فهى خمسة أقسام :

أحدها : فى صحة البدن ، ولطف الحواس . ويكون ذلك من اعتدال المزاج : أعنى أن يكون جيد السمع ، والبصر ، والشم ، والذوق ، واللمس .

والثانى : فى الثروة ، والأعوان ، وأشباههما ، حتى يتسع لأن يضع المال فى موضعه ، ويعمل به سائر الخيرات ، ويواسى منه أهل الخيرات خاصة ، والمستحقين عامة . ويعمل به كل ما يزيد فى فضائله ، ويستحق الثناء والمدح عليه .

والثالث : أن تحسن أحدوثته فى الناس ، وينشر ذكره بين أهل الفضل : فيكون ممدوحاً بينهم ، ويكثرون الثناء عليه : لما يتصرف فيه : من الإحسان والمعروف .

والرابع : أن يكون منجحاً فى الأمور . وذلك إذا استتم كل ما روى فيه ، وعزم عليه : حتى يصير إلى ما يأمله منه .

والخامس : أن يكون جيد الرأى ، صحيح الفكر ، سليم الاعتقادات : فى دينه وغير دينه ، بريئاً من الخطإ والزلل ، جيد المشورة فى الآراء .

فمن اجتمعت له هذه الأقسام كلها : فهو السعيد الكامل : على مذهب هذا الرجل الفاضل .

ومن حصل له بعضها : كان حظه من السعادة بحسب ذلك .

وأما الحكماء قبل هذا الرجل : مثل فيثاغورس[1] ، وبقراط[2] ، وأفلاطون ، وأشباههم : فإنهم أجمعوا على أن الفضائل والسعادة : كلها فى النفس وحدها .

---

(١) فيثاغورس : فيلسوف يونانى . إمام فى الفلسفة الرياضية ، تفرغ لدراسة الحكمة ، وعاش مع أتباعه حياة مشتركة فى الزهد ، وإليه يعزى تقويم الحساب : المعروف بجدول فيثاغورس : فى الضرب . وكان يقول بتناسخ الأرواح ، وبقيام حركة السكون على الأرقام .

(٢) بقراط ، أو أبقراط : أشهر الأطباء الأقدمين . ولد باليونان عام ٤٦٠ قبل الميلاد . وله مصنفات كثيرة : ترجم بعضها إلى العربية ، منها : تقدمة المعرفة ، وطبيعة الإنسان . وتوفى عام ٣٧٧ قبل الميلاد . وهو أشهر الأطباء على الإطلاق ، وله قسم مشهور : يقسمه الأطباء : قبل مزاولة المهنة حتى يومنا هذا .

ولذلك لما قسموا السعادة : جعلوها كلها فى قوى النفس التى ذكرناها فى أول الكتاب : وهى الحكمة ، والشجاعة ، والعفة ، والعدالة .

وأجمعوا على أن هذه الفضائل : هى كافية فى السعادة ، ولا يحتاج معها إلى غيرها : من فضائل البدن ، ولا ما هو خارج البدن .

فإن الإنسان إذا حصل تلك الفضائل : لم يضره فى سعادته : أن يكون سقيماً ، ناقص الأعضاء ، مبتلى بجميع أمراض البدن .

اللهم إلا أن يلحق النفس منها مضرة فى خاص أفعالها : مثل فساد العقل ، ورداءة الذهن ، وما أشبههما .

وأما الفقر ، والخمول ، وسقوط الحال ، وسائر الأشياء الخارجة عنها : فليست عندهم بقادحة فى السعادة البتة .

وأما الرواقيون[1] وجماعة من الطبيعيين : فإنهم جعلوا البدن : جزء من الإنسان ، ولم يجعلوه آلة : كما شرحناه فيما تقدم .

فلذلك اضطروا إلى أن يجعلوا السعادة : التى فى النفس : غير كاملة إذا لم يقترن بها سعادة البدن ، وما هو خارج البدن أيضاً .

أعنى الأشياء التى تكون بالبخت والجد .

والمحققون من الفلاسفة : يحقرون أمر البخت : وكل ما يكون به ومعه ، ولا يؤهلون تلك الأشياء لإسم السعادة ، لأن السعادة : شىء ثابت : غير زائل ، ولا متغير وهى أشرف الأمور ، وأكرمها ، وأرفعها . فلا يجعلون لأحسن الأشياء ، وهو الذى يتغير ، ولا يثبت ، ولا يتحصل بروية ولا فكر ، ولا يتأتى بعقل وفضيلة فيها نصيباً .

---

(١) الرواقيون : هم تلاميذ زينون : الفيلسوف اليونانى : لأنه كان يعلمهم فى رواق .
ويطلق أيضاً على شيعة من اليهود : تقول بالتقدير والتناسخ .
وزينون هذا : مؤسس المذهب الرواق : ينسبون إليه القول المأثور : إنما العيش : العيش مع الطبيعة . ولد فى القرن الرابع قبل الميلاد .

ولهذا النظر : اختلف القدماء فى السعادة العظمى . فظن قوم أنها لا تحصل للإنسان : إلا بعد مفارقة البدن ، والطبيعات كلها . وهؤلاء هم القوم الذين حكينا عنهم : أن السعادة العظمى : هى فى النفس وحدها . وسموا ذلك الإنسان : هو الجوهر وحده : دون البدن ، ولذلك حكموا أنها ما دامت فى البدن ، ومتصلة بالطبيعة وكدرها ، ونجاسات البدن وضروراته ، وحاجات الإنسان به ، وافتقاراته إلى الأشياء الكثيرة : فليست سعيدة على الإطلاق .

وأيضاً لما رأوها لا تكمل لوجود الأشياء العقلية : لأنها لا تستتر عنها بظلمة الهيولى[1] .

أعنى قصورها ونقصانها : ظنوا أنها إذا فارقت هذه الكدورة : فارقت الجهالات ، وصفت ، وخلصت ، وقبلت الإضاءة ، والنور الإلهى ! أعنى العقل التام .

ويجب على رأى هؤلاء : أن الإنسان : لا يسعد السعادة التامة : إلا فى الآخرة بعد موته .

وأما الفرقة الأخرى : فإنها قالت : إنه من القبيح الشنيع : أن يظن أن الإنسان مادام حياً : يعمل الأعمال الصالحة ، ويعتقد الآراء الصحيحة ، ويسعى فى تحصيل الفضائل كلها : لنفسه أولا ، ثم لأبناء جنسه ثانياً ، ويخلف رب العزة تقدس ذكره : فى خلقه بهذه الأفعال المرضية . فهو شقى ناقص : حتى إذا مات ، وعدم هذه الأشياء : صار سعيداً ، تام السعادة .

وأرسطوطاليس[2] يتحقق بهذا الرأى ، وذلك أنه تكلم فى السعادة الإنسانية .

والإنسان : هو المركب عنده من بدن ونفس . ولذلك حد الإنسان بالناطق المائت ، وبالناطق الماشى برجلين ، وما أشبه ذلك . وهذه الفرقة : وهى التى رئيسها

---

(١) الهيولى : مادة الشىء : التى يصنع منها : كالخشب للكرسى ، والحديد للمسمار . وأراد بذلك : أن السعادة التامة : هى التى لا تستتر بظلمة الاحتياج إلى شىء آخر : لا تقوم إلا به .

(٢) انظر ترجمته فى هامش ص ٨٨

أرسطوطاليس : رأت أن السعادة الإنسانية : تحصل للإنسان فى الدنيا : إذا سعى لها ، وتعب بها : حتى يصير إلى أقصاها .

ولما رأى الحكيم ذلك ، وأن الناس مختلفون فى هذه السعادة الإنسانية ، وأنها قد أشكلت عليهم إشكالا شديداً : احتاج أن يتعب فى الإبانة عنها ، وإطالة الكلام فيها .

وذلك أن الفقير : يرى أن السعادة العظمى : فى الثروة واليسار .

والمريض : يرى أنها فى الصحة والسلامة .

والذليل : يرى أنها فى الجاه والسلطان .

والخليع : يرى أنها فى التمكن من الشهوات كلها : على اختلافها .

والعاشق : يرى أنها فى الظفر بالمعشوق .

والفاضل : يرى أنها فى إفاضة المعروف على المستحقين .

والفيلسوف : يرى أن هذه كلها إذا كانت مرتبة بحسب تقسيط العقل : أعنى عند الحاجة ، وفى الوقت الذى يجب ، وكما يجب ، وعند من يجب : فهى سعادات كلها ، وما كان منها يراد لشىء آخر ؛ فذلك الشىء أحق باسم السعادة .

ولما كانت كل واحدة من هاتين الفرقتين : نظرت نظراً ما : وجب أن نقول فى ذلك ما نراه صواباً ، وجامعاً للرأيين ، فنقول :

رأى المؤلف فى السعادة

إن الإنسان ذو فضيلة روحانية : يناسب بها الأرواح الطيبة : التى تسمى ملائكة .

وذو فضيلة جسمانية : يناسب بها الأنعام ، لأنه مركب منهما .

فهو بالخير الجسمانى : الذى يناسب به الأنعام ، مقيم فى هذا العالم السفلى ، مدة قصيرة ليعمره ، وينظمه ويرتبه .

حتى إذا ظفر بهـذه المرتبة على الكمال : انتقل إلى العالم العلوى ، وأقام فيه دائماً سرمداً : فى صحبة الملائكة ، والأرواح الطيبة .

وينبغى أن يفهم من قولنا العالم السفلى ، والعالم العلوى : ما ذكرناه فيما تقدم .

فإنا قد قلنا هناك : إنا لسنا نعنى بالعلوى : المكان الأعلى فى الحس .

ولا بالعالم السفلى : المكان الأسفل فى الحس .

بل كل محسوس فهو أسفل . وإن كان محسوساً فى المكان الأعلى .

وكل معقول : فهو أعلى ، وإن كان معقولا فى المكان الأسفل .

وينبغى أن يعلم : أنه لا يحتاج فى صحة الأرواح الطيبة ، المستغنية عن الأبدان : إلى شىء من السعادات البدنية التى ذكرناها : سوى سعادة النفس فقط . أعنى المعقولات الأبدية ، التى هى الحكمة فقط .

فإذاً ما دام الإنسان إنساناً : فلا تتم له السعادة إلا بتحصيل الحالين جميعاً ، وليس يحصلان على التمام : إلا بالأشياء النافعة فى الوصول إلى الحكمة الأبدية .

فالسعيد إذاً من الناس : يكون فى إحدى مرتبتين .

إما فى مرتبة الأشياء الجسمانية : متعلقاً بأحوالها السفلى ، سعيداً بها ، وهو مع ذلك : يطالع الأمور الشريفة : باحثاً عنها ، مشتاقاً إليها ، متحركا نحوها ، مغتبطاً بها .

وإما أن يكون فى رتبة الأشياء الروحانية : متعلقاً بأحوالها العليا ، سعيداً بها ، وهو مع ذلك : يطالع الأمور البدنية ، معتبراً بها ، ناظراً فى علامات القدرة الإلهية ، ودلائل الحكمة البالغة ، مقتدياً بها ، ناظماً لها ، مفيضاً الخيرات عليها ، سابقاً لها نحو الأفضل فالأفضل . بحسب قبولها ، وعلى نحو استطاعتها .

وأى امرىء لم يحصل فى إحدى هاتين المنزلتين : فهو فى رتبة الأنعام بل هو أضل !

وإنما صار أضل : لأن تلك غير معرضة لهذه الخيرات ، ولا أعطيت استطاعة : تتحرك بها نحو هذه المراتب العالية .

وإنما تتحرك بقواها نحو كمالاتها الخاصة بها .

والإنسان معرض لها ، مندوب إليها : مزاح العلة فيها . وهو مع ذلك غير محصل لها ، ولا ساع نحوها .

وهو مع ذلك : مؤثر لضدها : يستعمل قواه الشريفة فى الأمور الدنيئة . وتلك محصلة لكمالاتها التى تخصها . فإذاً الأنعام : إذا منعت الخيرات الإنسية : حرمت جوار الأرواح الطيبة ، ودخول الجنة : التى وعد المتقون : فهى معذورة . والإنسان غير معذور .

مثل الأول : مثل الأعمى إذا جار عن الطريق : فتردى فى بئر : فهو مرحوم غير ملوم .

ومثل الثانى : مثل بصير يجور على بصيرة : حتى يتردى فى البئر ، فهو ممقوت ملوم .

وإذ قد تبين : أن السعيد لا محالة فى إحدى المرتبتين اللتين ذكرناهما : فقد تبين أيضاً أن أحدهما : ناقص مقصر عن الآخر ، وأن الأنقص منهما : ليس يخلو ، ولا يتعرى من الآلام والحسرات : لأجل خدائع الطبيعة ، والزخارف الحسية : التى تعترضه فيما يلابسه ، وتعوقه عما يلاحظه ، وتمنعه من الترقى فيها على ما ينبغى ، وتشغله بما يتعلق به من الأمور الجسمانية .

فصاحب هذه المرتبة : غير كامل على الإطلاق ، ولا سعيد تام . وأن صاحب المرتبة الأخرى : هو السعيد التام . وهو الذى توفر حظه من الحكمة : فهو مقيم بروحانيته بين الملإ الأعلى : يستمد منهم لطائف الحكمة ، ويستنير بالنور الإلهى ، ويستزيد من فضائله بحسب عنايته بها ، وقلة عوائقه عنها .

ولذلك يكون أبداً خالياً من الآلام والحسرات : التى لا يخلو صاحب المرتبة الأولى منها . ويكون مسروراً أبداً بذاته ، مغتبطاً بحاله ، وبما يحصل له دائماً من فيض نور الأمل ، فليس يسر إلا بتلك الأحوال ، ولا يغتبط إلا بتلك المحاسن ، ولا يهش إلا لإظهار تلك الحكمة بين أهلها ، ولا يرتاح إلا لمن ناسبه أو قاربه ، وأحب الاقتباس منه .

وهذه المرتبة : التى من وصل إليها : فقد وصل إلى آخر السعادات وأقصاها .

وهو الذى لا يبالى بفراق الأحباب من أهل الدنيا ، ولا يتحسر على ما يفوته من التنعم فيها .

وهو الذى يرى جسمه ، وماله ، وجميع خيرات الدنيا : التى عددناها فى السعادات التى فى بدنه ، والخارجة عنه : كلها كلا عليه : إلا فى ضرورات يحتاج إليها لبدنه ، الذى هو مربوط به : لا يستطيع الانحلال عنه : إلا عند مشيئة خالقه .

وهو الذى يشتاق إلى صحبة أشكاله ، وملاقاة من يناسبه : من الأرواح الطيبة ، والملائكة المقربين .

وهو الذى لا يفعل إلا ما أراده الله منه ، ولا يختار إلا ما قرب إليه ، ولا يخالفه إلى شىء من شهواته الرديئة ، ولا ينخدع بخدائع الطبيعة ، ولا يلتفت إلى شىء يعوقه عن سعادته .

وهو الذى لا يحزن على فقد محبوب ، ولا يتحسر على فوت مطلوب .

إلا أن هذه المرتبة الأخيرة : تتفاوت تفاوتاً عظيماً .

أعنى أن من يصل إليها من الناس : يكون على طبقات كثيرة غير متقاربة .

وهاتان المرتبتان : هما اللتان ساق الحكيم الكلام إليهما ، واختار المرتبة الأخيرة منهما .

وذلك فى كتابه المسمى « فضائل النفس » وأنا أورد ألفاظه التى نقلت إلى العربية بعينها . قال :

أول رتب الفضائل

أول رتب الفضائل . تسمى سعادة ، وهى أن يصرف الإنسان إرادته ، ومحاولاته : إلى مصالحه فى العالم المحسوس ، والأمور المحسوسة : فى أمور النفس ، والبدن ، وما كان من الأحوال متصلا بهما ، ومشاركا لهما : من الأمور النفسانية ، ويكون تصرفه فى الأحوال المحسوسة : تصرفاً لا يخرج به عن الاعتدال : الملائم لأحواله الحسية .

وهذه حال قد يتلبس فيها الإنسان بالأهواء والشهوات ، إلا أن ذلك بقدر معتدل غير مفرط ، وهو إلى ما ينبغى : أقرب منه إلى ما لا ينبغيه ، وذلك أنه يجرى أمره نحو صواب التدبير المتوسط : فى كل فضيلة ، ولا يخرج به عن تقدير الفكر ، وإن لابس الأمور المحسوسة ، وتصرف فيها .

ثم الرتبة الثانية : وهى التى يصرف الإنسان فيها إرادته ومحاولاته : إلى الأمر الأفضل : من صلاح النفس والبدن ، من غير أن يتلبس مع ذلك بشىء من الأهواء والشهوات ، ولا يكترث بشىء من النفسيات المحسوسة ، إلا بما تدعوه إليه الضرورة .

ثم تتزايد رتبة الإنسان ، فى هذا الضرب من الفضيلة .

وذلك أن الأماكن والرتب فى هذا الضرب من الفضائل كثيرة : بعضها فوق بعض ، وسبب ذلك :

أما أولا : فاختلاف طبائع الناس .

وثانياً : على حسب العادات .

وثالثاً : بحسب منازلهم ومواضعهم ، من الفضل والعلم ، والمعرفة والفهم .

ورابعاً : بحسب هممهم .

وخامساً : بحسب شوقهم ومعاناتهم . ويقال أيضاً بحسب جدهم .

ثم تكون النقلة فى آخر هذه المرتبة ، أعنى هذا الصنف من الفضيلة : إلى الفضيلة الإلهية المحضة ، وهى التى لا يكون فيها تشوف إلى آت ، ولا تلفت إلى ماض ، ولا تشييع لحال ، ولا تطلع إلى ناء ، ولا ضن بقريب ، ولا خوف ولا فزع من أمر ، ولا شغف بحال ، ولا طلب لحظ من حظوظ الإنسانية ، ولا من الحظوظ النفسانية أيضاً ، ولا ما تدعو الضرورة إليه : من حاجة البدن والقوى الطبيعية ، ولا القوى النفسانية .

لكن يتصرف بتصرف الخير العقلى ، فى أعالى رتب الفضائل ، وهو صرف الوقت إلى الأمور الإلهية ومعاناتها ، ومحاولاتها : بلا طلب عوض .

أعنى أن يكون تصرفه فيها ومعاناته ومحاولته لها : لنفس ذاتها فقط .

وهذه الرتبة أيضاً : تتزايد بالناس بحسب الهمم والشوق ، وفضل المعاناة ، والمحاولة ، وقوة النحيزة [1] ، وصحة الثقة .

وبحسب منزلة من بلغ إلى هذا المبلغ من الفضيلة فى هذه الأحوال التى عددناها : إلى أن يكون تشبهه بالعلة الأولى ، واقتداؤه بها وبأفعالها .

آخر مراتب الفضائل

وآخر المراتب فى الفضيلة : أن تكون أفعال الإنسان كلها : أفعالا إلهية .

وهذه الأفعال هى خير محض .

والفعل إذا كان خيراً محضاً : فليس يفعله فاعله من أجل شىء آخر غير الفعل نفسه .

وذلك أن الخير المحض : هو غاية متوخاة لذاتها ، أى هو الأمر المطلوب المقصود لذاته .

---

(١) النحز : النخس ، والدفع .

والأمر الذى هو غاية فى نهاية النفاسة : ليس يكون من أجل شىء آخر .

فأفعال الإنسان : إذا صارت كلها إلهية ، فهى كلها إنما تصدر عن لبه وذاته الحقيقية : التى هى عقله الإلهى : الذى هو ذاته بالحقيقة ، وتزول ، وتنهار ، وتموت سائر دواعى طباعه البدنى : بسائر عوارض النفسين البهيميتين ، وعوارض التخيل المتولد عنهما ، وعن دواعى نفسه الحسية : فلا يبقى له حينئذ إرادة ، ولا همة خارجتان عن فعله ؛ من أجلهما يفعل ما يفعل ، لكنه يفعل ما يفعله : بلا إرادة ، ولا همة فى سوى الفعل .

أى لا يكون غرضه فى فعله : غير ذات الفعل .

وهذا هو سبيل العقل الإلهى .

فهذه الحال : هى آخر رتب الفضائل : التى يتقبل فيها الإنسان أفعال المبدىء الأول : خالق الكل عز وجل !

أعنى أن يكون فيما يفعله ، لا يطلب به حظاً ، ولا مجازاة ، ولا عوضاً ، ولا زيادة . لكن يكون فعله بعينه : هو غرضه ، أى ليس يفعل من أجل شىء آخر : سوى ذات الفعل .

ومعنى ذاته : هو أن لا يفعل ما يفعله : من أجل شىء غير فعل نفسه ، وذاته نفسها : هى الفعل الإلهى نفسه .

وهكذا يفعل البارى تعالى لذاته : لا من أجل شىء آخر خارج عنه .

وذلك أن فعل الإنسان فى هذه الحال : يكون كما قلنا خيراً محضاً ، وحكمة محضة : فيبدأ بالفعل لنفس إظهار الفعل فقط ، لا لغاية أخرى يتوخاها بالفعل .

وهكذا فعل الله عز وجل الخاص به : ليس هو على القصد الأول : من أجل شىء خارج عن ذاته .

أعنى ليس ذلك من أجل سياسة الأشياء التى نحن بعضها : لأنه لو كان كذلك : لكانت أفعاله حينئذ إنما كانت وتكون وتتم : بمشاركة الأمور التى من خارج ، ولتدبيرها وتدبير أحوالها واهتمامه بها .

وعلى هذا تكون الأشياء التى من خارج : أسباباً وعللا لأفعاله ، وهذا شنيع قبيح : تعالى الله عنه علواً كبيراً .

لكن عنايته عز وجل بالأشياء : التى من خارج ، وفعله الذى يدبرها به ويرفدها [1] : إنما هو على القصد الثانى ، وليس يفعل ما يفعله من أجل الأشياء أنفسها ، لكن من أجل ذاته أيضاً ، وذلك لأجل أن ذاته : تفضل لذاتها : لا من أجل المفضل عليه ، ولا من أجل شىء آخر .

وهكذا سبيل الإنسان : إذا بلغ إلى الغاية القصوى : فى الإمكان من الاقتداء بالبارى عز وجل : تكون أفعاله التى يفعلها على القصد الأول : من أجل ذاته نفسها : التى هى العقل الإلهى ، ومن أجل الفعل نفسه .

وإن فعل فعلا يرفد به غيره ، وينفعه به : فليس فعله ذلك على القصد الأول ، من أجل ذلك الغير ، لكن يفعل بذلك الغير ما يفعله به بقصد ثان ، وفعله ذلك عن أجل ذاته بالقصد الأول ، ومن أجل الفعل نفسه : أى لنفس الفضيلة ، ولنفس الخير : لأن فعله ذلك : فضيلة وخير ، ففعله لنفس الفعل : لا لاجتلاب منفعة ، ولا لدفع مضرة ، ولا للتباهى وطلب الرياسة ، ومحبة الكرامة ، فهذا هو غرض الفلسفة ، ومنتهى السعادة .

إلا أن الإنسان ، لا يصل إلى هذه الحال : حتى تفنى إرادته كلها : التى بحسب الأمور الخارجة ، وتفنى العوارض النفسانية ، وتموت خواطره التى تكون عن العوارض ، ويمتلىء شعاراً إلهياً وهمة إلهية .

وإنما يمتلىء من ذلك : إذا صفا من الأمر الطبيعى البتة ، ونفى منه نفياً كاملا .

ثم حينئذ يمتلىء معرفة إلهية ، وشوقاً إلهياً ، ويوقن بالأمور الالهية ، بما يتقرر فى نفسه ، وفى ذاته : التى هى العقل ، كما تقررت فيه القضايا الأول التى تسمى العلوم الأوائل .

---

(١) رفده : دعمه وأمسكه .

إلا أن تصور العقل ورويته فى هذه الحال بالأمور الالهية ، وتيقنه لها ، يكون بمعنى أشرف ، وألطف ، وأظهر ، وأشهد انكشافاً له وبياناً : من القضايا الأول . التى تسمى العلوم الأوائل العقلية .

فهذه ألفاظ هذا الحكيم قد نقلتها نقلا : وهى نقل أبى عثمان الدمشقى ، وهذا الرجل : فصيح باللغتين جميعاً ، أعنى اليونانية ، والعربية ، مرضى النقل عند جميع من طالع هاتين اللغتين .

وهو مع ذلك ، شديد التحرى لإيراد الألفاظ اليونانية ومعانيها : من ألفاظ العرب ومعانيها : لا يختلف فى لفظ ، ولا معنى .

ومن رجع إلى هذا الكتاب : أعنى المسمى بفضائل النفس : قرأ هذه الألفاظ كما نقلتها .

وليست تحصل هذه المراتب التى يترقى فيها صاحب السعادة التامة ، إلا بعد أن يعلم أجزاء الحكمة كلها : علماً صحيحاً ، ويستوفيها أولا أولا : كما رتبناها فى كتابنا المسمى بترتيب السعادات.

ومن ظن من الناس أنه يصل إليها بغير تلك الطريقة ، وعلى غير ذلك المنهج ، فقد ظن باطلا ، وبعد عن الحق بعداً كثيراً .

وليتذكر فى هذا الموضع : الخطأ العظيم : الذى وقع فيه قوم ظنوا أنهم يدركون الفضيلة : بتعطيل القوة العاملة وإهمالها ، وبترك النظر الخاص بالعقل ، واكتفائهم بأعمال : ليست مدنية ، ولا بحسب ما يقسطه التميز والعقل .

وقد سماهم قوم : العاملة ، والناجية .

ولذلك رتبنا هذا الكتاب ، عقب ذلك الكتاب : ليلحظ منهما السعادة الأخيرة : المطلوبة : بالحكمة البالغة ، وتتهذب لها النفس ، وتتهيأ لقبولها ، غسلا وتنقية من الأمور الطبيعية ، وشهوات الابدان .

ولذلك سميته أيضاً بكتاب طهارة الأعراق .

وقد قال أرسطوطاليس فى كتابه المسمى بالأخلاق : إن هذا الكتاب : لا ينتفع به الأحداث كثير منفعة ، ولا من هو فى طبيعة الأحداث .

قال : ولست أعنى بالحدث ههنا ، حدث السن : لأن الزمان لا تأثير له فى هذا المعنى .

وإنما أعنى السيرة التى يقصدها أهل الشهوات ، واللذات الحسية .

وأما أنا فأقول : أنى ما ذكرت هذه المرتبة الأخيرة من السعادة ، طمعاً فى وصول الأحداث إليها : بل ليير على سمعهم فقط ، وليعلم أن ههنا مرتبة حكمية ، لا يصل إليها إلا أهلها الأعلون مرتبة .

فليلتمس كل من نظر فى هذا الكتاب : المرتبة الأولى منها : بالأخلاق التى وصفتها ، فإن وفق بعد ذلك ، وأعانه الشوق الشديد . والحرص التام ، وسائر ما ذكرناه ووصفناه عن الحكيم : فليترق فى درجة الحكمة ، وليتصاعد فيها بجهده ، فإن الله عز وجل يعينه ويوفقه .

فإذا بلغ الإنسان إلى غاية هذه السعادة : ثم فارق بجسمه الكثيف دنياه الدنيئة ، وتجرد بنفسه اللطيفة : التى عنى بتطهيرها وغسلها من الأدناس الطبيعية لأخراه العلية : فقد فاز ، وأعد ذاته للقيا خالقه عز وجل : إعداداً روحانياً : ليس فيه نزاع إلى تلك القوى التى كانت تعوقه عن سعادته ، ولا تشوق إليها : لأنه قد تطهر منها ، وتنزه عنها ، ولم تبق فيه إرادة لها ، ولا حرص عليها . وقد استخلصها للقاء رب العالمين ، ولقبول كراماته ، وفيض نوره : الذى كان غير مستعد له ، ولا فيه قبول من عطائه .

ويأتيه حينئذ الذى وعد به المتقون والأبرار . كما سبق الايماء إليه مراراً فى قوله عز وجل ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾ ، وفى قول النبى صلى الله عليه وسلم : « هناك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » .

الرتبة الأولى من السّعادة الأخيرة

وإذ قد لخصنا أمر هاتين المنزلتين من السعادة القصوى : فقد تبين بياناً كافياً ، أن إحداهما بالاضافة إلينا أولى ، والأخرى ثانية ، ومن المحال أن نسلك إلى الثانية من غير أن نمر بالأولى .

فقد وجب أن نعود إلى ما بدأنا به : من ذكر الرتبة الأولى من السعادة الأخيرة ، ونستوفى الكلام فيها ، وفى الأخلاق : التى بنينا الكتاب عليها ، ونخلى عن بيان الرتبة الثانية إلى وقت آخر فنقول :

إن من عنى ببعض القوى التى ذكرناها دون بعض ، أو تعمد لإصلاحها فى وقت دون وقت : لم تحصل له السعادة .

وكذلك يكون حال الرجل : فى تدبير منزله إذا عنى ببعض أجزائه دون بعض ، أو فى وقت دون وقت : فإنه لا يكون مدبر منزل .

وكذلك حال مدبر المدينة ، إذا خص بنظره طائفة دون طائفة ، أو وقتاً دون وقت : لا يستحق اسم الرياسة على الاطلاق .

وأرسطوطاليس : تمثل بأن قال : أن الخطاف الواحد : إذا ظهر لا يدل على طبيعة الربيع . ولا يوم واحد معتدل الهواء يبشر بالربيع .

فعلى طالب السعادة : أن يطلب السيرة اللذيذة عنده : فيسر بها دائما ، فإن تلك السيرة : هى واحدة ولذيذة فى نفسها .

فلذلك قلنا أنه ينبغى أن يتشوقها دائما ، ويثبت عليها أبداً .

ولما كانت السير ثلاثة : لأنها تنقسم بانقسام الغايات الثلاثة : التى يقصدها الناس ، أعنى سيرة اللذة ، وسيرة الكرامة ، وسيرة الحكمة ، وكانت سيرة الحكمة : أشرفها

وأتمها ، وكانت فضائل النفس كثيرة ، وجب أن يفضل الإنسان بأفضلها ، ويشرف بأشرفها .

فسيرة الأفاضل السعداء : سيرة لذيذة بنفسها ، لأن أفعالهم أبداً مختارة وممدوحة .

وكل إنسان يلتذ بما هو محبوب عنده .

يلتذ بعدل العادل ، أو يلتذ بحكمة الحكيم .

والأفعال الفاضلة ، والغايات التي ينتهى إليها بالفضائل : لذيذة محبوبة .

فالسعادة ألذ من كل شيء . وأرسطوطاليس يقول : إن السعادة الإلهية ، وإن كانت كما ذكرناها : من الشرف ، وسيرتها ألذ وأشرف من كل سيرة : فإنها محتاجة إلى السعادات الأخر : الخارجة : لأن تظهر بها ، وإلا كانت كامنة غير ظاهرة .

وإذا كانت كذلك : كان صاحبها كالفاضل النائم : الذى لا يظهر فعله ، وحينئذ لا يكون بينه وبين غيره فرق كما وصفنا حالها فيما تقدم .

فالمطلع إذن على حقيقة هذه السعادة ، المتمكن من إظهار فعله بها ، وهو الذى يلتذ بها ، وهو الذى يسر سروراً حقيقياً : غير مموه ، ولا مزخرف بالباطل .

وهو الذى يخرج من حد المحبة إلى العشق والهيمان ، وحينئذ يأنف أن يصير سلطانه العالى : يصحب سلطان بطنه وفرجه ، فلا يخدم بأشرف جزء فيه أخس جزء فيه [1]

وأعنى بالسرور المزخرف بالأباطيل : اللذات التى يشاركنا فيها الحيوانات : التى ليست بناطقة . فإن تلك اللذات : حسية تنصرم وشيكا ، وتملها الحواس سريعاً .

فإذا دامت عليها : صارت كريهة ، وربما عادت مؤلمة .

وكما أن للحس لذة عرضية على حدة ، فكذلك العقل لذة ذاتية على حدة : لأن لذة العقل : لذة ذاتية ، ولذة الحس عرضية .

---

(١) يريد بذلك : ألا يخدم عقله — الذى هو أشرف جزء فيه — فرجه : الذى هو أخس جزء فيه .

فمن لا يعرف اللذة بالحقيقة : كيف يلتذ بها : ومن لا يعرف الرياسة الذاتية : كيف يصير إليها . فإنا قد قدمنا وصفها ، وشوقنا إليها : بإعادة الكلام فيها مراراً . وقلنا : من لا يعرف الخير المطلق ، والفضيلة التامة ، ولا يعرف الحكمة العملية . يعنى إيثار الأفضل ، والعمل به ، والثبات عليه : لا ينشط له ولا يرتاح إليه .

ومن كان كذلك : فكيف يلتذ ويتنعم بما شرحناه ، ودللنا عليه .

وقد كان للحكماء المتقدمين مثل يضربونه ، ويكتبونه فى الهياكل . وهى مساجدهم ومصلاهم .

وهو هذا الملك الموكل بالدنيا . يقول : إن ههنا خيراً وههنا شراً ، وههنا ما ليس بخير ولا شر .

فمن عرف هذه الثلاثة حق معرفتها : تخلص منى ، ونجا سالما ، ومن لم يعرفها قتلته شر قتلة ، وذلك أنى لا أقتله قتلا وحيداً ، ولكنى أقتله أولا أولا : فى زمان طويل .

فهذا المثل من نظر فيه وتأمله : عرف منه جميع ما قدمنا ذكره .

وينبغى أن يعلم : أن السعيد الذى ذكرنا حاله ، ما دام حياً تحت هذا الفلك الدائر بكواكبه ودرجاته ، ومطالع سعوده ونحوسه : يرد عليه من النكبات والنوائب ، وأنواع المحن والمصائب : ما يرد على غيره . إلا أنه يذعر منها ، ولا يلحقه ما يلحق غيره من المشقة فى احتمالها لأنه غير مستعد لسرعة الانفصال منها : بعادة الهلع والجزع والأحزان ، ولا قابل أثر الهموم والأحزان بالأحوال العارضة . وإن أصابه من هذه الآلام شىء : فهو يقدر على ضبط نفسه ، كى لا تنقله عن السعادة إلى ضدها ، بل لا تخرجه عن حد السعادة البتة .

ولو ابتلى ببلايا أيوب عليه السلام وأضعافها : ما أخرجه عن حد السعادة .

وذلك لما يجد فى نفسه : من المحافظة على شروط الشجاعة ، والصبر : على ما يجزع منه أصحاب خور الطباع : فيكون سروره أولا بذاته ، وبالأحاديث الجميلة التى تنشر عنه .

ويرى أن القاتل الذى يدعى الشطارة ، والمصارع الذى يهوى الغلبة . كل واحد منهما يصبر على شدائد عظيمة من تقطيع أعضاء نفسه ، وترك الشهوات التى يتمكن منها : طلباً لما يحصل له من الغلبة وانتشار الصيت ، فيرى نفسه أحرى وأولى منهما : بالصبر إذا كان غرضه أشرف ، وصيته فى الفضلاء أبلغ وأشهر وأكرم ، ولأنه يسعد فى نفسه ، ثم يصير قدوة لغيره .

وأرسطوطاليس يقول : إن بعض الأشياء تعرض من سوء البخت : بما يكون يسيراً سهل المحتمل ، فإذا عرض الإنسان واحتمله : لم يكن فيه دلالة على كبر نفسه ، وعظم همته .

ومن لم يكن سعيداً ، ولا سبقت له رياسة بهذه الصناعة الشريفة : من تهذيب الأخلاق ، فإنه سينفعل انفعالا قوياً : فيعرض له عند حلول المصائب إحدى الحالتين .

إما الاضطراب الفاحش ، والألم الشديد : والخروج بهما إلى الحد الذى يرثى له ويرحم !

وإما أن يتشبه بالسعداء ، ويسمع مواعظهم : فيظهر الصبر والسكون : إلا أنه جزع الباطن ، متألم الضمير .

وكما أن الأعضاء المفلوجة : إذا حركت إلى اليمين : تحركت إلى الشمال ، كذلك تكون حركات نفوس الأشرار : تتحرك إلى خلاف ما يحملونها عليه : من الجميل . أعنى إذا تشبهوا بالأجواد ، وأهل العدالة : كانت هذه حالهم .

رأى أرسطوطاليس فى بقاء النفس

ومما يستدل به من كلام أرسطوطاليس[١] : على أنه كان يقول : ببقاء النفس ، وبالمعاد : كلامه المتداول فى كتاب الأخلاق ، وهو هذا :

قال : قد حكمنا أن السعادة شىء ثابت ، غير متغير .

وقد علمنا أيضاً أن الإنسان قد تلحقه تغيرات كثيرة . واتفاقات شتى ، فإنه قد يمكن لمن هو أرغد الناس عيشاً أن يصاب بمصائب عظيمة . كما رمز فى برنامس[٢] .

ومن يتفق له هذه المصائب ومات عليها : فليس يسميه أحد من الناس : سعيداً ، وليس ينبغى على هذا القياس : أن يسمى إنسان من الناس سعيداً : ما دام حيا . بل ينتظر به آخر عمره : ثم يحكم عليه .

فالإنسان إذن : إنما يصير سعيداً إذا مات .

إلا أن هذا قول فى غاية الشناعة : إذا كنا نقول : إن السعادة هى خير ما . ثم قال فى هذا الموضع أيضاً : موضع شك .

فإنه قد يظن بالميت أن يلحقه خير وشر : إذ قد يلحق الحى أيضاً ، وهو لا يحس به : مثل الكرامة ، أو الهوان ، واستقامة أمر الأولاد ، وأولاد الأولاد .

فى هذه الأشياء خير ، لأنه قد يمكن فيمن عاش عمره كله إلى أن يبلغ الشيخوخة سعيداً وتوفى على هذا السبيل : أن يلحقه مثل هذه التغيرات : فى أولاده : حتى يكون بعضهم خياراً : حسن السيرة ، وبعضهم بضد ذلك .

---

(١) أنظر ترجمته فى هامش ص ٨٨

(٢) البرناسية : مذهب الشعراء : الذين قاوموا الغنائية . الدومنطيقية ، واعتنوا كل الاعتناء بالصناعة اللفظية ، والتألق بالديباجة الشعرية . ولعل لأرسطوطاليس كتاباً سماه بالبرنامس . وبرنامس : قد تكون رمزاً للشقاء .

ومن البين : أنه قد يمكن أن يوجد بين الآباء والأولاد : تباين واختلاف بكل جهة .

ولكن من المنكر أن يكون الميت بتغير غيره : يصير مرة سعيداً : ومرة أخرى شقياً .

ومن المنكر : أن لا تكون أمور الأولاد متصلة بالوالدين : فى وقت من الأوقات .

ولكن ينبغى أن نعود إلى ما كان الشك واقعاً فيه .

فهذا الشك الذى أورده أرسطوطاليس على نفسه فى هذا الموضع ، هو شك من يعتقد أن للإنسان بعد موته أحوالا ، وأنه يتصل به لا محالة ، من أمور أولاده ، وأولاد أولاده ، أحوال مختلفة : بحسب خلاق سير الأولاد .

فكيف نقول ليت شعرى فى الإنسان ؟ إذا مات سعيداً ، ثم لحقه من شقى بعض أولاده ، أو سوء سيرة من يحيا من نسله : مايكون ضد سيرته وهو حى ، فإنه إن غير سعادته : كان هذا شنيعاً ، وإن لم يلحقه أيضاً شيء من ذلك : كان أيضاً شنيعاً .

ثم أرسطوطاليس ، يحل هذا الشك بأن يقول : ماهذا معناه : أن سيرة الإنسان ، ينبغى أن تكون سيرة محمودة ، لأنه يختار فى كل ما يعرض له أفضل الأعمال : من الصبر مرة ، ومن اختيار الأفضل فالأفضل مرة .

ومن التصرف فى الأموال إذا اتسع فيها ، وحسن التجمع إذا عدمها : ليكون سعيداً فى جميع أحواله : غير منتقل عن السعادة بوجه من الوجوه .

فالسعيد إذا ورد عليه نحس عظيم : جعل سيرته أكثر سعادة : لأنه يداريه مداراة جميلة ، وتصبر على الشدائد صبراً حسناً .

ومتى لم يفعل ذلك : كدر سعادته ونغصها ، وجلب له أحزاناً وغموماً : تعوقه عن أفعال كثيرة .

والجميل إذا ظهر من السعداء فى هذه الأحوال والأفعال : كان أشد إشراقاً وحسناً .

وذلك إذا احتمل ما كبر وعظم : من المصائب : احتمالا سهلا ؛ بعد أن لا يكون ذلك : لا لعدم حسه ، ولا لنقصان فهمه بالأمور ، بل لشهامته وكبر نفسه .

قال : إذا كانت الأفعال هى ملاك السيرة كما قلنا ، فليس يكون أحد من السعداء شقياً . لأنه ليس يفعل فى وقت من الأوقات أفعالا مرذولة .

فإذا كان هكذا ، فالسعيد أبداً يكون مغبوطاً : وإن حلت به المصائب التى حلت ببرنامس ، ولا يكون أيضاً شقياً ، ولا سريع التنقل من ذلك : لأنه ليس ينتقل عن السعادة بسهولة ، ولا تنقله عنها الأوقات اليسيرة . بل لا تنقله عنها الآفات العظيمة الكثيرة . وليس يكون سعيداً إذا نالته هذه الأمور زماناً يسيراً . بل إذا ظفر بأمور جميلة : فى زمان طويل .

ثم قال بعد قليل : وأما حال الإنسان بعد موته : فالقول بأن الآفات التى تعرض لأولاد الميت وأصدقائه بأجمعهم : ليست تتعلق به أصلا : مضاد لما يعتقده جميع الناس .

وإذا كانت الأمور العارضة لهؤلاء : كثيرة متبقنة ، وكان بعضها يتعدى إلى الميت أكثر ، وبعضها أقل : صارت قسمتنا إياها إلى الأشياء الجزئية بلا نهاية .

وأما إذا قيل قولا كلياً ، وعلى طريق الرسم : فخليق أن نكتفى بما نقوله فيها ، وهو أنه : كما أن الآفات التى تعرض للميت فى حياته : بعضها يثقل عليه احتماله ، ويثلم فى سيرته ، وبعضها يخف عليه احتماله .

كذلك يكون حاله فيما يعرض لأولاده وأصدقائه . وكل واحد من العوارض التى تعرض للأحياء : مخالف لما يعرض لهم إذا ماتوا : أكثر من مخالفة كل ما يضرب به المثل ، ويشبه إن كان يصل إليهم من هذه الأشياء شىء : خيراً كان أو شراً أن يكون يسيراً نزراً : بمقدار مالا يجعل غير السعيد سعيداً ، ولا ينتزع السعادة من السعداء .

هذا حل أرسطوطاليس للشك الذى أورده .



لذّة السّعادة

ولما قلنا : أن السعادة : ألذ الأشياء ، وأفضلها ، وأجودها ، وأوضحها : وجب أن نبين وجه اللذة فيها بأتم بيان . كما قلناه فيما مضى !

إن اللذة تنقسم إلى قسمين :

أحدهما لذة انفعالية ، والأخرى لذة فعلية ، أى فاعلة .

فأما اللذة الانفعالية : فهى شبيهة بلذة الإناث ، واللذة الفاعلة تشبه لذة الذكور .

ولذلك صارت اللذة الانفعالية : هى التى تشاركنا فيها الحيوانات التى ليست بناطقة ، وذلك أنها مقترنة بالشهوات ، ومحبة الانتقام : وهى انفعالات النفسين البهيميتين .

وأما اللذة الأخرى : فهى الفاعلة : وهى التى يختص بها الحيوان الناطق ، ولأنها غير هيولانية [1] ، ولا منفعلة انفعالا ، لأنها صارت لذة تامة ، وتلك ناقصة ، وهذه ذاتية ، وتلك عرضية .

وأعنى بالذاتية والعرضية : أن اللذات الحسية المقترنة بالشهوات : تزول سريعاً ، وتنقضى وشيكا ، بل تنقلب لذاتها : فتصير غير لذات . بل تصير آلاماً كثيرة ، أو مكروهة بشعة مستقبحة ، وهذه أضداد اللذة ومقابلاتها .

وأما اللذة الذاتية : فإنها لا تصير فى وقت آخر غير لذة ، ولا تنتقل عن حالتها : بل هى ثابتة أبدا .

وإذا كانت كذلك : فقد صح حكمنا ، ووضح أن السعيد : تكون لذته ذاتية ، لا عرضية ، وعقلية لا حسية ، وفعلية لا انفعالية ، وإلهية لا بهيمية .

---

(١) الهيولي : المادة الأولى ، والنسبة إليه : هيولى ، وهيولانى (يونانية الأصل) وأراد المؤلف بغير هيولانية : أى ليست بالمادة الأولى : المنبثة فى الحيوان .

ولذلك قالت الحكماء : إن اللذه إذا كانت صحيحة : ساقت البدن من النقص إلى التمام ، ومن السقم إلى الصحة .

وكذلك تسوق النفس : من الجهل إلى العلم ، ومن الرذيلة إلى الفضيله .

إلا أن ههنا سراً : ينبغى أن يقف عليه المتعلم .

وهو أن ميله إلى اللذة الحسية : ميل قوى جداً ، وشوقه إليها شوق مزعج ، ولا تزيد العادة فى قوة الطبع الذى لنا كبير زيادة : لفرط ما جبلنا عليه فى البدء ، من القوة والشوق .

ولذلك متى كانت هذه اللذة حسية قبيحة جدا . ثم مال الطبع إليها بإفراط ، وانفعل عنها بقوة ، واستحسن الإنسان فيها كل قبيح ، وهون على نفسه منها كل صعب ، ولا يرى موضع الغلط ، ولا مكان القبيح : حتى تبصره الحكمة .

وأما اللذة العقلية الجميلة : فأمرها بالضد .

وذلك أن الطبع يكرهها : فإن انصرف الإنسان إليها ، بمعرفته وتمييزه : احتاج فيها إلى صبر ، ورياضة : حتى إذا تبصر فيها ، وتدرب لها : انكشف له حسنها وبهاؤها ، وصارت عنده بمكان فى الحسن .

ومن هنا تبين أن الإنسان فى ابتداء تكوينه : محتاج إلى سياسة الوالدين ، ثم إلى الشريعة الإلهية ، والدين القيم : حتى تهديه وتقومه إلى الحكم البالغة : ليتولى تدبير نفسه إلى آخر عمره .

وقد تبين مع ذلك تعلق السعادة بالجود .

وذلك أنا قد بينا أنها لذة فاعلة ، ولذة الفاعل أبدا تكون فى الإعطاء ، ولذة المنفعل أبدا تكون فى الأخذ . ولا تظهر لذة السعيد إلا بإبراز فضائله ، وإظهار حكمته ، ووضعها كفاءته فى مواضعها ، وكذلك البناء الحاذق ، والصائغ اللطيف ، والموسيقى المحسن .

وبالجملة كل صانع حاذق فاضل فى صناعته : يُسر بإظهار فضائله ، وإذاعتها بين أهلها ومستحقيها .

وهذا هو معنى الجود ، إلا أن الجود بأعلى الأشياء وأكرمها : أفضل وأشرف من الجود بأدونها وأخسها ، وقد عرض لهذا الجود مع شرفه وعلو مرتبته : ضد ما عرض لذلك الجود الآخر : مع نزارته وقلته .

وذلك أن صاحب الأموال ، والمقتنيات الخارجة : كلاهما ينتقص ماله بالإنفاق ، وينثلم بالبذل . وتفنى ذخائره .

وأما صاحب السعادة التامة : فإن أمواله لا تنقص بالإنفاق : بل تزيد ، ولا تفنى ذخائره بالتبذير : بل تنمو . وتلك معرضة للآفات الكثيرة : من الأعداء ، واللصوص ، وسائر المتسلطين ، وهذه محروسة من كل آفة ، لا سبيل للأشرار والأعداء إليها : بوجه ولا سبب .

فقد ظهرت لذة السعيد كيف تكون ؟ ومن أين تبتدئ ؟ وإلى أين تنتهى ؟ وكيف يكون السرور الحقيق ، واللذة الذاتية ؟

وتبين أيضاً أنها أبدية وتامة وإلهية ، وأن ضدها : هو الشقاء لذاته بالضد ، وعلى العكس ، أعنى أن لذاته كلها عرضية ، ومنتقلة عن طباعها إلى أضدادها ، حتى تصير مؤلمة ، أو مكروهة ، وأنها غير إلهية : بل شيطانية ، وغير ممدوحة ، بل هى مذمومة .

وذلك بأن ينظر فى السعادة : هل هى ممدوحة ؟ فإن أرسطوطاليس يقول: إن الأشياء التى هى فى غاية الفضل ، لا يوجد لها مدح : لأنها أفضل وأمدح ، وأجل من أن تمدح . قال : وذلك أنا قد ننسب المتأهلين ، والخيار من الناس : إلى السعادة ، وليس يوجد أحد من الناس يمدح السعادة نفسها : كما يمدح العدل .

لكنه يجلها ويكرمها : إلى أنها أمر إلهى بالأشياء التى هى أفضل من المدح ، وهو الله تعالى .

وإلى الخير : فإن المدح هو الفضيلة والعمل بها .

ثم انتهى كلامه هذا إلى أن قال : فالله تعالى : أكرم وأشرف : من أن يمدح ، بل إنما يمجدونه ، ونحن نمجد الله تعالى ونقدسه : تمجيداً كثيراً .

وأما السعادة : فلأنها أمر إلهى ، وإنما تفعل الأشياء كلها لأجلها : فهى كذلك أيضاً ممجدة .

فعلى هذا الأمر ينبغى أن لا نمدح السعادة : لأنها أجل من كل مدح ، بل نمجدها فى نفسها : وتمدح الأمور كلها بها ، وبقدر قسطها منها .

المقالة الرابعة

ظهور الفضائل ممن ليس بسعيد ولا فاضل

قد قلنا فيما سلف : إن السعادة تظهر فى الأفعال : من العدالة ، والشجاعة ، والعفة ، وسائر ما تحت هذه الأنواع التى أحصيناها ، وحددناها .

وهذه الأفعال قد تظهر ممن ليس بسعيد ولا فاضل

وذلك أنه قد يعمل بعض الناس عمل العدول : وليس بعادل ، ويعمل عمل الشجعان : وليس بشجاع ، ويعمل عمل الأعفاء : وليس بعفيف

مثال ذلك : أن من ترك الشهوات : من المآكل ، والمشارب ، وسائر اللذات : التى ينهمك فيها غيره : إما لأنه ينتظر منها أكثر مما يحضره ، وإما لأنه لا يعرفها ، ولم يباشرها : كالأعراب الذين يبعدون عن البلاد ، وكالرعاة فى البوادى وقلال الجبال .

وإما لأنه ممتلىء مما يجده ويحضره . وإما لجمود شهوته ، ونقصان تركيبه . وإما لأنه استشعر خوفاً من تناولها ، ومكروهاً يلحقه بسببها . وإما لأنه ممنوع منها . فإن هؤلاء كلهم يعملون عمل الأعفاء : وليسوا بأعفاء على الحقيقة . وإنما يسمى عفيفاً على الحقيقة : من وفى العفة حدها المذكور فيما تقدم ، واختارها لنفسها : لا لغرض آخر غيرها ؛ وآثرها لأنها فضيلة . ثم تناول كل واحدة من شهواته بمقدار الحاجة ، ومن الوجه الذى ينبغى ، وفى الوقت الذى ينبغى ، وعلى الحال الذى ينبغى .

وكذلك حال الذى يعمل أعمال الشجعان : وليس بشجاع . وذلك أن من باشر الحروب ، وأقدم على ركوب الأهوال : لبعض ما يوصل إليه المال ، أو لبعض الرغبات التى لا تعد كثرة . فإن مثل هذا يعمل عمل الشجعان : ولكن يعمله بطبيعة الشره : لا بطبيعة الفضيلة التى تدعى شجاعة .

وكل من كان أكثر إقداماً ، وأصبر على الأهوال لهذه الأحوال : يجب أن يكون أكثر شرهاً ونهماً . لا أكثر شجاعة ، وذلك أنه يخاطر بنفسه الشريفة ، ويصبر على المكاره العظيمة : طمعاً فى المال وما يصل إليه بالمال .

وقد رأينا أهل الشقاوة : يعملون عمل الأعفاء ، وعمل الشجعان ، وهم أبعد الناس عن كل فضيلة .

وذلك أنهم يصبرون عن الشهوات كلها ، ويصبرون على عقوبات السلطان ، وضرب السياط ، وتقطيع الأعضاء والجراحات : التى لا يؤمن منها . وينتهون فيها لأقصى الصبر : على الصلب ، وسمل العيون[١] ، وقطع الأيدى والأرجل ، وضروب التمثيل : طلباً لاسم ، وذكر بين قوم فى مثل حالهم : من سوء الاختيار ، ونقصان الفضائل[٢] .

وقد يعمل عمل الشجعان : من يخاف لائمة عشيرته ، أو عقوبة سلطان ، أو خوف سقوط جاهه ، أو ما أشبه ذلك .

وقد يعمل عمل الشجعان : من اتفق له مراراً كثيرة : أن يغلب أقرانه ، فهو يقدم ثقة منه بالعادة الجارية ، وجهلا بمواقع الاتفاقات .

وقد يعمل عمل الشجعان : العشاق ، وذلك أنهم يركبون الأهوال فى طلب المعشوق : لرغبتهم فى الفجور ، أو لحرصهم على متعة العين منه ، لا لطلب الفضيلة . ولا لاختيار الموت الجميل : على الحياة الرديئة : كما يفعل الشجاع بالحقيقة .

وأما شجاعة الأسد والفيل ، وأشباههما من الحيوانات : فإنها تشبه الشجاعة ، وليست بشجاعة حقيقية .

وذلك أنها قد وثقت بقوتها ، وأنها تفوق غيرها : فهى تقدم لا بطبيعة الشجاعة : بل لتمام القدرة ، وثقة النفس والغلبة ، وما كان منها سبعاً ، فهو مع هذه الحال مزاح العلة فى السلاح الذى عدمه ، وهو كصاحب السلاح منا : إذا قدم على الأعزل .

وليست هذه شجاعة مع عدم الاختيار الذى يستعمله الشجاع .

---

(١) سمل العين : فقأها بمسمار ، أو حديدة . وكانت فى الأصول التى بين أيدينا : وثمل العيون ، بالثاء : وهو خطأ واضح .

(٢) وهذا مثل ماحدث فى مصر للاخوان المسلمين على أيدى السفاحين .

وذلك أن الشجاع خوفه من الأسر[١] : أشد من خوفه من الموت ، ولذلك يختار الموت الجميل : على الحياة القبيحة .

على أن لذة الشجاع : ليست تكون فى مبادئ أموره ، فإن مبادئ الأمور تكون مؤذية له . لكنها تكون فى عواقب الأمور . وتكون أيضاً باقية مدة عمره ، وبعد عمره : لا سيما إذا حامى عن دينه ، وعن اعتقاداته الصحيحة فى وحدانية الله عز وجل ، والشريعة التى هى سياسة الله وسنته العادلة : التى بها مصالح العباد فى الدنيا والآخرة .

فإن مثل هذا : فكر فى قصر مدة عمره ، وعلم أنه لا محالة سيموت بعد أيام ، ثم كان محباً للجميل . ثابتاً على الرأى الصحيح : فهو لا محالة يحامى عن دينه ، ويمنع العدو من استباحة حريمه ، والتغلب على مدينته ، ويأنف من الفرار ، ويعلم أن الجبان : إذا اختار الفرار : فإنما يستبقى شيئاً هو لا محالة : فان زائل ، وإن تأخر أياماً معدودة ، ثم هو فى هذه الحياة اليسيرة : ممقوت مكدر الحياة : بالذل وضروب الصغار .

وهذه حال الشجاع مع قوى نفسه .

أعنى بمقاومة شهواته ، واستسلامه لذات الشجاعة بعينها .

ومن سمع كلام الإمام صلوات الله عليه الذى صدره عن حقيقة الشجاعة ، إذ قال لأصحابه (أيها الناس : إن لم تقتلوا تموتوا . والذى نفس ابن أبى طالب بيده : لألف ضربة بالسيف على الرأس : أهون من ميتة على الفراش) تبين له أن جميع ما أحصيناه للإنسان : ليس بمعدود فيها : وإن كان يشبهها بالصورة .

ذلك أنه ليس كل من يقدم على الأهوال فهو شجاع ، ولا كل من لا يخاف من الفضائح فهو شجاع .

وذلك أن من لا يفزع من ذهاب شرفه ، أو فضيحة حرمه ، أو عند حدوث الرجفات ، والزلازل ، والصواعق ، أو الزمانة فى الأمراض ، أو عدم الإخوان والأصدقاء ، أو عند اضطراب البحر ، وهول الأمواج والهواء الهائج : فهو بأن يوصف بالجنون مرة ، وبالقحة مرة : أولى بأن يوصف الشجاعة .

---

(١) فى الأصول التى بأيدينا : خوفه من الأمر . وهو خطأ واضح .

وكذلك من خاطر بنفسه فى وقت الأمن والطمأنينة : بأن يثب من سطح عال ، أو يصعد مرتقى صعباً ، أو يحمل نفسه على خوض ماء غزير ، وهو لا يحسن السباحة ، أو يساور جملا هائجاً ، أو ثوراً صعباً ، أو فرساً لم يرض : من غير ضرورة تدعوه إلى ذلك ، بل مراءاة بالشجاعة ، وإظهار مرتبة الشجعان : فهو بان يسمى مطرمذاً [1] ، مائقاً : أولى بأن يسمى شجاعاً .

وأما من حنق نفسه [2] خوفاً من الفقر أو الذل ، أو أهلكها بالسم ، وما أشبهه من باب الضيم : فهو بأن يوصف بالجبن : أولى منه بأن يوصف بالشجاعة .

وذلك أن الإقدام : وقع منه بطبيعة الجبن : لا بطبيعة الشجاعة . فإن الشجاع : يصبر على ما يرد عليه من الشدائد : صبراً جميلا . ويعمل أعمالا تليق بتلك الحال كما شرحناه فيما تقدم .

ولذلك يجب أن يعظم الشجاع ويشح بنفسه ، وحقيق على السلطان خاصة ، والقيم بأمر الدين والملك : أن ينافس فيه ، ويجل قدره ، ويعلى خطره ، ويميزه عن سائر من يتشبه به ممن ذكرناه .

فقد تبين من جميع ما قلناه : أن الشجاع : هو الذى يستهين بالشدائد فى الأمور الجليلة ، ويصبر على الأمور الهائلة ، ويستخف بما يستعظمه عوام الناس ، حتى بالموت : لاختيار الأمر الأفضل ، ولا يحزن على ما لا درك فيه ، ولا يضطرب عند ما يفدحه من المصائب ، ويكون غضبه إذا غضب : بمقدار ما يجب ، وعلى من يجب ، وفى الوقت الذى يجب .

وكذلك يكون انتقامه على هذه الشرائط . فإن الحكماء قالوا : من لا ينتقم : يلحق قلبه ذبول ، فإذا انتقم : عاد إلى حالته من النشاط .

وهذا الانتقام : إذا كان بحسب الشجاعة : كان محموداً ، وإذا لم يكن كذلك كان مذموماً .

---

(١) الطرمذ : الذى يقول ، ولا يفعل ، ويفاخر بما ليس فيه .
(٢) أحنق : أى حقد حقداً لا يزول . والمعنى : أنه حقد على نفسه مخافة الذل والفقر : فلجأ إلى الانتحار ، وهو منتهى الحقد على النفس .

فقد نقل إلينا فى الأخبار المأثورة : عمن أقدم على سلطان قوى : ورام أن ينتقم منه ، فأهلك نفسه من غير أن يضر سلطانه : روايات كثيرة .

وكذلك حال من أقدم على قرن قوى ، أو خصم ألد : لا يستطيع مقاومته : فإن الانتقام منه : يعود وبالا عليه ، وزيادة فى الذل والعجز .

فإذن ليست تتم شرائط الشجاعة والعفة : إلا للحكيم الذى يستعمل كل شىء فى موضعه الخاص به ، وبقدر إقساط العقل له .

فكل شجاع : عفيف حكيم . وكل حكيم : شجاع عفيف . وهذه الحال بعينها : تظهر فيمن عمل عمل الأسخياء : وليس : بسخى .

وذلك أن من بذل أمواله فى شهواته : طلباً للسمعة والرياء ، أو تقرباً إلى السلطان ، أو لدفع مضرة عن نفسه وحرمه وأولاده . أو بذلها لمن لا يستحق : من أهل الشر ، أو الملهين ، أو المساخرين ، أو بذلها لطمع فى أكثر منها[1] : على سبيل التجارة والمرابحة ، فكل هؤلاء يعمل عمل الأسخياء : وليس بسخى .

أما بعضهم ، فيبذل ماله بطبيعة الشره .

وأما بعضهم : فبطبيعة الطرمذة[2] والرياء . وبعضهم على طريق الازدياد من المال والربح فيه . وأما بعضهم فعلى سبيل التبذير ، وقلة المعرفة بقدر المال .

وهذا أكثر ما يعرض للوارث ، ولمن لا يتعب فى اكتساب المال : فلا يعرف صعوبة الأمر فيه .

وذلك أن المال : صعب الاكتساب ، سهل الإنفاق والتفرقة . قد شبهه الحكماء بمن يرفع حملا ثقيلا : إلى قلة[3] جبل ، ثم يرسله ، فإن الأمر فى ترقيته وإصعاده صعب . ولكن إرساله من هناك أمر سهل .

---

(١) قال تعالى « ولا تمنن تستكثر » (٢) انظر هامش صفحة ١٢٠ (٣) قلة كل شىء : أعلاه .

الحاجة إلى المال واكتسابه بالطرق الشريفة العادلة

الحاجة إلى المال : ضرورية فى العيش ، وهو نافع فى إظهار الحكمة والفضيلة . ومن اكتسبه من وجهه : صعب عليه .

وذلك أن المكاسب الجميلة : قليلة ، ووجوهها يسيرة عند الرجل العادل الحر . وأما غير العادل الحر : فليس يبالى كيف اكتسبه ؟ ومن أين وصل إليه ؟

ولأجل ذلك يوجد كثير من الأحرار والفضلاء : ناقصى الحظ منه . ويوجدون أيضاً ذامين للبخت شاكين منه .

وأما أضدادهم : فلأجل أنهم يكتسبون المال من وجوه الخيانات ، ولا يبالون كيف وصل إليهم : فإنهم يوجدون أبداً وافرى الحظ منه ، واسعى النفقات : شاكرين لبخوتهم . والعامة يغبطونهم ويحسدونهم . إلا أن العاقل إذا رأى نفسه : وهو يرى من المذمات : نقى العرض من السوءات : لم يتدنس بالقبيح من المكاسب ، ولم يتطرق إليه بخيانة ولا سرقة ، ولا ظلم لمن هو دونه ، أو مثله . وتجنب فيه وجوه العار والفضائح : كالقيادة ، والخداع ، وترويج السلع القبيحة على الملوك ، واستنزالهم عن أموالهم : بالخدع والمكر : ومساعدتهم على الفواحش ، وتحسين القبائح فيما يوافق هواهم . وما يجرى مجرى ذلك : من السعاية ، والنميمة ، والغيبة . وضروب الفساد : التى يرتكبها طلاب المال من غير وجهه بضروب المغابنات ، ووجوه الظلم : يسر بنفسه ، ويعتاض من المال الراحة والمحمدة : فلا يلوم البخت ، ولا يبغض الدول ، ولا يحسد أصحاب الأموال المكتسبة من غير وجوهها الجميلة .

فهذه أحوال المكتسبين للأموال ومنفقيها .

وكذلك حال من عمل عمل العدول : وليس بعدل .

وذلك أنه إذا عدل فى بعض الأمور : مراءاة ليصل به إلى كرامة ، أو مال ، أو غير ذلك من الشهوات . أو لغرض آخر مما عددناه فيما تقدم : فليس يسمى عادلا . وإنما يعمل عمل العدول للغرض الذى يقصده .

وينبغى أن ينسب فعله إلى غرضه . فإنه بحسب هذا يفعل ذلك كما قلنا وشرحنا .

العَادِل

فأما العادل بالحقيقة : فهو الذى يعدل : قواه ، وأفعاله ، وأحواله كلها : حتى لا يزيد بعضها على بعض . ثم يروم ذلك فيما هو خارج عنه من المعاملات ، والكرامات ، ويقصد فى جميع ذلك : فضيلة العدالة نفسها ، لا غرضاً آخر سواها . وإنما يتم له ذلك : إذا كانت له هيئة نفسانية أدبية ، تصدر عنها أفعاله كلها بحسبها .

ولما كانت العدالة : وسطاً بين أطراف ، وهيئة يقتدر بها على رد الزائد والناقص إليها : صارت أتم الفضائل ، وأشبهها بالوحدة .

وأعنى بذلك : أن الوحدة هى التى لها الشرف الأعلى ، والرتبة القصوى .

وكل كثرة لا يضبطها معنى يوحدها : فلا قوام لها ، ولا ثبات . والزيادة والنقصان والكثرة والقلة : هى التى تفسد الأشياء إذا لم يكن بينها مناسبة : تحفظ عليها الاعتدال بوجه ما .

فالاعتدال : هو الذى يرد إليها ظل الوحدة ومعناها . وهو الذى يلبسها شرف الوحدة ، ويزيل عنها رذيلة الكثرة ، والتفاوت ، والاضطراب : الذى لا يحد ، ولا يضبط بالمساواة : التى هى خليفة الوحدة فى جميع الكثرات ، واشتقاق هذا الاسم يدلك على معناه .

وذلك أن العدل فى الأحمال ، والاعتدال فى الأثقال ، والعدالة فى الأفعال : مشتقة من معنى المساواة . والمساواة : هى أشرف النسب المذكورة فى صناعة الارثماطيقى[1] . ولذلك لا تنقسم ، ولا يوجد لها أنواع ، وإنما هى وحدة فى معناها ، أو ظل للوحدة . فإذا لم نجد المساواة التى هى المثل بالحقيقة فى الكثرة : عدلنا إلى النسب المذكورة : التى تنحل إليها ، وتعود إلى حقيقتها .

وذلك أنا حينئذ نضطر إلى أن نقول : نسبة هذا إلى هذا : كنسبة هذا إلى هذا .

ولذلك لا توجد النسبة إلا بين أربعة ، أو ثلاثة : يتكرر فيها الوسط : فتصير أيضاً أربعة . والنسبة الأولى : تسمى منفصلة ، والثانية : تسمى متصلة .

ومثال الأولى : « أ ، ب ، ج ، د » فنقول نسبة « أ » إلى « ب » كنسبة « ج » إلى « د » .

ومثال الثانية : أن نأخذ الباء مشتركا فنقول: نسبة « أ » إلى « ب » كنسبة « ب » إلى « ج » وهذه النسبة توجد بين ثلاثة أشـياء . وهى النسبة العددية ، والنسبة المساحية ، والنسبة التأليفية .

وجميع ذلك : مبين مشروح فى المختصر الذى عملناه فى صناعة العدد .

وأما سائر النسب : فراجعة إليها .

ولذلك عظمها الأوائل ، واستخرجوا بها العلوم الجمة الشريفة .

ولما كانت نسبة المساواة عزيزة : لأنها نظيرة الوحدة : عدلنا إلى حفظ هذه النسب الأخر فى الأمور الكثيرة التى تلابسها لأنها عائدة إليها : وغير خارجة عنها . فنقول :

---

(١) لم أجد لهذه الكلمة معنى فيما بأيدينا من كتب اللغة ، ولعلها كلمة أعجمية : ولعل أريد بها المساواة فى العدل : الذى لا يقبل الإنقسام .

مواضع العدالة

إن العدالة موجودة فى ثلاثة مواضع : أحدها : قسمة الأموال والكرامات .

والثانى : قسمة المعاملات الإرادية : كالبيع ، والشراء ، والمعاوضات .

والثالث : قسمة الأشياء التى وقع فيها ظلم وتعد .

فأما العدالة فى الأمور التى تكون فى القسم الأول : فتكون بالنسبة المنفصلة : التى بين الأربعة . أعنى أن تكون نسبة الأول إلى الثانى : كنسبة الثالث إلى الرابع .

ومثال ذلك : أن يقال : نسبة هذا الإنسان إلى هذه الكرامة ، أو إلى هذا المال : كنسبة كل من كان فى مثل مرتبته : إلى مثل قسطه ، فإذاً يجب أن يوفر عليه ويسلم .

وأما فى الأمور التى تكون فى القسم الثانى : أعنى المعاملات ، والمعاوضات : فيكون بالنسبة المنفصلة مرة ، وبالنسبة المتصلة أخرى .

مثاله أن تقول : نسبة هذا البزاز إلى هذا الإسكاف[1] : كنسبة هذا الثوب إلى هذا الخف .

ثم ليس يمنع مانع أن تقول : نسبة البزاز إلى الإسكاف : كنسبة الإسكاف إلى النجار . أو تقول : نسبة الثوب إلى الخف : كنسبة الخف إلى الكرسى .

ويتبين لك من هذين المثالين : أن النسبة الأولى : تكون بالعمق فقط ، والنسبة الثانية : تكون بالعرض والعمق جميعاً .

أعنى أن الأولى : تقع بين الكليين والجزئيين . وهو بالعمق أشبه ، والثانية : تقع بالعرض فى الجزئيين ، وقد تقع بين الكليين والجزئيين أيضاً .

---

(١) البز : الثياب ، والسلاح . والبزاز : صانعهما . والإسكاف : الخراز ، وصانع الأحذية ومصلحها .

وأما العدالة التى تقع فى المظالم ، والأمور القسمية : فهى بالنسبة المساحية أشبه .

وذلك أن الإنسان متى كان على نسبة من إنسان آخر : فأبطل هذه النسبة بحيف ، أو ضرر يلحقه به : فإن العدالة توجب أن يلحق به ضرر مثله : ليعود التناسب إلى ما كان عليه .

فالعادل : من شأنه أن يساوى بين الأشياء الغير المتساوية (١) .

مثال ذلك : أن الخط إذا قسم بقسمين غير متساويين : نقص من الزائد ، وزاد على الناقص : حتى يحصل له التساوى ، ويذهب عنه معنى القلة والكثرة ، ومعنى الزيادة والنقصان .

وكذلك الخفة والثقل ، وجميع ما أشبه ذلك .

ولكن ينبغى أن يكون عالما بطبيعة الوسط : حتى يمكنه أن يرد الطرفين إليه .

مثال ذلك : الربح والخسران . فإنهما فى باب المعاملات طرفان : أحدهما زيادة ، والآخر نقصان ، فإذا أخذ أقل مما يجب : صار إلى جانب النقصان ، وإن أخذ أكثر مما يجب : كان خارجاً إلى جانب الزيادة .

لزوم الشّريعة فى المعاملات

والشريعة : هى التى ترسم فى كل واحد من هذه الأشياء : التوسط والاعتدال .

لأن الناس : هم مدنيون بالطبع ، ولا يتم لهم عيش : إلا بالتعاون ، فيجب أن بعضهم يخدم بعضاً ، ويأخذ بعضهم من بعض ، ويعطى بعضهم بعضاً : فهم يطلبون المكافأة المناسبة .

---

(١) الغير المتساوية . الصواب أن يقول : غير المتساوية : لأن غير : لا تدخل عليها أداة التعريف : لشدة ابهامها .

فإذا أخذ الإسكاف من النجار عمله ، وأعطاه عمله : فهى المعاوضة : إذا كان العملان متساويين ، ولكن ليس يمنع مانع : أن يكون عمل الواحد خيراً من عمل الآخر ، فيكون الدينار هو المقوم والمسوى بينهما .

فالدينار هو عدل ومتوسط : إلا أنه ساكت . والإنسان الناطق : هو الذى يستعمله ويقوم به جميع الأمور : التى تكون بالمعاملات : حتى تجرى على استقامة ونظام ، ومناسبة صحيحة عادلة .

ولذلك يستعان بالحاكم الذى هو عدل ناطق : إذا لم يستقم الأمر بين الخصمين بالدينار : الذى هو عدل ساكت .

وأرسطوطاليس يقول : إن الدينار ناموس عادل .

ومعنى الناموس فى لغته : السياسة والتدبير ، وما أشبه ذلك . فهو يقول فى كتابه المعروف بنيقوماخيا : إن الناموس الأكبر : هو عند الله تبارك وتعالى ، والحاكم : ناموس ثان من قبله ، والدينار : ناموس ثالث .

فناموس الله تعالى : قدوة النواميس كلها .

يعنى الشريعة ، والحاكم الثانى : مقتد به ، والدينار مقتد ثالث .

وإنما قومت الأشياء المختلفة : بالأثمان المختلفة : لتصح المشاركات والمعاملات ، ويتبين وجه الأخذ والإعطاء .

فالدينار هو الذى يسوى بين المختلفات ، ويزيد فى شىء وينقص فى آخر ، حتى يحصل بينهما الاعتدال : فتستوى المعاملة بين الفلاح والنجار مثلا .

وهذا هو العدل المدنى .

وبالعدل المدنى : عمرت المدن ، وبالجور المدنى : خربت المدن .

وليس يمنع مانع : من أن يكون عمل يسير : يساوى عملا كثيراً .

مثال ذلك : أن المهندس ينظر نظراً قليلا ، ويعمل عملا يسيراً . ويساوى نظره هذا عملا كثيراً من أقوام يكدون بين يديه ، ويعملون بما يرسمه .

وكذلك صاحب الجيش : يكون تدبيره ونظره يسيراً ، ولكنه يساوى أعمالا كثيرة : مما يحارب بين يديه ، ويعمل الأعمال الثقيلة العظيمة .

فالجائر : يبطل التساوى . وهو عند أرسطوطاليس على ثلاث منازل .

فالجائر الأعظم : هو الذى لا يقبل الشريعة ، ولا يدخل تحتها .

والجائر الثانى : وهو الذى لا يقبل قول الحاكم العادل : فى معاملاته وأموره كلها .

والجائر الثالث : هو الذى لا يكتسب ، ويغتصب الأموال : فيعطى نفسه أكثر مما يجب لها ، وغيره أقل مما يجب له .

قال : فالمستمسك بالشريعة يعمل بطبيعة المساواة : فيكتسب الخير والسعادة : من وجوه العدالة . لأن الشريعة تأمر بالأشياء المحمودة ، لأنها من عند الله عز وجل . فلا تأمر إلا بالخير ، وإلا بالأشياء التى تفعل السعادة .

وهى أيضاً تنهى عن الرداءات البدنية . وتأمر بالشجاعة ، وحفظ الترتيب ، والثبات فى مصاف الجهاد ، وتأمر بالعفة : وتنهى عن الفسوق ، وعن الافتراء ، والشتم ، والهجر . وبالجملة تأمر بجميع الفضائل ، وتنهى عن جميع الرذائل .

فالعادل : يستعمل العدالة فى ذاته ، وفى شركائه المدنيين .

والجائر : يستعمل الجور فى ذاته ، وفى أصدقائه ، ثم فى جميع شركائه المدنيين .

قال : وليست العدالة جزء من الفضيلة : بل هى الفضيلة كلها ، ولا الجور : الذى هو ضدها جزء من الرذيلة . لكنه الرذيلة كلها ، فبعض أنواع الجور : ظاهر ينفعل بالإرادة مثل ما يكون فى البيع ، والشراء ، والكفالات ، والقروض ، والعوارى[١] وبعضها خفى : ينفعل أيضاً بالإرادة ، مثل السرقة ، والفجور ، والقيادة ، وخداع المماليك ، وشهادة الزور .

وبعضها غشمى[٢] على سبيل التغلب . مثل التعذيب بالدهق[٣] والقيود ، والأغلال .

---

(١) العوارى : جمع عارية . وهى الشيء المعار .

(٢) الغشم : الظلم .   (٣) الدهق : خشبتان ، يعصر بهما الساق للتعذيب .

الإمام العادل

فالإمام العادل : الحاكم بالسوية : يبطل هذه الأنواع ، ويخالف صاحب الشريعة : في حفظ المساواة .

فهو لا يعطى ذاته من الخيرات : أكثر مما يعطى غيره .

ولذلك قيل فى الخبر : إن الخلافة تطهر الإنسان .

قال : فأما العامة فإنها تؤهل لمرتبة الإمامة : التى هى الخلافة العامة بما ذكرناه : من كان شريفاً فى حسبه ونسبه . وبعضهم يؤهل لذلك من كان كثير المال .

وأما العقلاء : فإنهم يؤهلون لذلك : من كان حكيما فاضلا . فإن الحكمة والفضيلة : هى التى تعطى الرياسات ، والسيادات الحقيقية . وهى التى رتبت الثانى والأول فى مرتبتيهما ، وفضلتهما .

أسباب المضرات

وأسباب المضرات كلها : تتفنن إلى أربعة أنواع .

أحدها : الشهوة ، والرداءة التابعة لها .

والثانى : الشرارة ، والجور التابع لها .

والثالث : الخطأ ، ويتبعه الحزن .

والرابع : الشقاء .

أما الشهوة : فإنها تحمل الإنسان على الإضرار بغيره ، إلا أنه لا يكون مؤثراً له ، ولا ملتذاً به . ولكنه يفعله ليصل به إلى شهوته ، وربما كان متألماً به كارهاً له ، إلا أن قوة الشهوة ، تحمله على ارتكاب ما يرتكبه .

وأما الشرير : فإنه يتعمد الإضرار بغيره : على سبيل الإيثار له ، والالتذاذ به . كمن يسعى إلى السلطان ، ويحمله على إزالة نعمة لا يصل إليه منها شيء ، ولكن يلتذ بالمكروه الذى يصل إلى غيره .

وأما الخطأ : فإن صاحبه لا يقصد الإضرار بغيره ، ولا يؤثره ، ولا يلتذ به . بل يقصد فعلا ما : فيعرض منه فعل آخر .

وصاحب الفعل : يحزن ويكتئب ، لما اتفق إليه من الخطإ .

وأما الشقاء : فصاحبه لا يكون هذا مبدأ فعله ، ولا له فيه صنع بالقصد . بل يوقعه فيه سبب آخر من خارج .

وذلك كمن تصدم به دابته صديقاً له فتقتله .

فهذا يسمى شقياً ، وهو مرحوم معذور : لا يجب عليه عتب ولا عقوبة .

وأما السكران ، والغضبان ، والغيران : إذا فعلوا فعلا قبيحاً : فإنهم يستحقون العتب ، والتفويه : لأن مبتدأ أفعالهم منهم .

وذلك أن السكران باختياره : أزال عقله ، والغضبان والغيران : اختارا الانقياد بهاتين القوتين إذا ماجتا بهما .

ونعود إلى ما كنا فيه من ذكر العدالة فنقول :

تقسيم العدالة

إن أرسطوطاليس : قسم العدالة إلى أقسام ثلاثة . أحدها : ما يقوم به الناس لرب العالمين .

وهو أن يجرى الإنسان فيما بينه وبين الخالق عز وجل : على ما ينبغى ، وبحسب ما يجب عليه من حقه ، وبقدر طاقته .

وذلك أن العدل إذا كان هو إعطاء ما يجب ، من يجب ، كما يجب .

فمن المحال : أن لا يكون لله تعالى الذى وهب لنا هذه الخيرات العظيمة : واجب ينبغى أن يقوم به الناس .

والثانى : ما يقوم به بعض الناس لبعض : من أداء الحقوق ، وتعظيم الرؤساء ، وتأدية الأمانات ، والنصفة فى المعاملات .

والثالث : ما يقومون به من حقوق أسلافهم : مثل أداء الديون عنهم ، وإنفاذ وصاياهم ، وما أشبه ذلك . فهذا ما قاله أرسطوطاليس .

وأما تحقيق ما قاله مما يجب لله عز وجل : وإن كان ظاهراً : فإنا نقول فيه ما يليق بهذا الموضع .

وهو أن العدالة لما كانت تظهر فى الأخذ والإعطاء ، وفى الكرامة التى ذكرناها .

وجب أن يكون لما يصل إلينا من عطيات الخالق عز وجل ، ونعمه التى لا تحصى : حق يقابل عليه .

وذلك أن من أعطى خيراً ما ، وإن كان قليلا . ثم لم ير أن يقابله بضرب من المقابلة : فهو جائر . فكيف به إذا أعطى جماً كثيراً ، وأخذ أخذاً دائماً : ثم لم يعط فى مقابلته شىء البتة .

ثم على قدر النعمة التى تصل إلى الإنسان : يجب أن يكون اجتهاده فى المقابلة عليها .

مثال ذلك : أن الملك الفاضل : إذا أمن السرب[1] ، وبسط العدل ، وأوسع العمارة ، وحمى الحريم ، وذب عن الحوزة ، ومنع من التظالم ، ووفر الناس على ما يختارونه ، من مصالحهم ومعايشهم : فقد أحسن إلى كل واحد من رعيته : إحساناً يخصه فى نفسه ، وإن كان قد عمهم بالخير ، واستحق من كل واحد منهم أن يقابله بضرب من المقابلة : متى قعد عنه : كان جائراً إذ كان يأخذ نعمته ، ولا يعطيه شيئاً .

لكن مقابلة الملك الفاضل من رعيته : إنما تكون بإخلاص الدعاء ، ونشر المحاسن ، وجميل الشكر ، وبذل الطاعة ، وترك المخالفة ، فى السر والعلانية ، والمحبة الصادقة ، والائتمام بسيرته تحرى الاستطاعة ، والاقتداء به فى تدبير منزله وأهله وولده وعشيرته .

فإن نسبة الملك إلى مدينته ورعيته : كنسبة صاحب المنزل إلى منزله وأهله .

فمن لم يقابل ذلك الإحسان بهذه الطاعة والمحبة : فقد جار وظلم ، وهذا الظلم والجور : إذا كان فى مقابلة النعم الكثيرة : فهو أفحش وأقبح .

وذلك أن الظلم وإن كان فى نفسه قبيحاً : فإن مراتبه كثيرة .

لأن مقابلة كل نعمة : إنما تكون بحسب منزلتها وموقعها ، وبقدر فائدتها وعائدتها ، وعلى مقدار عددها .

فإن كانت النعم كثيرة العدد ، وعظيمة الوقع . فكيف يكون حال من لا يلزم لها حقاً ، ولا يرى عليها مقابلة بطاعة ، ولا شكر ، ولا محبة صادقة ، ولا مسعاة صالحة .

---

(١) السرب : الطريق والوجهة .

فإذا كان هذا معروفاً غير منكور ، وواجباً غير مجحود : فى ملوكنا ورؤسائنا : فبالأحرى أن يكون لملك الملوك الذى يصل إلينا فى كل طرفة عين : ضروب إحسانه الفائض ، على أجسادنا ونفوسنا : التى لا يقع عليها إحصاء ولا عدد ، من الحقوق الواجب علينا القيام بها ، والنهوض بتأديتها .

أترانا نجهل النعمة الأولى علينا بالوجود ، ثم تتابعها متواترة بعد ذلك بالخلق الجسدانى : الذى أفنى فيه صاحب كتابى التشريح ، ومنافع الأعضاء : ألف ورقة : ثم لم يبلغ بعض ما عليه كنه الأمر .

أما ترانا نجهل ما وهب لنا من نفوسنا ، وما ركب فيها من القوى والملكات : التى لا نهاية لها ، وما أمدها به من فيض العقل ، ونوره وبهائه ، وبركاته ، وما عرضنا به للملك الأبدى ، والنعيم السرمدى !

(لا) : لعمرى ما يجهل هذه النعمة إلا النعم[1] .

فأما الإنسان فيعرف من ذلك ما يضطره إليه مشاهدة أحواله فى جميع أوقاته .

وإذا كان الخالق تعالى : غنياً عن معونتنا ومساعينا : فمن المحال والقبيح ، والجور الفاحش : أن نلتزم له نحن حقاً ، ولا نقابله على هذه الآلاء والنعم : بما يزيل عنا سمة الجور ، والخروج عن شريطة العدل !

ما يجب على الإنسان لخالقه

إن أرسطوطاليس : لم ينص فى هذا الموضع على العبادة التى يجب أن نلتزمها لخالقنا عز وجل . غير أنه قال ما معناه :

وقد اختلف الناس فيما ينبغى أن يقوم به المخلوقون لخالقهم .

---

(١) النعم : أى الأنعام .

فبعضهم رأى أنه : صلوات وصيام ، وخدمة هياكل ، ومصليات ، وقرابين .

وبعضهم رأى أن يقتصر على الإقرار بربوبيته ، والاعتراف بإحسانه ، وتمجيده بحسب استطاعته .

وبعضهم رأى أن يتقرب إليه : بأن يحسن إلى نفسه : بتزكيتها ، وحسن سياستها ، والإحسان إلى المستحقين من أهل نوعه : بالمواساة ، ثم بالحكمة والموعظة .

وبعضهم رأى اللهج بالفكر فى الإلهيات ، والتصرف نحو المحاولات : التى يتزايد بها الإنسان من معرفة ربه عز وجل : حتى تتكامل معرفته به ، وبحقيقة وحدانيته ، وصرف الوكد إليه[1] .

وبعضهم رأى أن الواجب للرب جل ذكره على الناس : ليس سبيله واحداً ، ولا هو شيء بعينه : يلتزمه الجميع التزاماً واحداً ، وعلى مثال واحد : لكنه يختلف بحسب اختلاف طبقات الناس ، ومراتبهم من العلم .

فهذا ما قاله أرسطوطاليس بألفاظه المنقولة إلى العربية .

وأما المحدث من الفلاسفة : فإنهم قالوا : إن عبادة الله عز وجل على ثلاثة أنواع :

أحدها : فيما يجب له على الأبدان : كالصلاة والصيام ، والسعى إلى المواقف الشريفة : لمناجاة الله عز وجل .

والثانى : فيما يجب له على النفوس : كالاعتقادات الصحيحة ، وكالعلم بتوحيد الله عز اسمه ، وما يستحقه من الثناء والتمجيد ، وكالفكر فيما أفاضه على العالم من وجوده وحكمته ، ثم الاتساع فى هذه المعارف .

والثالث : فيما يجب له عند مشاركات الناس : فى المدن ، وهى فى المعاملات ، والمزارعات ، والمناكح ، وفى تأدية الأمانات ، مع نصيحة البعض للبعض : بضروب المعاونات ، وعند جهاد الأعداء ، والذب عن الحريم ، وحماية الحوزة .

قالوا : فهذه هى العبادات ، وهى الطرق المؤدية إلى الله عز وجل .

---

(١) الوكد : وكد : أى قصد وأصاب .

وهذه الأنواع وإن كانت معدودة ومحصورة : فإنها منقسمة إلى أنواع كثيرة ، وأقسام غير محصاة .

وللإنسان مقامات ، ومنازل ، عند الله عز وجل .

فالمقام الأول : للموقنين . وهو رتبة الحكماء ، وأجلة العلماء .

والمقام الثانى : مقام المحسنين . وهو رتبة الذين يعملون بما يعلمون ، وهو ما ذكرناه فى كتابنا هذا : من الفضائل والعمل بها .

والمقام الثالث : مقام الأبرار . وهو رتبة المصلحين . وهؤلاء هم خلفاء الله بالحقيقة : فى إصلاح العباد والبلاد .

والمقام الرابع : مقام الفائزين . وهو رتبة المخلصين فى المحبة ، وإليها تنتهى رتبة الاتحاد ، وليس بعدها منزلة ، ولا مقام لمخلوق .

ويسعد الإنسان بهذه المنازل : إذا حصلت له أربع خلال .

أولها : الحرص والنشاط .

والثانى : العلوم الحقيقية ، والمعارف اليقينية .

والثالث : الحياء من الجهل ، ونقصان القريحة : اللذين يحدثان بالإهمال .

والرابع : لزوم هذه الفضائل والترقى فيها دائماً ، بحسب الاستطاعة ، فهذه أسباب الاتصال .

أسباب الانقطاع عن الله

وأما أسباب الانقطاعات عن الله عز وجل والمساقط : وهى التى تعرف باللعائن .

فأولها : السقوط : الذى يستحق به الإعراض ، وتتبعه الاستهانة .

والثانى : السقوط : الذى يستحق به الحجاب ، ويتبعه الاستخفاف .

والثالث : السقوط : الذى يستحق به الطرد . ويتبعه المقت .

والرابع : السقوط : الذى يستحق به الخسأة ، ويتبعه البغض .

وإنما يشقى العبد : إذا حصل على أربع خلال .

أولها : الكسل ، والبطالة ، ويتبعهما ضياع الزمان وفناء العمر : بغير فائدة إنسانية .

والثانى : الغباوة والجهل : المتولدان عن ترك النظر ، ورياضة النفس : بالتعاليم التى أحصيناها فى كتاب مراتب السعادات .

والثالث : الوقاحة : التى ينتجها إهمال النفس إذا تتبعت الشهوات ، وترك زمامها لركوب الخطايا والسيئات .

والرابع : الانهماك الذى يحدث من الاستمرار فى القبائح ، وترك الإنابة .

وهذه الأنواع الأربعة : مسماة فى الشريعة بأربعة أسماء . فالأول : هو الزيغ ، والثانى : هو الرين ، والثالث : هو الغشاوة ، والرابع : هو الختم ، ولكل واحدة من هذه الشقاوات : علاج خاص سنذكره عند مداواة أسقام النفس : حتى تعود إلى الصحة بإذن الله عز وجل .

وهذه الأشياء التى عددناها الآن : لا خلاف بين الحكماء فيها ، وبين أصحاب الشرائع ، وإنما تختلف بالعبارات والإشارات إليها : بحسب اللغات .

وأفلاطون يقول : إن العدالة إذا حصلت للإنسان : أشرق بها كل واحد واحد : من أجزاء النفس ، وذلك لحصول فضائلها أجمع فيها ، فحينئذ تنهض النفس : فتؤدى فعلها الخاص بها : على أفضل ما يكون ، وهو غاية قرب الإنسان السعيد من الإله تقدس اسمه .

قال : والعدالة توسط ليس على جهة التوسط الذى فى الفضائل التى تقدم ذكرها . لكن لأنها فى الوسط ، والجور فى الطرفين .

وإنما صار الجور فى الطرفين : لأنه زيادة ونقصان .

وذلك أن من شأن الجور : طلب الزيادة والنقصان معاً .

أما الزيادة : فمن النافع على الإطلاق . وأما النقصان فمن الضار .

فلذلك يكون الجائر مستعملا للزيادة والنقصان ، أما لنفسه : فيستعمل الزيادة فى النافع ، وأما لغيره : فيستعمل النقصان منه[1] . وأما فى الضار فبالضد ، وعلى العكس .

وذلك أنه أما لنفسه : فيستعمل النقصان منه ، وأما لغيره : فيستعمل الزيادة والفضائل التى قلنا : إنها أوساط بين الرذائل ، وهى غايات ونهايات .

وذلك أن الوسط ههنا : نهاية لها من كل جهة ، فهو فى غاية البعد منها . ولذلك متى بعد عن الوسط زيادة بعد : قرب من رذيلة ، كما قلنا فيما تقدم .

فقد تبين من جميع ما قدمنا : أن الفضائل كلها : اعتدالات ، وأن العدالة اسم يشملها ويعمها كلها . وأن الشريعة لما كانت تقدر الأفعال الإرادية ، التى تقع بالروية ، وبالوضع الإلهى : صار المتمسك بها فى معاملاته عدلا ، والمخالف لها جائراً .

فلهذا قلنا : إن العدالة لقب المتمسك بالشريعة ، إلا أنا قد قلنا مع ذلك : إنها هيئة نفسانية تصدر عنها هذه الفضيلة ، فتصور هذه الهيئة النفسانية : فإنك سترى رؤية واضحة : أن صاحبها ينقاد ولا محالة للشريعة طوعاً ، ولا يضادها بنوع من أنواع التضاد ، وذلك أنه إذا حافظ على المناسبات التى ذكرناها : لأنها مساواة : وآثرها بعد إجالة الرأى فيها على سبيل الاختيار لها ، والرغبة فيها : وجب عليه موافقة الشريعة ، وترك مخالفتها .

---

(١) قال تعالى « ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون » أى ينقصون .

وأقل ما تكون المساواة بين اثنين ، ولكنها تكون فى معاملة مشتركة بينهما : وهو الشىء الثالث ، وربما كانا شيئين كما قلنا ، فتصير المناسبات كما بينا : بين أربعة أشياء .

وينبغى أن يعلم أن هذه الهيئة النفسانية : هى غير الفعل ، وغير المعرفة ، وغير القوة .

أما الفعل : فلأنا قد بينا أنه قد يقع على غير هيئة نفسانية : كمن يعمل أعمال العدالة : وليس بعادل . وكمن يعمل أعمال الشجاعة : وليس بشجاع .

وأما القوة والمعرفة : فلأن كل واحدة منهما هى بعينها للضدين معاً .

فإن العلم بالضدين واحد ، وكذلك القوة على الضدين قوة واحدة .

وأما الهيئة القابلة لأحد الضدين : فهى غير الهيئة القابلة للضد الآخر .

ومثال ذلك : هيئة الشجاعة : فإنها غير هيئة الجبن ، وكذلك هيئة العفة : غير هيئة الشره ، وهيئة العدالة غير هيئة الجور .

ثم إن العدالة ، والخيرية : يشتركان فى باب المعاملات ، والأخذ والإعطاء . إلا أن العدالة : تقع فى اكتساب المال على الشرائط التى قدمنا القول فيها . والخيرية ، تقع فى انفاق المال على الشرائط التى ذكرناها أيضاً .

ومن شأن من يكتسب : أن يأخذ ، فهو بالمنفعل أشبه .

ومن شأن المنفق : أن يعطى . فهو بالفاعل أشبه .

فلهذه العلة : تكون محبة الناس للخير : أشد من محبتهم للعادل . إلا أن نظام العالم يسبب العدالة : أكثر منه بالخيرية .

وخاصة الفضيلة : هى فى فعل الخير ، لا فى ترك الشر .

وخاصة محبة الناس وحمدهم : فى بذل المعروف : لا فى جمع المال .

فالخير : لا يكرم المال ، ولا يجمعه لذاته : بل ليصرفه فى وجوهه التى يكتسب بها المحبات والمحامد .

ومن خاصة الخير : أن لا يكون كثير المال : لأنه منفاق ، ولا يكون أيضاً فقيراً : لأنه كسوب من حيث ينبغى ، وهو غير متكاسل عن الكسب البتة . لأنه بالمال يصل إلى فضيلة الخيرية . ولذلك لا يضيع المال ، ولا يستعمل فيه التبذير ، ولا يشح أيضاً : فلا يستعمل التقتير .

فكل خير عادل . وليس كل عادل خيراً .

مسألة عويصة : أولى

وفى هذا الموضع مسألة عويصة : سأل عنها الحكماء أنفسهم ، وأجابوا عنها بجواب مقنع . ويمكن أن يجاب فيها بجواب آخر : أشد إقناعاً . ويجب أن نذكر الجميع وهو أن لشاك أن يشك . فيقول : إذا كانت العدالة فعلا اختيارياً يتعاطاه العادل ، ويقصد به تحصيل الفضيلة لنفسه ، والمحمدة من الناس . فيجب أن يكون الجور : فعلا اختيارياً : يتعاطاه الجائر ، ويقصد به تحصيل الرذيلة لنفسه : ومذمة الناس . ومن القبيح الشنيع : أن يظن بالإنسان العاقل : أنه يقصد الإضرار بنفسه بعد الروية ، وعلى سبيل الاختيار .

ثم أجابوا عن ذلك ، وحلوا هذا الشك : بأن قالوا : إن من ارتكب فعلا يؤديه إلى ضرر أو عذاب : فإنه يكون ظالما لنفسه ، وضاراً لها : من حيث يقدر أنه ينفعها . وذلك لسوء اختياره ، وترك مشاورة العقل فيه .

مثال ذلك : الحاسد ، فإنه ربما جنى على نفسه : لا على سبيل إيثار الأضرار بها . بل لأنه يظن أنه ينفعها فى العاجل : بالخلاص من الأذى الذى يلحقه من الحسد . هذا جواب القوم .

وأما الجواب الآخر : فهو أن الإنسان : لما كان ذا قوى كثيرة : يسمى بمجموعها إنساناً واحداً : لم ينكر أن تصدر عنه أفعال مختلفة ، بحسب تلك القوى . وإنما المنكر :

أن يكون الشىء الواحد البسيط ذو القوة الواحدة : تقع منه بتلك القوة أفعال مختلفة : لا بحسب الآلات المختلفة ، ولا بقدر القابلات منه : بل بتلك القوة الواحدة فقط . فهذا لعمرى : منكر شنيع ! ولكن الإنسان قد تبين من حاله أن له قوى كثيرة : فيعمل بكل قوة عملا مخالفاً للعمل بالأخرى .

أعنى أن صاحب الغضب إذا استشاط : يختار أفعالا مخالفة لأفعاله : إذا كان ساكناً وديعاً .

وكذلك صاحب الشهوة الهائجة ، وصاحب النشوة الطروب : فإن من شأن هؤلاء أن يستخدموا العقل الشريف : فى تلك الأحوال ، ولا يستشيرونه . ولذلك تجد العاقل إذا تغيرت أحواله تلك : فصار من الغضب إلى الرضا ، ومن السكر إلى الإفاقة : تعجب من نفسه ، وقال : ليت شعرى كيف اخترت تلك الأفعال القبيحة ؟ ويلحقه الندم . وإنما ذلك : لأن القوة التى تهيج به : تدعوه إلى ارتكاب فعل : يظنه فى تلك الحال صالحاً له ، جميلا به : لتتم له حركة القوة الهائجة به ، فإذا سكن عنها ، وراجع عقله : رأى قبح ذلك الفعل وفساده .

وقوى الإنسان التى تدعوه إلى ضروب الشهوات ، ومحبة الكرامات كثيرة جداً ، فهو بحسب قواه الكثيرة : تكون أفعاله كثيرة .

فإذا تعود الإنسان أن تكون سيرته فاضلة ، ولم يقدم على شىء من أفعاله إلا بعد مطالعة العقل الصريح ، وبعد مراعاة الشريعة القويمة : كانت أفعاله كلها منتظمة غير مختلفة ، ولا خارجة عن سنن العدل ، أعنى المساواة التى قدمنا القول فيها .

ولهذا السبب قلنا : إن السعيد هو من اتفق له فى صباه : أن يأنس بالشريعة ، ويستسلم لها ، ويتعود جميع ما تأمره به : حتى إذا بلغ المبلغ الذى يمكنه به أن يعرف الأسباب والعلل : طالع الحكمة : فوجدها موافقة لما تقدمت عادته به ، فاستحكم رأيه ، وقويت بصيرته ، ونفذت عزيمته !

مسألة عويصة : ثانية

وههنا مسألة عويصة : أشد من الأولى ، وهو أن التفضل : شيء محمود جداً ، وليس يقع تحت العدالة ، لأن العدالة كما ذكرنا : مساواة . والتفضل : زيادة . وقد حكمنا أن العدالة تجمع الفضائل كلها ، ولا مزيد عليها ، بل يجب أن تكون الزيادة عليها مذمومة ، كما أن النقصان عنها مذموم ، ليكون شرف الوسط الذى تقدم وصفه فى سائر الأخلاق : حاصلا للعدالة .

فالجواب عنها : أن التفضل احتياط يقع من صاحبه فى العدالة : ليأمن به وقوع النقص فى شيء من شرائطها ، وليس الوسط فى كلا الطرفين : من الأخلاق ، على شريطة واحدة ، وذلك أن الزيادة فى باب السخاء : إذا لم تخرج إلى باب التبذير : أحسن من النقصان فيه ، وأشبه بالمحافظه على شرائطه ، فتصير كالاحتياط فيه ، والأخذ بالحزم فيه .

وأما العفة : فإن النقصان من الوسط فيها : أحسن من الزيادة عليه ، وأشبه بالمحافظة على شرائطه ، وأبلغ فى الاحتياط عليه ، وأخذ الحزم فيه ، ومع ذلك فليس يستعمل التفضل إلا حيث تستعمل العدالة .

وأعنى بذلك : أن من أعطى ماله من لا يستحق شيئاً منه ، وترك مواساة من يستحقه : لا يسمى متفضلا ، بل مضيعاً .

وإنما يكون متفضلا : إذا أعطى من يستحق كل ما يستحق ، ثم زاده تفضلا ، وهذه الزيادة ليست من الزيادة التى ذكرناها فى باب السخاء ، لأن تلك الزيادة : ذهاب إلى الطرف الذى يسمى تبذيراً وهو مذموم ، ويعرف ذلك من حده ، وهو بذل ما لا ينبغى ، كما لا ينبغى ، فى الوقت الذى لا ينبغى .

فإذاً التفضل : غير خارج عن شرط العدالة ، بل هو احتياط فيها ، ولذلك قيل : إن المتفضل أشرف من العادل .

فقد بان أن التفضل : ليس غير العدالة . بل هو العدالة مع الاحتياط فيها . وكأنه مبالغة ، لا يخرجها عن معناها . لأن هذه الهيئة النفسانية : ليست غير تلك الهيئة بل هى .

فأما الأطراف التى هى رذائل ، أعنى الزيادة والنقصان : التى سبق القول فيهما ، فهى كلها هيئات مذمومة : غير الهيئات المحمودة .

وحدود هذه الأشياء : هى التى تحصل لك معانيها ، ومشاركة بعضها لبعض ، ومباينة بعضها لبعض .

وأيضاً فإن الشريعة تأمر بالعدالة أمراً كلياً ، وليست تنحط إلى الجزئيات .

وأعنى بذلك : أن العدالة التى هى المساواة : تكون مرة فى باب الكم ، ومرة فى باب الكيف ، وفى سائر المقولات . وبيان ذلك : أن نسبة الماء إلى الهواء مثلا . ليست تكون بالكمية ، بل بالكيفية ، ولو كانت بالكمية : لوجب أن يكونا متساويين فى المساحة ولو كانا كذلك لتغالبا ، وأحال أحدهما الآخر إلى ذاته .

وكذلك النار ، والهواء : ولو أحالت هذه العناصر بعضها بعضاً : لفنى العالم فى أقرب مدة .

ولكن البارى تقدس اسمه : عدل بين هذه بالقوة فتقاومت ، فليس يغلب أحد الآخر بالكلية ، وإنما يحيل الجزء منها الجزء فى الأطراف . أعنى حيث تلتقى نهاياتها .

وأما كلياتها : فلا تقدر على كلياتها : لأن قواها متساوية ، متعادلة على غاية التسوية والتعادل .

وبهذا النوع من العدل قيل : بالعدل قامت السموات والأرض ، ولو رجح أحدهما على الآخر بزيادة يسير قوة : لأحال الزائد الناقص ، وقوى عليه . فبطل العالم ، فسبحان القائم بالقسط لا إله إلا هو !

الشريعة تأمر بالعدالة

ولما كانت الشريعة تأمر بالعدالة الكاملة : لم تأمر بالتفضل الكلى ، بل ندبت إليه ندباً : يستعمل فى الجزئيات : التى لا يمكن أن تعين عليها ، لأنها بلا نهاية ، وجزمت القول فى العدالة الكلية : لأنها محصورة ، يمكن أن تعين عليها .

وقد تبين أيضاً مما قدمنا : أن التفضيل إنما يكون فى العدالة التى تخص الإنسان فى نفسه .

أعنى تسوية المعاملة أولا : فيما بينه وبين غيره ، ثم الاستظهار فيه ، والاحتياط عليه : بما يكون تفضلا ، ولو كان حاكما بين قوم ، ولا نصيب له فى تلك الحكومة : لم يجز له التفضل ، ولم يسعه إلا العدل المحض ، والتسوية الصحيحة : بلا زيادة ولا نقصان ، وتبين أيضاً أن الهيئة التى تصدر عنها الأفعال العادلة : متى نسبت إلى صاحبها : سميت فضيلة ، وإذا نسبت إلى من يعامله بها : سميت عدالة ، وإذا اعتبرت بذاتها : سميت ملكة نفسانية .

فاستعمال المرء العاقل ، العدل على نفسه : أول ما يلزمه ويجب عليه .

وقد ذكرنا فيما تقدم : كيف يفعل ذلك ؟ وبينا كيف يعدل قواه الكثيرة إذا هاج به بعضها ، وأشرنا إلى أجناس هذه القوى الكثيرة ، وأن بعضها يكون بالشهوات المختلفة ، وبعضها بطلب الكرامات الكثيرة ، وأنها إذا تغالبت ، وتهايجت : حدث فى الإنسان باضطرابها أنواع الشر ، وجذبته كل واحدة منها إلى ما يوافقها . وهكذا سبيل كل مركب من كثرة : إذا لم يكن لها رئيس واحد : ينظمها ويوحدها .

وارسطوطاليس : يشبه من كان كذلك : بمن يجذب من جهات كثيرة : فينقطع بينها ، وينشق بحسب تلك الجهات وقواها .

وليس ينظم هذه الكثرة التي ركب الإنسان منها : إلا الرئيس الواحد : الموهوب له من الفطرة . أعني العقل الذي به تميزه من البهائم ، وهو خليفة الله عز وجل عنده . فإن هذه القوى كلها إذا ساسها العقل : انتظمت . وزال عنها سوء النظام الذي يحدث من الكثرة . وجميع ما ذكرنا من إصلاح الأخلاق : مبنى عليه . فإذا تم للإنسان ذلك . أعني أن يعدل على نفسه ، وأحرز هذه الفضيلة : فقد لزمه أن يعدل على أصدقائه ، وأهله ، وعشيرته ، ثم يستعمله في الاباعد ، وسائر الحيوان . وإذ قد صح ذلك وظهر ظهوراً حسياً : فقد ظهر بظهوره : أن شر الناس من جار على نفسه . ثم على أصدقائه وعشيرته ، ثم على كافة الناس والحيوان ، لأن العلم بأحد الضدين : هو العلم بالضد الآخر . فخير الناس : العادل ، وشرهم الجائر . كما تبين ذلك .

وقد ادعى قوم أن نظام أمر الموجودات كلها ، وصلاح أحوالها : معلق بالمحبة ، وقالوا : إن الإنسان إنما اضطر إلى اقتناء هذه الفضيلة . أعني الهيئة التي تصدر عنها العدالة عند تعاطي المعاملات : لما فاته شرف المحبة ، ولو كان المتعاملون أحباء : لتناصفوا ، ولم يقع بينهم خلاف ، وذلك أن الصديق يحب صديقه ، ويريد له ما يريد لنفسه ، ولا تتم الثقة والتعاضد ، والتوازر : إلا بين المتحابين .

وإذا تعاضدوا ، وجمعتهم المحبة : وصلوا إلى جميع المحبوبات ، ولم تتعذر عليهم المطالب ، وإن كانت صعبة شديدة .

وحينئذ ينشئون الآراء الصائبة ، وتتعاون العقول على استخراج الغوامض من التدابير القويمة ، ويتقوون على نيل الخيرات كلها بالتعاضد .

وهؤلاء القوم : إنما نظروا إلى فضيلة التأحد[1] : التي تحصل بين الكثرة . ولعمري أنها أشرف غايات أهل المدينة .

---

(١) المقصود بالتأحد هنا : بأن يكون الجميع كالشخص الواحد . وهي فضيلة : لا تعدلها فضيلة .

وذلك أنهم إذا تحابوا : تواصلوا ، وأراد كل واحد منهم لصاحبه مثل ما يريده لنفسه . فتصير القوى الكثيرة واحدة ، ولم يتعذر على أحد منهم رأى صحيح ، ولا عمل صواب ، ويكون مثلهم فى جميع ما يحاولونه مثل من يريد تحريك ثقل عظيم بنفسه ، فلا يطيق ذلك .

فإن استعان بقوة غيره : حركه .

ومدبر المدينة : إنما يقصد بجميع تدابيره : إيقاع المودات بين أهلها ، وإذا تم له هذا خاصة : فقد تمت له جميع الخيرات : التى تتعذر عليه وحده ، وعلى أفراد أهل مدينته . وحينئذ يغلب أقرانه ، ويعمر بلدانه ، ويعيش هو ورعيته : مغبوطين . ولكن هذا التأحد : المطلوب بهذه المحبة ، المرغوب فيها : لا يتم إلا بالآراء الصحيحة : التى يرجى الاتفاق من العقول السليمة عليها ، والاعتقادات القوية : التى لا تحصل إلا بالديانات : التى يقصد بها وجه الله عز وجل .

وأصناف المحبات كثيرة ، وإن كانت ترتقى كلها إلى وجه واحد . وسنقول فيها بمعونة الله فيما يتلو هذه المقالة إن شاء الله .

المقالة الخامسة

التعاون والاتحاد

قد سبق القول فى حاجة بعض الناس إلى بعض ، وتبين أن كل واحد منهم : يجد تمامه عند صاحبه ، وأن الضرورة داعية إلى استعانة بعضهم ببعض .

لأن الناس : مطبوعون على النقصانات ، ومضطرون إلى تماماتها . ولا سبيل لأفرادهم : والواحد . فالواحد منهم إلى تحصيل تمامه بنفسه ، كما شرحناه فيما مضى .

فالحاجة صادقة ، والضرورة داعية إلى حال تجمع وتآلف بين أشتات الأشخاص : ليصيروا بالاتفاق والائتلاف كالشخص الواحد : الذى تجمع أعضاؤه كلها على الفعل الواحد النافع له .

المحبة

وللمحبة أنواع وأسباب : تكون بعدد أنواعها .

فأحد أنواعها : ما ينعقد سريعاً وينحل سريعاً .

والثانى : ما ينعقد سريعاً ، وينحل بطيئاً .

والثالث : ما ينعقد بطيئاً ، وينحل سريعاً .

والرابع : ما ينعقد بطيئاً ، وينحل بطيئاً .

وإنما انقسمت إلى هذه الأنواع فقط : لأن مقاصد الناس فى مطالبهم ، وسيرهم : ثلاثة ، ويتركب بينها رابع : وهى اللذة ، والخير ، والمنافع ، والمتركب منها .

وإذا كانت هذه ، غايات الناس فى مقاصدهم : فلا محالة أنها أسباب المحبة : من عاون عليها ، وصار سبباً للوصول إليها : فقد أفلح .

فأما المحبة التى يكون سببها اللذة : فهى التى تنعقد سريعاً ، وتنحل سريعاً .

وذلك أن اللذة : سريعة التغير ، كما شرحنا أمرها فيما تقدم .

وأما المحبة التى سببها الخير : فهى التى تنعقد سريعاً ، وتنحل بطيئاً .

وأما المحبة التى سببها المنافع : فهى التى تنعقد بطيئاً ، وتنحل سريعاً .

وأما التى تتركب من هذه إذا كان فيها الخير : فإنها تنحل بطيئاً ، وتنعقد بطيئاً .

وهذه المحبات كلها : تحدث بين الناس خاصة : لأنها تكون بإرادة ، وروية ، وتكون فيها مجازاة ومكافأة .

فأما التى تكون بين الحيوانات غير الناطقة : فالأحرى بها أن تسمى إلفاً ، وتقع بين الأشكال منها خاصة .

وأما التى لا نفوس لها : من الأحجار وأمثالها : فليس يوجد فيها إلا الميل الطبيعى إلى مراكزها التى تخصها .

وقد يوجد أيضاً بينها منافرة ومشاكلة : بحسب أمزجتها الحادثة فيها من عناصرها الأولى ، وهذه الأمزجة كثيرة ، وإذا وقع منها شىء يتناسب نسبة تأليفية ، أو عددية ، أو مساحية : حدثت بينها ضروب من المشاكلة . وإذا كان أضداد هذه النسب : حدثت بينها منافرة ، وتحدث لها أشياء تسمى خواص ، وهى أفعال بديعة ، وهى التى تسمى أسرار الطبائع ، ولا سيما فى النسب التأليفية . فإنها أشرف النسب بعد نسبة المساواة ، ولها أضداد ، أعنى هذه النسب . وهى مبينة مشروحة : فى صناعة الارثماطيق . ثم فى صناعة التأليف .

وأما الأمزجة التى بحسب هذه النسب : فهى خفية عنا ، وعسرة المرام . وقد ادعى قوم الوصول إليها ، وليست تكون هذه الأفعال والخواص : التى تحدث بين الأمزجة ، من النسب المذكورة موجودة من العناصر أنفسها ، والكلام فيها خارج عن غرضنا . وإنما ذكرناها هنا لأنها تشبه المشاكلات ، والمنافرات : التى بين الحيوان فى الظاهر ، والنسبة التى تحدث بين الناس بالإرادة ، وهى التى نتكلم فيها ، وتقع فيها مكافأة ومجازاة .

الصداقة

الصداقة : نوع من المحبة ، إلا أنها أخص منها : وهى المودة بعينها . وليس يمكن أن تقع بين جماعة كثيرين : كما تقع المحبة .

وأما العشق : فهو إفراط فى المحبة ، وهو أخص من المودة ، وذلك أنه لا يمكن أن يقع إلا بين اثنين فقط ، ولا يقع فى النافع ، ولا فى المركب من النافع وغيره ، وإنما يقع لمحب اللذة بإفراط : ولمحب الخير بإفراط ، وأحدهما مذموم والآخر محمود .

فالصداقة بين الأحداث : ومن كان فى مثل طباعهم : إنما تحدث لأجل اللذة ، فهم يتصادقون سريعاً ، ويتقاطعون سريعاً ، وربما اتفق ذلك بينهم فى الزمان القليل : مراراً كثيرة ، وربما بقيت بقدر ثقتهم ببقاء اللذة ومعاودتها : حالا بعد حال ، فإذا انقطعت هذه الثقة بمعاودتها : انقطعت الصداقة بالوقت وفى الحال .

والصداقة من المشايخ ، ومن كان فى مثل طباعهم : إنما تقع لمكان المنفعة ، فهم يتصادقون بسببها . فإذا كانت المنافع مشتركة بينهم ، وهى فى الأكثر طويلة المدة : كانت الصداقة باقية . فحين تنقطع علاقة المنفعة بينهم ، وينقطع رجاؤهم من المنفعة المشتركة : تنقطع موداتهم . والصداقة بين الأخيار : تكون لأجل الخير ، وسببها هو الخير .

ولما كان الخير شيئاً غير متغير الذات : صارت مودات أصحابه باقية غير متغيرة .

وأيضاً لما كان الإنسان مركباً من طبائع متضادة : صار ميل كل واحد منها يخالف ميل الآخر ، فاللذة التى توافق إحداها : تخالف لذة الأخرى التى تضادها . فلا تخلص له لذة غير مشوبة بأذى .

ولما كان فيه أيضاً جوهر آخر بسيط إلهى : غير مخالط لشىء من الطبائع الأخرى : صارت له لذة غير مشابهة لشىء من تلك اللذات . وذلك أنها بسيطة أيضاً .

والمحبة التي سببها هذه اللذة : هي التي تفرط حتى تصير عشقاً تاماً خالصاً : شبيها بالوله . وهي المحبة الإلهية : الموصوفة التي يدعيها بعض المتألهين. وهي التي يقول فيها أرسطوطاليس حكاية عن ابرقليطس : أن الأشياء المختلفة : لا تتشاكل ، ولا يكون منها تأليف جيد ، وأما الأشياء المتشاكلة : وهي التي يسر بعضها ببعض ، ويشتاق بعضها إلى بعض ، فأقول عنها أن الجواهر البسيطة إذا تشاكلت ، واشتاق بعضها إلى بعض : تألفت . وإذا تألفت : صارت شيئاً واحداً لا غيرية بينها ، إذ الغيرية إنما تحدث من جهة الهيولى [1] .

وأما الأشياء ذوات الهيولى ، وهي الأجرام : فإنها وإن اشتاقت بنوع من الشوق إلى التألف : فإنها لا تتحدد ، ولا يمكن ذلك فيها . وذلك أنها تلتقي بنهاياتها وسطوحها : دون ذواتها ، وهذا الالتقاء سريع الانفصال ، إذ كان التأحد فيه ممتنعاً . وإنما تتأحد بنحو استطاعتها . أعني ملاقاة سطوحها . فإذاً الجوهر الإلهي الذي في الإنسان : إذا صفا من كدورته ، التي حصلت فيه من ملابسة الطبيعة ، ولم تجذبه أنواع الشهوات . وأصناف محبات الكرامات : اشتاق إلى شبيهه ، ورأى بعين عقله الخير الأول المحض : الذي لا تشوبه مادة : فأسرع إليه ، وحينئذ يفيض نور ذلك الخير الأول عليه : فيلتذ به لذة لا تشبهها لذة ، ويصير إلى معنى الاتحاد الذي وصفناه : استعمل الطبيعة البدنية ، أم لم يستعملها . إلا أنه بعد مفارقته الطبيعة بالكلية : أحق بهذه المرتبة العالية ، لأنه ليس يصفو الصفاء التام : إلا بعد مفارقته الحياة الدنيوية .

ومن فضائل هذه المحبة الإلهية : أنها لا تقبل النقصان ، ولا تقدح فيها السعاية ، ولا يعترض عليها الملك ، ولا تكون إلا بين الأخيار فقط .

وأما المحبات : التي تكون بسبب المنفعة واللذة : فقد تكون بين الأشرار ، وبين الأخيار والأشرار . إلا أنها تنقضي ، وتنحل : مع تقضي المنافع واللذائذ : لأنها عرضية ،

---

(١) الهيولى : المادة الأولى ، والنسبة إليه : هيولى ، وهيولانى (يونانية الأصل) وأراد المؤلف بغير هيولانية : أي ليست بالمادة الأولى : المدنية في الحيوان .

وكثيراً ما تحدث بالاجتماعات في المواضع الغريبة ، إلا أنها تزول بزوال المواضع : كالسفينة وما جرى مجراها .

والسبب في هذه المحبة : الأنس . وذلك أن الإنسان : آنس بالطبع ، وليس بوحشي ، ولا نفور ، ومنه اشتق اسم الإنسان في اللغة العربية ، وقد تبين ذلك في صناعة النحو . وليس كما قال الشاعر (سميت إنساناً لأنك ناسي) فإن هذا الشاعر : ظن أن الإنسان : مشتق من النسيان ، وهو غلط منه .

وينبغي أن يعلم أن هذا الأنس الطبيعي في الإنسان : هو الذي ينبغي أن نحرص عليه ، ونكتسبه مع أبناء جنسنا ، حتى لا يفوتنا بجهدنا واستطاعتنا ، فإنه مبدأ المحبات كلها !

الشريعة تدعو إلى الأنس والمحبة

وإنما وضع للناس بالشريعة وبالعادة الجميلة : اتخاذ الدعوات ، والاجتماع في المآدب : ليحصل لهم هذا الأنس .

والشريعة إنما أوجبت على الناس أن يجتمعوا في مساجدهم : كل يوم خمس مرات ، وفضلت صلاة الجماعة على صلاة الآحاد : ليحصل لهم هذا الأنس الطبيعي : الذي هو فيهم بالقوة حتى يخرج إلى الفعل ، ثم يتأكد بالاعتقادات الصحيحة : التي تجمعهم . وهذا الاجتماع في كل يوم : ليس يتعذر على أهل كل محلة وسكة .

والدليل على أن غرض صاحب الشريعة ما ذكرناه : أنه أوجب على أهل المدينة بأسرهم : أن يجتمعوا في كل أسبوع يوماً بعينه ، في مسجد يسعهم : ليجتمع أيضاً شمل أهل المحال ، والسكك في كل أسبوع ، كما اجتمع شمل أهل الدور والمنازل في كل يوم .

ثم أوجب أيضاً أن يجتمع أهل المدينة مع أهل القرى ، والرساتيق[1] المتقاربين : في كل سنة مرتين في مصلى : بارزين مصحرين[2] : ليسعهم المكان ويتجدد الأنس بين كافتهم ، وتشملهم المحبة الناظمة لهم .

ثم أوجب بعد ذلك : أن يجتمعوا في العمر كله مرة واحدة . في الموضع المقدس بمكة ، ولم يعين من العمر وقت مخصوص : ليتسع لهم الزمان ، وليجتمع أهل المدن المتباعدة : كما اجتمع أهل المدينة الواحدة ، ويصير حالهم في الأنس والمحبة ، وشمول الخير والسعادة : كحال المجتمعين في كل سنة ، وفي كل أسبوع ، وفي كل يوم : فيجتمعوا بذلك إلى الأنس الطبيعي ، وإلى الخيرات المشتركة ، وتتجدد بينهم محبة الشريعة ، وليكبروا الله على ما هداهم ، ويغتبطوا بالدين القويم القيم : الذي ألفهم على تقوى الله وطاعته !

الخليفة : يحرس الدّين

والقائم بحفظ هذه السنة وغيرها من وظائف الشرع ، حتى لا تزول عن أوضاعها : هو الإمام . وصناعته هي صناعة الملك .

والأوائل لا يسمون بالملك : إلا من حرس الدين ، وقام بحفظ مراتبه وأوامره وزواجره .

وأما من أعرض عن ذلك : فيسمونه متغلباً ، ولا يؤهلونه لاسم الملك ، وذلك أن الدين : هو وضع إلهي يسوق الناس باختيارهم إلى السعادة القصوى ، والملك هو حارس هذا الوضع الإلهي ، حافظ على الناس ما أخذوا به .

---

(١) الرساتيق : جمع رستاق . وهو القرية الصغيرة .

(٢) مصحرين : أي في الصحراء . وهي سنة في صلاة العيدين .

وقد قال حكيم الفرس وملكهم أزدشير : إن الدين والملك : أخوان توأمان : لا يتم أحدهما إلا بالآخر .

فالدين أس ، والملك حارس . وكل مالا أس له فمهدوم ، وكل مالا حارس له فضائع .

ولذلك حكمنا على الحارس الذى نصب للدين : أن يتيقظ فى موضعه ، ويحكم صناعته ، ولا يباشر أمره بالهوينا ، ولا يشتغل بلذة تخصه ، ولا يطلب الكرامة والغلبة إلا من وجهها . فإنه متى أغفل شيئاً من حدوده : دخل عليه من هنالك الخلل والوهن .

وحينئذ تتبدل أوضاع الدين ، ويجد الناس رخصة فى شهواتهم ، ويكثر من يساعدهم على ذلك : فتنقلب هيئة السعادة إلى ضدها : ويحدث بينهم الاختلاف والتباغض ، فأدام ذلك إلى الشتات والفرقة . وبطل الغرض الشريف ، وانتقض النظام الذى طلبه صاحب الشرع : بالأوضاع الإلهية ، فاحتيج حينئذ إلى تجديد الأمر ، واستئناف التدبير ، وطلب الإمام الحق ، والملك العدل .

ولنعود إلى ذكر أجناس المحبات وأسبابها فنقول :

أُجناس المحّبات وأُسبابها

إن هذه الأسباب كلها ما خلا المحبة الإلهية : إذا كانت مشتركة بين المتحابين ، وكانت واحدة بعينها : جاز فى الشيئين أن ينعقدا معا ، وينحلا معاً . وجاز أيضاً أن يبقى أحدهما وينحل الآخر .

مثال ذلك : أن اللذات المشتركة بين الرجل والمرأة : هى سبب المحبة بينهما : فقد يجوز أن تجتمع المحبات لأن السبب واحد : وهى اللذة .

وقد يجوز أن تنقطع إحداهما ، وتبقى الأخرى : وذلك أن اللذة تتغير ولا تكاد تثبت : كما تقدم وصفها . فقد يجوز أن يتغير سبب إحدى المحبتين ، ويثبت الآخر .

وأيضاً فإن بين الرجل وبين زوجته : خيرات مشتركة ، ومنافع مختلطة ، وهما يتعاونان عليها : أعنى الخيرات الخارجة عنها . وهى الأسباب التى تعمر بها المنازل .

فالمرأة تنتظر من زوجها تلك الخيرات : لأنه هو الذى يكتسبها ويحضرها .

وأما الرجل فإنه ينتظر من زوجته : ضبط تلك الخيرات ، لأنها هى التى تحفظها وتدبرها : لتثمر ولا تضيع . فمتى قصر أحدهما اختلفت المحبة ، وحدثت الشكايات ، ولا تزال كذلك إلى أن تنقطع ، أو تبقى مع الشكايات والملامة .

وكذلك حال المنفعة المشتركة بين الناس : إذا كانت واحدة بعينها .

وأما المحبات المختلفة التى أسبابها مختلفة : فهى أولى بسرعة التحلل .

ومثال ذلك : أن تكون محبة أحد المتحابين : لأجل المنفعة ، ومحبة الآخر : لأجل اللذة ، كما يعرض ذلك للمعاشرين ، على أن أحدهما مغن ، والآخر مستمع . فإن المغنى منهما يحب المستمع ، لأجل المنفعة . والمستمع منهما يحب المغنى : لأجل اللذة .

وكما يعرض أيضاً بين العاشق والمعشوق : اللذين أحدهما يلتذ بالنظر ، والآخر ينتظر المنفعة . وهذا الصنف من المحبة : يعرض فيه أبداً التشكى والتظلم . وذلك أن طالب اللذة : يتعجل مطلوبه . وطالب المنفعة : يتأخر عنه . ولا يكاد يعتدل الأمر بينهما .

لذلك ترى العاشق : يشكو معشوقه ، ويتظلم منه . وهو بالحقيقة ظالم ، ينبغى أن يشتكى : لأنه يتعجل لذته بالنظر ، ولا يرى المكافأة بما يستحق صاحبه .

والمحبة اللوامة : كثيرة الأنواع ، إلا أن الأصل فيها ما ذكرت .

ويوشك أن تكون المحبة بين الرئيس والمرؤوس ، والغنى والفقير : تعرض لها الملامة والتوبيخ : لأجل اختلاف الأسباب . ولأن كل واحد ينتظر من المكافأة عند الآخر ما لا يجده عنده : فيقع فساد فى النيات بينهما . ثم استبطاء . ثم ملامات .

ويزيل ذلك : طلب العدالة ، ورضا كل واحد بما يستحقه من الآخر ، وبذل كل واحد للآخر العدل المبسوط بينهما . والمماليك خاصة : لا يرضيهم من مواليهم إلا الزيادة الكثيرة فى الاستحقاق . وكذلك الموالى : يستبطئون العبيد : فى الخدمة ، والشفقة ، والنصيحة . وفى جميع ذلك يقع اللوم وفساد الضمير .

فهذه المحبة اللوامة : لا يكاد يخلو الإنسان منها إلا على شريطة العدل ، وطلب الوسط : من الاستحقاق والرضا به ، وهو صعب .

محبة الأخيار

وأما محبة الأخيار بعضهم بعضاً : فإنها تكون لا للذة خارجة ، ولا لمنفعة : بل للمناسبة الجوهرية بينهما . وهى قصد الخير ، والتماس الفضيلة . فإذا أحب أحدهم الآخر لهذه المناسبة : لم تكن بينهم مخالفة ولا منازعة ، ونصح بعضهم بعضاً : وتلاقوا بالعدالة والتساوى فى إرادة الخير ، وهذا التساوى فى النصيحة وإرادة الخير : هو الذى يوحد كثرتهم .

ولهذا حد الصديق : بأنه آخر : هو أنت ، إلا أنه غيرك بالشخص ، ولهذا صار عزيز الوجود ، ولم يوثق بصداقة الأحداث والعوام ، ومن ليس بحكيم . لأن هؤلاء يحبون ويصادقون : لأجل اللذة والمنفعة ، ولا يعرفون الخير بالحقيقة ، وأغراضهم غير صحيحة .

وأما السلاطين : فإنهم يظهرون الصداقة : على أنهم متفضلون ومحسنون إلى من يصادقهم ، فلا يدخلون تحت الحد الذى ذكرناه ، وفى صداقتهم : زيادة ونقصان ، والمساواة عزيزة الوجود عندهم .

وكذلك محبة الوالد للولد ، والولد للوالد : فإن أنواع هذه المحبة مختلفة ، وأسبابها أيضاً مختلفة ، كما قلنا ، إلا أن محبة الوالد للولد ، والولد للوالد ، وإن كان بينهما اختلاف ما من وجه : فإن بينهما اتفاقاً ذاتياً . وأعنى بالذاتى ههنا : أن الوالد يرى فى ولده أنه هو هو ، وأنه نسخ صورته التى تخصه من الإنسانية فى شخص ولده : نسخاً طبيعياً ، ونقل ذاته إلى ذاته نقلا حقيقياً ، وحق له أن يرى ذلك : لأن التدبير الإلهى بالسياسة الطبيعية التى هى سياسته عز وجل : هو الذى عاون الإنسان على إنشاء الولد ، وجعله السبب الثانى فى إيجاده ، ونقل صورته الإنسانية إليه .

ولذلك يحب الوالد لولده جميع ما يحبه لنفسه ، ويسعى فى تأديبه وتكميله : بكل مافاته فى نفسه طول عمره .

ولا يشق عليه أن يقال له : ولدك أفضل منك . لأنه يرى أنه هو هو .

وكما أن الإنسان إذا تزايد فى نفسه حالا فحالا ، وترقى فى الفضيلة درجة فدرجة : لا يشق عليه أن يقال له : إنك الآن أفضل مما كنت ، بل يسره ذلك ، كذلك تكون حاله إذا قيل له فى ولده مثل ذلك .

ثم تفضل أيضاً محبة الوالد على محبة الولد : بأنه الفاعل له ، وبأنه يعرفه منذ أول تكوينه ، ويستبشر به وهو جنين ، ثم تزداد محبته له مع التربية والنشأة ، ويتأكد سروره به ، وتأميله له .

ويحدث له اليقين بأنه باق به صورة ، وإن فنى بجسمه مادة . وهذه المعانى الجليلة عند أهل العلم : تتراءى للعوام كأنها من وراء ستر .

وأما محبة الولد للوالد : فإنها تنقص عن هذه المرتبة : بأن الولد مفعول ، وبأنه لا يعرف ذاته ، ولا فاعل ذاته : إلا بعد زمان طويل ، وبعد أن يستثبت أباه حساً ، وينتفع به دهراً . ثم يعقل بعد ذلك أمره بالصحة ، وعلى مقدار عقله واستبصاره فى الأمور : يكون تعظيمه لوالديه ، ومحبته لهما ، ولهذه العلة وصى الله عز وجل الولد بوالده ، ولم يوص الوالد بولده .

وأما محبة الإخوة بعضهم لبعض : فلأن سبب تكوينهم ونشوءهم واحد بعينه .

نسبة الملك إلى رعيته

ويجب أن تكون نسبة الملك إلى رعيته : نسبة أبوية ، ونسبة رعيته إليه : نسبة بنوية . ونسبة الرعية بعضهم إلى بعض : نسبة أخوية ، حتى تكون السياسات محفوظة على شرائطها الصحيحة .

وذلك أن مراعاة الملك لرعيته : هى مراعاة الأب لأولاده ، ومعاملته إياهم تلك المعاملة .

وقد كنا أشرنا إلى ذلك ، وسنزيده بياناً إذا صرنا إلى ذكر سياسة الملك فى موضع آخر .

وعنايته برعيته : يجب أن تكون مثل عناية الأب بأولاده : شفقة وتحنناً وتعهداً وتعطفاً : خلافة لصاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم ، بل لمشرع الشريعة تعالى ذكره : فى الرأفة والرحمة ، وطلب المصالح لهم ، ودفع المكاره عنهم ، وحفظ النظام فيهم ، وبالجملة فى كل ما يجلب الخير ويمنع الشر .

فإنه عند ذلك تحبه رعيته محبة الأولاد للأب الشفيق ، وتحدث بينهما تلك النسبة ، وإنما تختلف هذه المحبات بالتفاضل الذى يكون بعظم المنافع .

فيجب أن يكرم الأب : كرامة أبوية ويكرم السلطان : كرامة سلطانية . ويكرم الناس بعضهم بعضاً : كرامة أخوية . ولكل مرتبة من هذه استئهال خاص بها ، واستحقاق واجب لها .

فإذا لم يحفظ بالعدالة : زاد ونقص ، وعرض لها الفساد ، وانتقلت الرياسات ، وانعكست الأمور . فيعترض لرياسة الملك أن تنتقل إلى رياسة التغلب ، ويتبع ذلك أن تنتقل محبة الرعية إلى البغض له ، ويعرض لرياسات من دونه مثل ذلك .

فتصير محبة الأخيار إلى تباغض الأشرار ، وتعود الألفة نفاراً ، والتوادد نفاقاً . ويطلب كل واحد لنفسه ما يظنه خيراً له وإن أضر بغيره ، وتبطل الصداقات ، والخير المشترك بين الناس . ويؤول الأمر إلى الهرج الذى هو ضد النظام : الذى رتبه الله لخلقه ، ورسمه بالشريعة ، وأوجبه بالحكمة البالغة .

المحبة التي لا تطرأ عليها الآفات

وأما المحبة التى لا تشوبها الانفعالات ، ولا تطرأ عليها الآفات : وهى محبة العبد لخالقه عز وجل فإنها إنما تخلص العالم الربانى وحده خاصة ، ولا سبيل لغيره إليها إلا بالدعوى الكاذبة .

وكيف يجد الإنسان السبيل إلى محبة من لا يعرفه ، ولا يعرف ضروب أنعامه الدارة عليه ، ووجوب إحسانه المتصلة به : فى بدنه ونفسه . اللهم إلا أن يتصور فى نفسه صنما ، ويظنه الخالق عز وجل : فيحبه ويعبده . فإن أكثر الناس كما قال تعالى ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ .

ولعمرى أن العامة تدعى المعرفة والمحبة ، وهم يتصورون شخصاً وشبحاً : فتكون عبادتهم له دون الله ، وهذا هو الضلال البعيد .

ومدعوا هذه المحبة : كثيرون جداً ، والمحققون منهم قليلون جداً . بل هم أقل من القليل ، وهذه المحبة لا محالة : تتصل بها الطاعة والتعظيم ، ويتلوها ويقرب منها : محبة الوالدين ، وإكرامهما وطاعتهما . وليس يرتقى إلى مرتبتهما شىء من المحبات الأخر : إلا محبة الحكماء عند تلامذتهم : فإنها متوسطة بين المحبة الأولى ، والمحبة الثانية .

وذلك أن المحبة الأولى : لا يبلغها شىء من المحبات . كما أن أسبابها لا يبلغها شىء من الأسباب ، والنعم التى تأتى من قبلها : لا يشبهها شىء من النعم .

وأما المحبة الثانية : فهى تتلوها : لأن سببها هو الثانى فى وجودنا الحسى . أعنى أبداننا وتكويننا .

وأما محبة الحكماء : فهى أشرف وأكرم ، من محبة الوالدين . لأجل أن تربيتهم هى لنفوسنا ، وهم الأسباب فى وجودنا الحقيق ، وبهم وصولنا إلى السعادة التامة : التى ننلنا بهـا اللقاء الأبدى ، والنعيم السرمدى : فى جوار رب العالمين .

فبحسب فضل إنعامهم علينا ، وبقدر فضل النفوس على الأبدان : تجب حقوقهم ، وتلزم طاعتهم ومحبتهم . وليس يبلغ أحد جزاء ولا مكافأة الأول . ولا ما يستأهله الثانى : أعنى الوالدين ، وإن هو اجتهد وبالغ : فلا يؤدى حقوقهما أبداً ، وإن خدم بأقصى طاقته وغاية وسعه .

وأما محبة طالب الحكمة للحكيم ، والتلميذ الصالح للمعلم الخير : فإنهـا من جنس المحبة الأولى ، وفى طريقها .

وذلك لأجل الخير العظيم : الذى يشرف عليه ، ويصل إليه ، وللرجاء الكريم الذى لا يتحقق إلا بعنايته ، ولا يتم إلا بمطالعته . ولأنه والد روحانى ، ورب بشرى ، وإحسانه إحسان إلهى . ذلك أنه يربيه بالفضيلة التامة ، ويغذوه بالحكمة البالغة ، ويسوقه إلى الحياة الأبدية والنعيم السرمدى ! وإذا كان هو السبب فى كل وجودنا العقلى ، وهو المربى لنفوسنا الروحانية : فبحسب فضل النفس على البدن : يجب أن يفضل المنعم بهذا على المنعم بذاك ، وبقدر فضلهـا على البدن : يكون فضل التربية على التربية ، فيحق أن يحب التلميذ معلم الحكمة : محبة خالصة شبيهة بالمحبة الأولى . ولذلك قلنا : إن هذه المحبة من جنس تلك المحبة الأولى ، والطاعة له من جنس تلك الطاعة ، وكذلك تعظيمه له ، وإجلاله إياه ، ثم لما كان سبب هاتين النعمتين : ومعرضنا لها ، وسائقنا إليهما وإلى جميع النعم : هو السبب الأول الذى هو سبب الخيرات كلها : قربت منا ، أو بعدت عنا ، عرفناها أو لم نعرفها . وجب أن تكون محبتنا له فى أعلى مراتب المحبات ، وكذلك طاعتنا له ، وتمجيدنا إياه .

ويجب على من بلغ هذه المنزلة من الأخلاق : أن يعرف مراتب المحبات ، وما يستحقه كل واحد من صاحبه : حتى لا يبذل كرامة الوالد للرئيس الأجنبى ، ولا كرامة الصديق للسلطان ، ولا كرامة الولد للعشير ، ولا كرامة الأب للابن ، فإن لكل واحد من هؤلاء وأشباههم : صنفاً من الكرامة ، وحقاً من الجزاء : ليس للآخر ، ومتى خلط فيه : اضطرب وفسد ، وحدثت الملامات . وإذا وفى كل واحد منهم حقه وقسطه : من المحبة والخدمة ، والنصيحة : كان عادلا ، وأوجبت له محبته وعدالته فيها : محبته لصاحبه ومعامله .

وكذلك يجب أن يجرى الأمر فى مؤانسة الأصحاب ، والخلطاء والمعاشرين : من توفية حقوقهم ، وإعطائهم ما هو خاص بهم .

ومن غش المحبة والصداقة : كان أسوأ حالا ممن غش الدرهم والدينار .

فإن الحكيم ذكر أن المحبة المغشوشة : تنحل سريعاً ، وتفسد وشيكا ، كما أن الدرهم والدينار : إذا كانا مغشوشين : فسدا سريعاً ، وهذا واجب فى جميع أنواع المحبات .

ولذلك يتعاطى العاقل أبداً نمطاً واحداً ، ويلزم مذهباً واحداً : فى إرادة الخير ، ويفعل جميع ما يفعله من أجل ذاته ، ويرى خيره عند غيره : كما يراه عند نفسه .

وأما صديقه فقد قلنا : إنه هو هو إلا أنه غير بالشخص ، أما سائر مخالطيه ومعارفه : فإنه يسلك بهم مسلك أصدقائه ، كأنه يجتهد فى أن يبلغ بهم وفيهم : منازل الأصدقاء بالحقيقة ، وإن كان لا يمكن ذلك فى جميعهم .

فهذه سيرة الخير : فى نفسه ، وفى رؤسائه ، وأهله وعشيرته ، وأصدقائه ، وسلطانه .

الشرير

وأما الشرير : فإنه يهرب من هذه السيرة ، وينفر منها : لرداءة الهيئة التى حصلت له ، ولمحبة البطالة والتكاسل عن معرفة الخير : والتمييز بينه وبين الشر ، وبين ما هو مظنون عنده خيراً : وليس بخير .

ومن كان على هذه الحالة من الشر، ورداءة الهيئة : كانت أفعاله كلها رديئة .

ومن كانت ذاته رديئة : هرب من ذاته : لأجل أن الرداءة مهروب منها ، واضطر إلى صحبة قوم يناسبونه ، ليفنى عمره معهم ، ويشتغل بهم عن ذاته ، وما يجده فيها من الاضطراب والقلق .

ذلك أن هؤلاء الأشرار : إذا خلوا بأنفسهم : تذكروا أفعالهم الرديئة ، وهاجت بهم القوى المتضادة : التى تدعوهم إلى ارتكاب الشرور المتضادة ، فيألمون من ذواتهم ، وتتشاغب نفوسهم كل الشغب ، وتجذبهم القوى التى فيهم : وهى التى لم يرضوها بالأدب الحقيق : إلى جهات مختلفة من اللذات الرديئة ، وطلب الكرامات التى لا يستحقونها ، والشهوات الرديئة التى تهلكهم سريعاً .

فإذا جذبتهم هذه القوى إلى جهات مختلفة : أحدثت فيهم آلاما كثيرة ، لأنه لا يمكن أن يفرح ويحزن معاً ، ولا يرضى ويسخط فى حال واحدة ، ولا يستطيع أن يؤلف بين الأضداد ، حتى تجتمع له ، فهو من شقائه يهرب من ذاته : لأنها رديئة فاسدة متألمة : كثيرة الشغب عليه ، ويلتمس لعشرته ومخالطة من هو مثله أو أسوأ حالا منه : فيجد للوقت راحة به ، وسكوناً إليه : لأجل المشاكلة ، ثم يعود بعد قليل وبالا عليه ، وزيادة فى خباله وفساده : فيألم به ، ويهرب منه . فليس له محب ، ولا ذاته ، ولا له نصيح ، ولا نفسه . وليس يتحصل إلا على الندامة ، ولا يرجع إلا إلى الشقوة !

الخيّر الفاضل

وأما الرجل الخير الفاضل : فإن سيرته جيدة محبوبة . فهو يحب ذاته وأفعاله ، ويسر بنفسه ، ويسر به أيضاً غيره ، ويختار كل إنسان مواصلته ومصادقته ، فهو صديق نفسه ، والناس أصدقاؤه ، وليس يضاده إلا الشرير فقط ، ويعرض لمن هذه سيرته : أن يحسن

إلى غيره : بقصد وبغير قصد . وذلك أن أفعاله لذيذة محبوبة ، واللذيذ المحبوب : مختار ، فيكثر المقبلون عليه ، والمحتفلون به ، والآخذون عنه ، وهذا هو الإحسان الذاتى : الذى يبقى ، ولا ينقطع ، ويتزايد على الأيام ولا ينتقص .

وأما الإحسان العرضى : الذى ليس بخلق ، ولا هو سيرة لصاحبه : فإنه ينقطع ويلحق فيه اللوم ، والمحبة التى تعرض منه : تلحق بالمحبات اللوامة ، ولذلك يوصى صاحبه بتربيته : فيقال له : تربية الصنعة أصعب من ابتدائها .

والمحبة التى تحدث بين المحسن والمحسن إليه : يكون فيها زيادة ونقصان ، أعنى أن محبة المحسن للمحسن إليه : أشد من محبة المحسن إليه للمحسن .

واستدل أرسطوطاليس على ذلك : بأن المقرض ، وصانع المعروف : يهتم كل واحد منهما بمن أقرضه ، واصطنع المعروف عنده ، ويتعاهدانهما ، ويحبان سلامتهما .

أما المقرض فربما أحب سلامة المقترض : لمكان الأخذ ، لا لمكان المحبة ، أعنى أنه يدعو له بالسلامة والبقاء ، وسبوغ النعمة : ليصل إلى حقه .

وأما المقترض : فليس يعنى كبير عناية بالمقرض ، ولا يدعو له بهذه الدعوات .

وأما مصطنع المعروف : فإنه بالحق الواجب : يود الذى اصطنع إليه معروفه ، وإن لم ينتظر منه منفعة .

ذلك أن كل صانع فعل جيد محمود : يحب مصنوعه ، فإذا كان مصنوعه مستقيما جيداً : وجب أن يكون محبوباً فى الغاية ، فقد تبين أن محبة المحسن أشد من محبة المحسن إليه .

وأما المحسن إليه : فشهوته للإحسان أشد وأزيد من شهوة المحسن .

وأيضاً فإن المحبة المكتسبة بالإحسان ، المرباة على طول الزمان : تجرى مجرى القنيات التى يتعب بتحصيلها : فإن ما يكتسب منها على سبيل التعب والنصب : تكون المحبة له أشد والضن به أكثر .

ومن وصل إلى المال بغير تعب : لم يكترث به . ولم يشح عليه ، وبذله فى غير موضعه ، كما يفعل الوراث ، ومن يجرى مجراهم .

وأما من وصل إليه بتعب ، وسافر فى طلبه ، وشقى بجمعه : فإنه لا محالة يكون شديد الضن به ، والمحبة له .

ولهذه العلة صارت الأم : أكثر محبة للولد من الأب ، ويعرض لها من الحنين والوله : أضعاف ما يعرض للأب ، وبهذا النوع من المحبة : يحب الشاعر شعره ، ويعجب به : أكثر من إعجاب غيره ، وكل فاعل فعل يتعب به : فهو يحب فعله ، وأيضاً فإن المنفعل لا يتعب كتعب الفاعل . والآخذ منفعل ، والمعطى فاعل ، فمن هذه الوجوه يتبين أن مصطنع المعروف : يحب من أحسن إليه حباً شديداً .

ومن الناس : من يصطنع المعروف لأجل الخير نفسه ، ومنهم من يصطنعه لأجل الذكر الجميل ، ومنهم من يصطنعه رياء فقط .

ومن البين أن أعلاه مرتبة : من صنعه لذاته . أعنى لذات الخير .

وصاحب هذه الرتبة : لا يعرف الذكر الجميل ، والثناء الباقى ، ومحبة من لم يصطنع المعروف عنده ، وإن لم يقصد ذلك الفعل ولا بالنية .

ولما حكمنا فيما تقدم : حكماً مقبولا لا يرده أحد : وهو أن كل إنسان يحب نفسه ، وكانت هذه المحبة لا محالة : تنقسم بالأقسام الثلاثة التى ذكرناها : أعنى اللذة ، والمنافع والخير : وجب من ذلك أن لا يوجد من لا يميز بين هذه الأقسام : حتى يعرف الأفضل فالأفضل منها ، فلا يدرى كيف يحسن إلى نفسه : التى هى محبوبته ، فيقع فى ضروب من الخطإ : لجهله بالخير الحقيقى .

ولذلك صار بعض الناس يختار لنفسه سيرة اللذة ، وبعضهم سيرة الكرامة والمنافع : لأنهم لا يعرفون ما هو أفضل منها .

وأما من عرف سيرة الخير وعلو مرتبته : فهو لا محالة يختار لنفسه أفضل السير ، وأكرم الخيرات : فلا يؤثر اللذات البهيمية ، ولا اللذات الخارجة عن نفسه ، فإنها عرضية كلها ، ومستحيلة ومنحلة : لكنه يختار لها أتم الخيرات ، وأعلاها ، وأعظمها ، وهو الخير الذى لها بالذات ، أعنى الذى ليس بخارج عنها ، وهو الذى ينسب إلى جزئه الإلهى .

ومن سار بهذه السيرة واختارها لنفسه : فقد أحسن إليها ، وأنزلها فى الشرف الأعلى ، وأهلها لقبول الفيض الإلهى ، واللذة الحقيقية : التى لا تفارقه أبداً ، وإذا كان بهذه الحال : فهو لا محالة يفعل سائر الخيرات الأخر ، وينفع غيره ببذل الأموال ، والسماحة بجميع ما يتشاح الناس عليه . ويخص أصدقاءه من ذلك ، بكل ما يضيق عنه ذرع أصحاب السير الباقية ، فيصير معظماً عند كل واحد : ولا سيما عند صديقه .

وقد بينا فيما تقدم : أن الإنسان مدنى بالطبع ، وشرحنا معنى المدنى .

فإذاً بالواجب يكون تمام سعادته الإنسانية عند أصدقائه ، ومن كان تمامه عند غيره : فمن المحال أن يصل مع الوحدة والتفرد إلى سعادته التامة .

الأصدقاء

فالسعيد إذاً : من اكتسب الأصدقاء ، واجتهد فى بذل الخيرات لهم : ليكتسب بهم مالا يقدر أن يكتسبه لذاته ، فيلتذ بهم أيام حياته ، ويلتذون أيضاً به .

وقد شرحنا حال هذه اللذة ، وأنها باقية إلهية : غير منحلة ، ولا متغيرة ، وهؤلاء فى جملة الناس قليلون جداً .

وأما أصحاب اللذات البهيمية والنافع فيها : فكثيرون جداً . وقد يكتفى من هؤلاء بالقليل : كالأبازير[1] فى الطعام ، وكالملح خاصة .

---

(١) الأبازير : جمع بزر . وهى التوابل التى توضع مع الطعام : لتطييب نكهته .

وأما الصديق الأول الذى ذكرنا وصفه : فلا يمكن أن يكون كثيراً لعزته ، ولأنه محبوب بإفراط ، وإفراط المحبة : لا يصح ولا يتم إلا لواحد .

وأما حسن العشرة ، وكرم اللقاء ، والسعى لكل أحد بسيرة الصديق الحقيق : فمبذول لأجل طلب الفضيلة ، ولأنا قد قلنا فيما تقدم : إن الرجل الخير الفاضل : يسلك فى عشرة معارفه : مسلك الصديق ، وإن لم تتم الصداقة الحقيقية فيهم .

وأرسطوطاليس يقول : إن كل واحد : محتاج إلى الصديق : عند حسن الحال ، وعند سوء الحال .

فعند سوء الحال : يحتاج إلى معونة الأصدقاء ، وعند حسن الحال : يحتاج إلى المؤانسة ، ، وإلى من يحسن إليه .

ولعمرى أن الملك العظيم : يحتاج إلى من يصطنعه ، ويضع إحسانه عنده . كما أن الفقير من الناس : يحتاج إلى صديق يصطنعه ، ويضع عنده المعروف .

قال : ومن أجل فضيلة الصداقة : يشارك الناس بعضهم بعضاً ، ويتعاشرون عشرة جميلة ؛ ويجتمعون فى الرياضات ، والصيد ، والدعوات .

وأما سقراطيس فإنه قال بهذه الألفاظ : (إنى لأكثر التعجب ممن يعلم أولاده أخبار الملوك ، ووقائع بعضهم ببعض ، وذكر الحروب والضغائن ، ومن انتقم أو وثب على صاحبه ، ولا يخطر ببالهم أمر المودة ، وأحاديث الألفة ، وما يحصل من الخيرات العامة لجميع الناس : بالمحبة والأنس ، وأنه لا يستطيع أحد من الناس أن يعيش بغير المودة : وإن مالت إليه الدنيا بجميع رغائبها ، فإن ظن أحد أن أمر المودة صغير . فالصغير من ظن ذلك ، وإن قدر أنه موجود ، ويسير الخطب يدرك بالهوينا : فما أصعبه ، وما أعسر وجود صداقة : يوثق بها عند البلوى) .

ثم قال : (لكنى أعتقد وأقول : إن قدر المودة وخطرها عندى : أعظم من جميع ذهب كنوز قارون ، ومن ذخائر الملوك ، ومن جميع ما يتنافس فيه أهل الأرض من

الجواهر ، وما تحويه الدنيا : براً وبحراً ، وما يتقلبون فيه من سائر الأمتعة والأثاث ، ولا يعدل جميع ذلك ما اخترته لنفسى : من فضيلة المودة . وذلك أن جميع ما أحصيته لا ينفع صاحبه : إذا حلت به لوعة مصيبة فى صديقه .

وأفهم من الصديق ههنا أنه آخر : هو أنت ، سواء كان أخاً من نسب ، أو غريباً ، أو ولداً ، أو والداً ، ولا يقوم له جميع ما فى الأرض مقام صديق : يثق به فى مهم يساعده عليه سعادة عاجلة أو آجلة تتم له ، فطوبى لمن أوتى هذه النعمة العظيمة ، وهو خلو من السلطان ، وأعظم طوبى لمن أوتيه فى سلطان . ذلك أن من باشر أمور الرعية ، وأراد أن يعرف أحوالهم ، وينظر فى أمورهم حق النظر : لن يكفيه أذنان ، ولا عينان ، ولا قلب واحد ، فإن وجد إخواناً ذوى ثقة : وجد بهم عيوناً ، وآذاناً ، وقلوباً : كأنها بأجمعها له : فقربت عليه أطرافه ، واطلع من أدنى أمره على أقصاه ، ورأى الغائب بصورة الشاهد ، فأنى توجد هذه الفضيلة إلا عند الصديق ؟ وكيف يطمع فيها عند غير الرفيق الشفيق !

كيف يختار الصديق

وإذ قد عرفنا هذه النعمة الجليلة الخطيرة : فيجب علينا أن ننظر كيف نقتنيها ؟ ومن أين نطلبها ؟ وإذا حصلت لنا : كيف نحتفظ بها ؟ لئلا يصيبنا فيها ما أصاب الرجل الذى ضرب به المثل : حين طلب شاة سمينة : فوجدها وارمة ، فاغتر بها ، وظن الورم سمناً : فأخذه الشاعر فقال :

أعيـــذها نظرات منك صادقة   أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

لا سيما وقد علمنا أن الإنسان من بين الحيوان : يتصنع ، حتى يظهر للناس منه مالا حقيقة له : فيبذل ماله وهو بخيل . ليقال : هو جواد ، ويقدم فى بعض المواطن على بعض المخاوف : ليقال هو شجاع .

وأما سائر الحيوان : فإن أخلاقها ظاهرة للناس : من أول الأمر ، لا يتصنع فيها . وكذلك يكون حال من لا يعرف الحشائش والنبات : فإنها تشتبه فى عينه : حتى ربما تناول منها شيئاً وهو يظنه حلواً : فإذا طعمه وجده مراً ، وربما ظنه غذاء : فيكون سماً .

فينبغى لنا أن نحذر ركوب الخطر فى تحصيل هذه النعمة الجليلة : حتى لا نقع فى مودة المموهين الخداعين : الذين يتصورون لنا بصورة الفضلاء الأخيار ، فإذا حصلونا فى شباكهم : افترسونا كما تفترس السباع أكيلتها .

والطرق إلى السلامة من هذا الخطر : بحسب ما أخذناه عن سقراطيس : إذا أردنا أن نستفيد صديقاً : أن نسأل عنه : كيف كان فى صباه مع والديه ، ومع إخوته وعشيرته ؟

فإن كان صالحاً معهم : فارج الصلاح منه ، وإلا فابعد عنه وإياك وإياه .

قال : (ثم اعرف بعد ذلك ، سيرته مع أصدقائه قبلك ، فأضفها إلى سيرته مع إخوته وآبائه) .

ثم تتبع أمره فى شكر من يجب عليه شكره ، أو كفره النعمة .

ولست أعنى بالشكر : المكافأة التى ربما عجز عنها بالفعل . ولكن ربما عطل نيته فى الشكر : فلا يكافىء بما يستطيع ، وبما يقدر عليه ، ويغتنم الجميل الذى يسدى إليه ، ويراه حقاً له ، أو يتكاسل عن شكره باللسان .

وليس أحد يتعذر عليه نشر النعمة التى تتولاه ، والثناء على صاحبها ، والاعتداد له بها ، وليس شىء أشد احتياجاً للنقم : من الكفر ، وحسبك ما أعده الله لكافر نعمته : من النقم : مع تعاليه عن الاستضرار بالكفر .

ولا شيء أجلب للنعمة ، ولا أشد تثبيتاً لها : من الشكر ، وحسبك ما وعد الله به الشاكرين : مع استغنائه عن الشكر . فتعرف هذا الخلق ممن تريد مؤاخاته ، واحذر أن تبتلى بالكفر للنعم ، ولا تكن بالمستحقر لأيادى الإخوان ، وإحسان السلطان .

ثم انظر إلى ميله إلى الراحات ، وتباطئه عن الحركة : التى فيها أدنى نصب ، فإن هذا خلق ردىء ، ويتبعه الميل إلى اللذات ، فيكون سبباً للتقاعد عما يجب عليه من الحقوق .

ثم انظر نظراً شافياً فى محبته للذهب والفضة ، واستهانته بجمعهما ، وحرصه عليهما ، فإن كثيراً من المتعاشرين يتظاهرون بالمحبة ، ويتهادون ويتناصحون ، فإذا وقعت بينهم معاملة فى هذين الحجرين : هر بعضهم على بعض هرير الكلاب ، وخرجوا إلى ضروب العداوة .

ثم انظر فى محبته للرئاسة والتدبر، فإن من أحب الغلبة والترؤس ، وأن يفرط : لا ينصفك فى المودة ، ولا يرضى منك بمثل ما يعطيك ، ويحمله الخيلاء والتيه : على الاستهانة بأصدقائه ، وطلب الترفع عليهم ، ولا تتم مع ذلك مودة ولا غبطة ، ولا بد من أن تؤول الحال بينهم إلى العداوة ، والأحقاد ، والأضغان الكثيرة .

ثم انظر : هل هو ممن يستهزئ بالغناء واللحون ، وضروب اللهو ، واللعب وسماع المجون والمضاحيك ؟ فإن كان كذلك : فما أشغله عن مساعدات إخوانه ومواساتهم ، وما أشد هربه عن مكافأة بإحسان ، واحتمال النصب ، ودخول تحت جميل .

فإن وجدته ، بريئاً من هذه الخلال : فلتحتفظ عليه ، ولترغب فيه ، ولتكتف بواحد ، إن وجد ، فإن الكمال عزيز .

وأيضاً فإن من كثرت أصدقاؤه : لم يف بحقوقهم ، واضطر إلى الإغضاء عن بعض ما يجب عليه ، والتقصير فى بعضه ، وربما ترادفت عليه أحوال متضادة ، أعنى أن تدعوه مساعدة صديق : إلى أن يسر بسروره ، ومساعدة آخر : أن يغتم بغمه ، وأن يسعى بسعى واحد ، ويقعد بقعود آخر ، مع أحوال تشبه هذه كثيرة مختلفة .

ولا ينبغى أن يحملك ما حضضتك عليه من طلب الفضائل ممن تصادقه : على تتبع صغار عيوبه : فتصير بذلك إلى أن لا يسلم لك أحد . فتبقى خلواً من الصديق .

بل يجب أن تغض عن المعايب اليسيرة : التى لا يسلم من مثلها البشر ، وتنظر ما تجده فى نفسك من عيب : فتحتمل مثله من غيرك .

واحذر عداوة من صادقته ، أو خاللته ، أو خالطته : مخالطة الصديق ، واسمع قول الشاعر :

عدوك من صديقك مستفاد　　فلا تستكثرن من الصحاب
فإن الداء أكثر ما تراه　　يكون من الطعام أو الشراب

آدابُ الصَّداقة

لذلك يجب عليك متى حصل لك صديق : أن تكثر مراعاته ، وتبالغ فى تفقده ، ولا تستهين باليسير من حقه عند مهم يعرض له ، أو حادث يحدث به .

فأما فى أوقات الرخاء : فينبغى أن تلقاه بالوجه الطلق ، والخلق الرحب ، وأن تظهر له فى عينك وحركاتك ، وفى هشاشتك وارتياحك : عند مشاهدته إياك : ما يزداد به فى كل يوم ، وكل حال : ثقة بمودتك ، وسكوناً إليك ، ويرى السرور فى جميع أعضائك ، التى يظهر السرور فيها إذا لقيك .

فإن التحفى الشديد عند طلعة الصديق : لا يخفى ، وسرور الشكل بالشكل أمر غير مشكل .

ثم ينبغى أن تفعل مثل ذلك بمن تعلم أنه يؤثره ، ويحبه : من صديق ، أو ولد ، أو تابع ، أو حاشية ، وتثنى عليهم من غير إسراف ، يخرج بك إلى الملق : الذى

بمقتك عليه ، ويظهر له منك تكلف فيه ، وإنما يتم لك ذلك : إذا توخيت الصدق فى كل ما تثنى به عليه ، والزم هذه الطريقة : حتى لا يقع منك توان فيها : بوجه من الوجوه ، وفى حال من الأحوال ، فإن ذلك يجلب المحبة الخالصة ، ويكسب الثقة التامة ، ويهديك محبة الغرباء ، ومن لا معرفة لك به .

وكما أن الحمام إذا ألف بيوتنا ، وآنس لمجالسنا وطاف بها : يجلب لنا أشكاله وأمثاله ، فكذلك حال الإنسان : إذا عرفنا ، واختلط بنا : اختلاط الراغب فينا ، الآنس بنا . بل يزيد على الحيوان الغير الناطق[1] بحسن الوصف ، وجميل الثناء ، ونشر المحاسن .

واعلم أن مشاركة الصديق فى السراء : إذا كنت فيها ، وإن كانت واجبة عليك : حتى لا تستأثرها ، ولا تختص بشىء منها ، فإن مشاركته فى الضراء : أوجب ، وموقعها عنده أعظم .

وانظر عند ذلك : إن أصابته نكبة ، أو لحقته مصيبة ، أو عثر به الدهر : كيف تكون مواساتك له : بنفسك ومالك ، وكيف يظهر له تفقدك ومراعاتك . ولا تنتظرن به أن يسألك : تصريحاً أو تعريضاً ، بل اطلع على قلبه ، واسبق إلى ما فى نفسه ، وشاركه فى مضض ما لحقه : ليخف عنه .

وإن بلغت مرتبة من السلطان والغنى : فاغمس إخوانك فيها من غير امتنان ، ولا تطاول ، وإن رأيت من بعضهم نبواً عليك ، أو نقصاناً مما عهدته : فداخله زيادة مداخلة ، واختلط به واجتذبه إليك . فإنك إن أنفت من ذلك ، أو تداخلك شىء من الكبر ، والصلف عليهم : انتقض حبل المودة ، وانتكثت قوته ، ومع ذلك فلست تأمن أن يزولوا عنك : فتستحى منهم ، وتضطر إلى قطيعتهم : حتى لا تنظر إليهم .

---

(١) الغير الناطق : خطأ ، وصوابه غير الناطق ، لأن غير : لا تدخل عليها أداة التعريف : لمزيد إبهامها .

ثم حافظ على هذه الشروط : بالمداومة عليها : لتبقى المودة على حال واحدة . وليس هذا الشرط خاصاً بالمودة : بل هو مطرد فى كل مايخصك ، أعنى أن مركوبك وملبوسك ، ومنزلك : متى لم تراعها مراعاة متصلة : فسدت وانتقضت .

فإذا كانت صورة حائطك وسطوحك كذلك ، ومتى غفلت أو توانيت : لم تأمن تقوضه وتهدمه : فكيف ترى أن تجفو من ترجوه لكل خير ، وتنتظر مشاركته فى السراء والضراء ، ومع ذلك فإن ضرر تلك يختص بك بمنفعة واحدة .

وأما صديقك : فوجوه الضرر التى تدخل عليك بجفائه ، وانتقاض مودته : كثيرة عظيمة ، ذلك أنه ينقلب عدواً ، وتتحول منافعه مضاراً : فلا تأمن غوائله وعداوته : مع عدمك الرغائب والمنافع به ، وينقطع رجاؤك فيما لا تجد له خلفاً ، ولا تستفيد عنه عوضاً ، ولا يسد مسده شىء .

وإذا راعيت شروطه ، وحافظت عليها بالمداومة : أمنت جميع ذلك .

ثم احذر المراء معه خاصة : وإن كان واجباً أن تحذره مع كل أحد : فإن مماراة الصديق : تقتلع المودة من أصلها : لأنها سبب الاختلاف ، والاختلاف سبب التباين : الذى هربنا منه إلى ضده ، وقبحنا أثره ، واخترنا عليه الألفة التى طلبناها ، وأثنينا عليها ، وقلنا : إن الله عز وجل : دعا إليها بالشريعة القويمة .

وإنى لأعرف من يؤثر المراء ويزعم أنه يقدح خاطره ، ويشحذ ذهنه ، ويثير شكوكه ، فهو يتعمد فى المحافل التى تجمع رؤساء أهل النظر ، ومتعاطى العلوم : مماراة صديقه ، ويخرج فى كلامه معه إلى ألفاظ الجهال من العامة وسقاطهم : ليزيد فى خجل صديقه ، وليظهر انقطاع تبلجه .

وليس يفعل ذلك عند خلوته به ، ومذاكرته له ، وإنما يفعله حين يظن به أنه أدق نظراً . أو أحضر حجة ، وأغزر علماً ، وأحد قريحة .

فما كنت أشبهه إلا بأهل البغى ، وجبابرة أصحاب الأموال ، والمشبهين بهم من أهل البدع ، فإن هؤلاء يستحقر بعضهم بعضاً ، ولا يزال يصغر بصاحبه ويزدرى على مروءته ،

ويتطلب عيوبه ، ويتتبع عثراته ، ويبالغ كل واحد فيما يقدر عليه من إساءة صاحبه : حتى يؤدى بهم الحال إلى العداوة التامة : التى يكون معها السعاية ، وإزالة النعم ، وتجاوز ذلك إلى سفك الدم ، وأنواع الشرور .

فكيف يثبت مع المراء : محبة ويرجى به ألفة ؟

ثم احذر فى صديقك إن كنت متحققاً بعلم ، أو متحلياً بأدب : أن تبخل عليه بذلك الفن ، أو يرى فيك أنك تحب الاستبداد دونه ، والاستئثار عليه ، فإن أهل العلم : لا يرى بعضهم فى بعض ما يراه أهل الدنيا بينهم .

ذلك أن متاع الدنيا قليل ، فإذا تزاحم عليه قوم : ثلم بعضهم حال بعض ، ونقص حظ كل واحد من حظ الآخر .

وأما العلم : فإنه بالضد ، وليس أحد ينقص منه ما يأخذه غيره ، بل يزكو على النفقة ، ويربو مع الصداقة ، ويزيد على الإنفاق وكثرة الخرج ، فإذا بخل صاحب علم بعلمه : فإنما ذلك لأحوال فيه كلها قبيحة .

وهى أنه إما أن يكون قليل البضاعة منه : فهو يخاف أن يفنى ما عنده ، أو يرد عليه ما لا يعرفه : فيزول تشرفه عند الجهال .

وإما أن يكون مكتسباً به : فهو يخشى أن يضيق مكسبه به ، وينقص حظه منه .

وإما أن يكون حسوداً ، والحسود بعيد من كل فضيلة : لا يوده أحد .

وإنى لأعرف من لا يرضى بأن يبخل بعلم نفسه : حتى يبخل بعلم غيره ، ويكثر عتبه وسخطه : على من لا يفيد غيره : من التلامذة المستحقين لفائدة العلم .

وكثيراً ما يتوصل إلى أخذ الكتب من أصحابها . ثم منعهم منها . وهذا خلق لا تبقى معه مودة ، بل يجلب إلى صاحبه عداوات لا يحسبها ، ويقطع أطماع أصدقائه من صداقته .

ثم احذر أن تنبسط بأصحابك ، ومن يخلو بك من أتباعك ، وتحمل أحداً منهم على ذكر شىء فى نفسه ، ولا ترخص فى عيب شىء يتصل به : فضلا عن عيبه . ولا يطمعن

أحد فى ذلك من أولى أنسبائك والمتصلين بك : لا جداً ولا هزلا . وكيف تحتمل ذلك فيه ، وأنت عينه وقلبه وخليفته على الناس كلهم ؟ بل أنت هو . فإنه إن بلغه شىء مما حذرتك منه : لم يشك أن ذلك كان عن رأيك وهواك : فينقلب عدواً ، وينفر عنك نفور الضد .

فإن عرفت منه أنت عيباً : فوافقه عليه موافقة لطيفة : ليس فيها غلظة . فإن الطبيب الرفيق : ربما بلغ بالدواء اللطيف : ما لا يبلغه غيره بالشق والقطع والكى ، بل ربما توصل بالغذاء إلى الشفاء ، واكتفى به عن المعالجة بالدواء .

ولست أحب أن تغضى عما تعرفه فى صديقك ، وأن تترك موافقته عليه : بهذا الضرب من الموافقة ، فإن ذلك خيانة منك ، ومسامحة فيما يعود ضرره عليه .

وليس من حق الصديق أن يعرف ويبذل بعيوب الأضداد : حتى يعيبوه ويثلبوه . ثم احذر النميمة وسماعها .

وذلك أن الأشرار : يدخلون بين الأخيار فى صورة النصحاء : فيوهمونهم النصيحة ، وينقلون إليهم فى عرض الأحاديث اللذيذة : أخبار أصدقائهم : محرفة مموهة . حتى إذا تجاسروا عليهم بالحديث المختلق : يصرحون لهم بما يفسد موداتهم ، ويشوه وجوه أصدقائهم : إلى أن يبغض بعضهم بعضاً .

وللقدماء فى هذا المعنى كتب مؤلفة : يحذرون فيها من النميمة ، ويشبهون صورة النمام : بمن يحك بأظافيره أصول البنيان القوية : حتى يؤثر فيها . ثم لا يزال يزيد ويمعن : حتى يدخل فيها المعول فيقلعه من أصله .

ويضربون له الأمثال الكثيرة : المشبهة بحديث الثور مع الأسد فى كتاب كليلة ودمنه .

ونحن نكتفى بهذا القدر من الإيماء : لئلا نخرج عن رسم كتابنا ، وعما بنينا عليه مذهبنا : من الإيجاز فى الشرح .

ولست أترك مع الإيجاز والاختصار : تعظيم هذا الباب ، وتكريره عليك : لتعلم أن القدماء إنما ألفوا فيه الكتب ، وضربوا له الأمثال ، وأكثروا فيه من الوصايا : لما وراءه من النفع العظيم عند السامعين من الأخيار . ولما خافوه من الضرر الكثير على من يستهين به من الأغمار [١] .

وليعلم المثل المضروب فى السباع القوية : إذا دخل عليها الثعلب الرواغ ، على ضعفه : أهلكها ، ودمرها ، وفى الملوك الحصفاء : يدخل بينهم أهل النميمة فى صورة الناصحين : حتى يفسدوا نيتهم على وزرائهم : المبالغين فى نصيحتهم ، المجتهدين فى تثبيت ملكهم ، إلى أن يغضبوا عليهم ، ويصرفوا به عيونهم عنهم ، ويصيروا من محبتهم وإيثارهم على آبائهم وأولادهم : إلى أن لا يملؤا عيونهم منهم ، وإلى أن يبطشوا بهم : قتلا وتعذيباً ، وهم غير مذنبين ، ولا مجترمين ، ولا مستحقين إلا الكرامة والإحسان ، فإذا بلغ بهم من الإفساد والإضرار ما بلغوه من هؤلاء ، فبالأحرى أن يبلغوه منا إذا لم يجدوه فى أصدقائنا الذين اخترناهم على الأيام ، وادخرناهم للشدائد ، وأحللناهم محل أرواحنا ، وزدناهم تفضلا وإكراماً .

ويتبين لك من جميع ما قدمناه : أن الصداقة ، وأصناف المحبات : التى تتم بها سعادة الإنسان من حيث هو مدنى بالطبع : إنما اختلفت ، ودخل فيها ضروب الفساد ، وزال عنها معنى التأحد ، وعرض لها الانتشار ، حتى احتجنا إلى حفظها والتعب الكثير بنظامها : من أجل النقائص الكثيرة التى فينا ، وحاجتنا إلى إتمامها مع الحوادث التى تعرض لنا من الكون والفساد .

فإن الفضائل الخلقية : إنما وضعت لأجل المعاملات والمعاشرات ، التى لا يتم الوجود الإنسانى إلا بها .

ذلك أن العدل : إنما احتيج إليه لتصحيح المعاملات ، وليزول به معنى الجور الذى هو رذيلة عند المتعاملين .

---

(١) الأغمار : جمع غمر . وهو الرجل الذى لم يجرب الأمور .

وإنما وضعت العفة فضيلة . لأجل اللذات الرديئة ، التى تجنى الخيانات العظيمة على النفس والبدن .

وكذلك الشجاعة : وضعت فضيلة ، من أجل الأمور الهائلة التى يجب أن يقدم الإنسان عليها فى الأوقات ، ولا يهرب منها ، وعلى هذا جميع الأخلاق المرضية التى وصفناها ، وحضضنا على اقتنائها .

وأيضاً فإن جميع هذه الفضائل : تحتاج إلى أسباب خارجة من الأموال واكتسابها من وجوهها ليمكنه أن يفعل بها فعل الأحرار ، والعادل : يحتاج إلى مثل ذلك ، ليجازى من عاشره بجميل ، ويكافئ من عامله بإحسان ، وجميعها لا تقوم إلا بالأبدان والأنفس ، وما هو خارج عنها على حسب تقسيمنا السعادات فيما مضى .

وكلما كانت الحاجات كثيرة : احتيج إلى المواد الخارجة عنها أكثر ، فهذه حالة السعادات الإنسانية ، التى لا تتم لنا إلا بالأفعال البدنية ، والأحوال المدنية ، وبالأعوان الصالحين ، والأصدقاء المخلصين ، وهى كما تراها كثيرة ، والتعب بها عظيم . ومن قصر فيها : قصرت به السعادة الخاصة به .

ولذلك صار الكسل ، ومحبة الراحة : من أعظم الرذائل ، لأنهما يحولان بين المرء وبين جميع الخيرات والفضائل ، ويسلخان الإنسان من الإنسانية .

ولذلك ذممنا المتوسمين بالزهد : إذا تفردوا عن الناس ، وسكنوا الجبال والمفازات[1] ، واختاروا التوحش : الذى هو ضد التمدن ، لأنهم ينسلخون عن جميع الفضائل الخلقية التى عددناها كلها .

وكيف يعف ويعدل ويسخو ويشجع : من فارق الناس وتفرد عنهم ، وعدم الفضائل الخلقية . وهل هو إلا بمنزلة الجماد والميت .

وأما محبة الحكمة ، والانصراف إلى التصور العقلى ، واستعمال الآراء الإلهية : فإنها خاصة بالجزء الإلهى من الناس ، وليس يعرض لها شىء من الآفات التى تعرض للمحبات الأخر الخلقية ، وضروب الفساد .

---

(١) المفازات : جمع مفازة ، وهى الصحراء المهلكة : التى لا ماء بها .

ولذلك قلنا : إنها لا تقبل النميمة ، ولا نوعاً من أنواع الشرور . لأنها الخير المحض ، وسببها الخير الأول : الذى لا تشوبه مادة ، ولا تلحقه الشرور التى فى المادة .

وما دام الإنسان : يستعمل الأخلاق والفضائل الإنسانية . فإنها تعوقه عن هذا الخير الأول ، وهذه السعادة الإلهية ، ولكن ليس يتم له إلا بتلك ، ومن أضل تلك الفضائل بنفسه ، ثم اشتغل عنها بالفضيلة الإلهية : فقد اشتغل بذاته حقاً ، ونجا من مجاهدات الطبيعة وآلامها ، ومن مجاهدات النفس وقواها ، وصار مع الأرواح الطيبة ، واختلط بالملائكة المقربين ، فإذا انتقل من وجوده الأول إلى وجوده الثانى : حصل فى النعيم الأبدى ، والسرور السرمدى !

رأى أرسطوطاليس فى السعادة التامة

وقد أطلق أرسطوطاليس[1] جميع هذه الألفاظ . وقال : إن السعادة التامة الخالصة هى لله عز وجل ، ثم للملائكة والمتألهين .

ثم قال : ولا ينبغى أن يضاف إلى الملائكة تلك الفضائل : التى عددناها فى سعادة الإنسان ، فإنهم لا يتعاملون ، ولا يكون عند أحد منهم وديعة : فيحتاج إلى ردها ، ولا لأحد منهم تجارة : فيحتاج إلى العدالة ، ولا يفزعه شىء : فيحتاج إلى النجدة ، ولا له نفقات : فيحتاج إلى الذهب والفضة ، ولا له شهوات : فيحتاج إلى ضبط النفس ، وإلى فضيلة العفة ، ولا هو مركب من الاستقصاءات الأربعة : التى تحل فى أضدادها ، فيحتاج إلى الغذاء .

---

(١) أنظر ترجمته فى هامش ص ٨٨ .

فإذاً هؤلاء الأبرار المطهرون من بين خلق الله عز وجل : غير محتاجين إلى الفضائل الإنسية ، والله تعالى وتقدس وجل ، أعلى من ملائكته : فيجب أن ننزهه عن جميع ما ذكرناه : من فضائل الإنسان ، وإنما نذكره بالخير البسيط : الذى يشبهه ، وننسب إليه الأمور العقلية التى تليق به .

فبالحق الواجب الذى لا مرية فيه : لا يحبه إلا السعيد ، الخير من الناس : الذى يعرف السعادة والخير بالحقيقة ، فلذلك يتقرب إليه بهما جهده ، ويطلب مرضاته بقدر طاقته ، ويتقبل أوامره بنحو استطاعته .

ومن أحب الله تعالى هذه المحبة ، وتقرب إليه هذا التقرب ، وأطاعه هذه الطاعة : أحبه الله وقربه وأرضاه . واستحق خلته التى أطلقتها الشريعة على بعض البشر : حيث قيل إبراهيم خليل الله .

وأما أرسطوطاليس : فإنه أطلق بعد ذلك بالملة شيئاً غير مطلق فى لغتنا ، وذلك أنه قال : من أحب الله وتعاهده : كما يتعاهد الأصدقاء بعضهم بعضاً : أحسن إليه .

ولذلك يظن بالحكيم اللذات العجيبة ، وضروب الفرح الغريبة ، ويرى من تحقق بالحكمة : أنها ملذة غاية الالتذاذ ، فلا يلتفت إلى غيرها ، ولا يعرج على سواها .

وإذا كان الأمر على ما وصفناه : فالحكيم السعيد ، التام الحكمة : هو الله تعالى . فليس يحبه إلا السعيد الحكيم بالحقيقة : لأن الشبيه إنما يسر بشبيهه فقط . ولذلك صارت هذه السعادة : أرفع وأعلى من تلك السعادة التى ذكرناها . وهى غير منسوبة إلى الإنسان ، لأنها مذهبة من الحياة الطبيعية : مبرأة من القوى النفسانية ، مباينة لجميعها غاية المباينة ، وإنما هى موهبة إلهية ، يهبها البارى جلت عظمته . لمن اصطفاه من عباده ، ثم التمسها منه ، وسعى لها سعيها ، ورغب فيها ، ولزمها مدة حياته ، واحتمل المشقة والتعب ، فإن من لم يصبر على إدامة التعب : اشتاق اللعب .

الراحة البدنية : ليست من أسباب السعادة

ذلك : أن اللعب ، يشبه الراحة ، والراحة ليست من تمام السعادة ، ولا من أسبابها . وإنما يميل إلى الراحات البدنية ، من كان طبيعى الشكل ، بهيمى النجار [1] ، كالعبيد ، والصبيان والبهائم ، وليس ينسب الحيوان غير الناطق ، ولا الصبيان والعبيد : إلى السعادة . ولا من كان مناسباً لهم .

وأما العاقل الفاضل : فإنه يطلب بهمته أعلى المراتب .

وأرسطوطاليس يقول : (لا ينبغى أن تكون همم الإنسان إنسية ، وإن كان إنساناً ، ولا يرضى بهمم الحيوان الميت : وإن كان هو أيضاً ميتاً ، بل يقصد بجميع قواه : أن يحيا حياة إلهية : فإن الإنسان وإن كان صغير الجثة : فهو عظيم بالحكمة ، شريف بالعقل . والعقل يفوق جميع الخلائق ، لأنه الجوهر الرئيسى : المستولى على هذا الكل : بأمر مبدعه تعالى جده .

وقد قلنا فيما تقدم : إن الإنسان مادام فى هذا العالم : فهو محتاج إلى حسن الحال الخارجة عنه . ولكن ينبغى أن ينصرف إلى طلب ذلك بقوته كلها ، ولا يطلب الاستكثار منه ، فقد يصل إلى الفضيلة : من ليس بكثير المال ، ولا ظاهر اليسار . فإن الفقير من المال والأملاك : قد يفعل الأفعال الكريمة .

ولذلك قالت الحكماء : إن السعداء هم الذين رزقوا القصد من الخيرات الخارجة عنهم ، وفعلوا الأفعال التى تقتضيها الفضيلة وإن كانت فيهم قليلة .

---

(١) النجار : الأصل والحسب .

هذا كلام الحكيم فى هذه المرتبة التى وعدناك الكلام فيها ، وهو يقول بعد ذلك : ليس فى معرفة الفضائل كفاية : بل الكفاية فى العمل بها .

ومن الناس من ينصاع إلى الفضائل ، وينقاد إلى الموعظة ، ويرغب فى الخيرات . وهؤلاء قليلون : وهم الذين يمتنعون من جميع الرداءات والشرور . وذلك للغريزة الجيدة ، والطبع الجيد الفائق .

ومنهم من ينقاد إلى الخيرات : حتى يمتنع من الرداءات والشرور : بالوعيد والفزع ، والإنذارات من العذاب : فيهرب من الجحيم والهاوية ، وما أعد فيها من الآلام .

ولذلك حكمنا : أن بعض الناس أخيار بالطبع ، وبعضهم أخيار بالشرع وبالتعلم .

فالشريعة : تجرى لهؤلاء مجرى الماء الإنسان الذى به يسيغ غصته . ومن لاينقاد لها : فهو كالشرق بالماء فلا يشرب الماء ، ولا يجده يسيغ غصته ، وهو الهالك الذى لاحيلة فيه ، ولا طمع فى إصلاحه وبرئه .

ولهذه العلة قلنا : إن من كان بالطبع خيراً فاضلا : فذلك لمحبة الله إياه ، وليس أمره إلينا ، ولا نحن كنا سببه ، بل الله عز وجل .

ومثل هذا هو الذى يقول فيه أرسطوطاليس : إن عناية الله به أكبر .

فتحصل مما قدمناه : أن أصناف السعداء من الناس : أربعة ، وهم موجودون بالتصفح والحس .

وذلك أنا نجد من الناس : من هو خير فاضل ، من مبدإ تكوينه : نرى فيه النجابة طفلا ، ونتفرس فيه الفلاحة ناشئاً : بأن يكون : حيياً كريم الخيم[1] : يؤثر مجالسة الأخيار ، ومؤانسة الفضلاء ، وينفر من أضدادهم . وليس يكون كذلك إلا بعناية تلحقه من أول مولده كما قلناه .

---

(١) الخيم : السجية والطبيعة .

ونجد أيضاً : من لا يكون بهذه الصفة : من مبدإ تكوينه ، بل يكون كسائر الصبيان . إلا أنه يسعى ، ويجتهد ، ويطلب الحق : إذا رأى اختلاف الناس فيه ، ولا يزال كذلك ، حتى يبلغ مرتبة الحكماء ، أعنى أن يصير علمه صحيحاً ، وعمله صواباً .

وليس يبلغ هـــذه الدرجة : إلا بالتفلسف ، واطراح العصبيات ، وسائر ما حذرنا منه .

ونجد أيضاً من يوجد بهذه السيرة : آخذاً على الإكراه . إما بالتأديب الشرعى ، وإما بالتعليم الحكمى .

ومعلوم أن المطلوب هو القسم الثانى ، إذ كانت الأقسام الباقية هى من خارج ، ولا يمكن أن تطلب . أعنى أن من يتفق له فى أصل مولده السعادة ، ومن يكره عليها ، ليس من أقسام الطالب المجتهد . وتبين أيضاً مقام الطالب المجتهد ، ومنزلته من السعادة التامة الحقيقية ، وأنه وحده من بين سائر الطبقات : هو السعيد الكامل المقرب إلى الله عز وجل ، المحب المطيع المستحق خلته ومحبته . كما تقدم وصفه .

المقالة السادسة

دواء النفوس

علاج الأمراض التي تلحق النفس

نبتدئ بعون الله وتوفيقه وتأييده فى هذه المقالة : بذكر شفاء الأمراض : التى تلحق نفس الإنسان وعلاجها ، ونذكر الأسباب والعلل : التى تولدها ، وتحدث منها . فإن حذاق الأطباء : لا يقدمون على علاج مرض جسمانى : إلا بعد أن يعرفوه : ويعرفوا السبب والعلة فيه ، ثم يرومون مقابلته بأضداده : من العلاجات ، ويبتدئون من الحمية ، والأدوية اللطيفة : إلى أن ينتهوا فى بعضها إلى استعمال الأغذية الكريهة ، والأدوية البشعة .

وفى بعضها : إلى القطع بالحديد ، والكى بالنار .

ولما كانت النفس : قوة إلهية : غير جسمانية ، وكانت مع ذلك : مستعملة لمزاج خاص ، ومربوطة به : رباطاً طبيعياً إلهياً : لا يفارق أحدهما صاحبه ، إلا بمشيئة الخالق عز وجل ، وجب أن نعلم أن أحدهما : متعلق بصاحبه ، متغير بتغيره : فيصح بصحته ، ويمرض بمرضه . ونحن نرى ذلك مشاهدة وعياناً : بما يظهر لنا من أفعالها .

وذلك أنا كما نرى المريض من جهة بدنه : لا سيما إن كان سبب مرضه أحد الجزأين الشريفين : أعنى الدماغ والقلب : يتغير عقله ويمرض ، حتى يتنكر ذهنه وفكره وتخيله ، وسائر قوى نفسه الشريفة ، ويحس هو من نفسه بذلك .

كذلك أيضاً نرى المريض من جهة نفسه : إما بالغضب ، وإما بالحزن ، وإما بالعشق ، وإما بالشهوات الهائجة به : تتغير صورة بدنه ، حتى يضطرب ، ويرتعد ، ويصفر ، ويحمر ، ويهزل ، ويسمن ، ويلحقه ضروب التغير المشاهدة بالحس .

فيجب لذلك ، أن نتفقد مبدأ الأمراض : إذا كان من نفوسنا . فإن كان مبدؤها من ذاتها : كالفكر فى الأشياء الرديئة ، وإجالة الرأى فيها ، وكاستشعار الخوف ، والخوف من الأمور العارضة والمترقبة ، والشهوات الهائجة : قصدنا علاجها بما يخصها .

وإن كان مبدؤها من المزاج ، ومن الحواس . كالخور : الذى مبدؤه ضعف حرارة القلب ، مع الكسل والرفاهية . وكالعشق : الذى مبدؤه النظر : مع الفراغ والبطالة : قصدنا أيضاً علاجه بما يخص هذه .

وأيضاً لما كان طب الأبدان : ينقسم بالقسمة الأولى إلى قسمين :

أحدهما : حفظ صحتها إذا كانت حاضرة ، والآخر : ردها إليها ، إذا كانت غائبة ، وجب أن نقسم طب النفوس هذه القسمة بعينها : فنردها إذا كانت غائبة ، ونتقدم فى حفظ صحتها إذا كانت حاضرة ، فنقول : إذا كانت خيرة فاضلة : تحب نيل الفضائل ، وتحرص على إصابتها ، وتشتاق إلى العلوم الحقيقية ، والمعارف الصحيحة ، فيجب على صاحبها : أن يعاشر من يجانسه ، ويطلب من يشاكله ، ولا يأنس بغيرهم ، ولا يجالس سواهم .

ويحذر كل الحذر : من معاشرة أهل الشر والمجون ، والمجاهرين بإصابة اللذات القبيحة ، وركوب الفواحش : المفتخرين بها ، المنهمكين فيها ، ولا يصغى إلى أخبارهم : مستطيباً ، ولا يروى أشعارهم : مستحسناً ، ولا يحضر مجالسهم مبتهجاً .

وذلك أن حضور مجلس واحد من مجالسهم ، وسماع خبر واحد من أخبارهم : يعلق من وضره ووسخه بالنفس : ما لا يغسل عنها إلا بالزمان الطويل ، والعلاج الصعب . وربما كان سبباً لفساد الفاضل المحنك ، وغواية العالم المستبصر : حتى يصير فتنة لها : فضلا عن الحدث الناشىء المسترشد .

والعلة فى ذلك : أن محبة اللذات البدنية ، والراحات الجسمية : طبيعة للإنسان ، لأجل النقائص التى فيه ، فنحن بالجبلة الأولى ، والفطرة السابقة إلينا نميل إليها ، ونحرص عليها ، وإنما نزم أنفسنا عنها : بزمام العقل : حتى نقف عند ما يرسم لنا ، ونقتصر على المقدار الضرورى منها .

وإنما استثنيت فى أول هذا الكلام ، وشرطت بما شرطت : لأن معاشرة الأصدقاء الذين ذكرت أحوالهم فى المقالة المتقدمة ، وحكمت بتمام السعادة معهم ولهم : لا تتم إلا بالمؤانسة والمداخلة .

اللذة التي تطيقها الشريعة

ولا بد فى ذلك ، من المزاح المستعذب ، والأحاديث المستطابة ، والفكاهة المحبوبة : وإصابة اللذة التى تطيقها الشريعة ، ويقدرها العقل : حتى لا يتجاوزها إلى الإسراف فيها : ولا يقصر عنها تهاوناً بها .

ذلك أن الخروج إلى أحد الطرفين : إن كان إلى جانب الزيادة ، سمى مجوناً ، وفسقاً ، وخلاعة ، وما أشبهها من أسماء الذم . وإن كان إلى جانب النقصان : سمى فدامة [1] وعبوساً ، وشكاسة ، وما أشبهها من أسماء الذم أيضاً . والمتوسط بينهما : هو الظريف : الذى يوصف بالمشاشة ، والطلاقة ، وحسن العشرة . ويعرض من الصعوبة فى وجود هذا الوسط : ما يعرض فى سائر الفضائل الخلقية .

ومما يؤخذ به من يحفظ صحة نفسه : أن يلتزم وظيفة من الجزء النظرى والعملى : لا يسوغ له الإخلال بها البتة : لتجرى النفس مجرى الرياضة : التى تلزم فى حفظ صحة البدن .

وأطباء النفوس : أشد تعظيما لها فى حفظ صحة النفس .

وذلك أن النفس : متى تعطلت من النظر ، وعدمت الفكر والغوص على المعانى : تبلدت وتبلهت ، وانقطعت عنها مادة كل خير .

وإذا ألفت الكسل ، وتبرمت بالروية ، واختارت العطلة : قرب هلاكها ، لأن فى عطلتها هذه : انسلاخاً من صورتها الخاصة بها ، ورجوعاً منها إلى رتبة البهائم ، وهذا هو الانتكاس فى الخلق : نعوذ بالله منه .

---

(١) الفدامة : من الفدم : وهو العيي عن الكلام : فى ثقل ، ورخاوة ، وقلة فهم ، والغليظ ، الأحمق ، الجافى .

وإذا تعود الحدث الناشىء من مبدإ تكوينه : الارتياض بالأمور الفكرية ، ولازم التعاليم الأربعة : ألف الصدق ، واحتمل ثقل الروية والنظر ، وأنس بالحق ، ونبا طبعه عن الباطل ، وسمعه عن الكذب .

فإذا بلغ أشده ، وانتقل إلى مطالعة الحكمة : استمر طبعه فيها وتشرب ما يستودع منها ، ولا يرد عليه أمر غريب ، ولا يحتاج إلى كثير تعب : فى فهم غوامضها ، واستخراج دفائنها . فيصل إلى سعادتها التى ذكرناها سريعاً . وإن كان حافظ هذه الصحة : قد توحد فى العلم وبرع : فلا يحملنه العجب بما عنده على ترك الازدياد . فإن العلم لا نهاية له ، وفوق كل ذى علم عليم .

ولا يتكاسل عن معاودة ما علمه ، والدرس له . فإن النسيان : آفة العلم . وليتذكر قول الحسن البصرى رحمة الله عليه : « اقدعوا [1] هذه النفوس ، فإنها طائعة ، وحادثوها : فإنها سريعة الدثور [2] » .

واعلم أن هذه الكلمات مع قلة حروفها : كثيرة المعانى ، وهى مع ذلك فصيحة ، واستوفت شروط البلاغة .

وليعلم أيضاً حافظ هذه الصحة على نفسه : أنه إنما يحفظ عليها نعماً شريفة جليلة ، موهوبة لها ، وكنوزاً عظيمة : مدخرة فيها . وملابس فاخرة مفرغة عليها . وإن من كانت هذه المواهب الجليلة موجودة له فى ذاته : لا يحتاج إلى تطلبها من خارج ، ولا إلى بذل الأموال فيها لغيره . ولا يكلف العناء والمؤن الثقال فى تحصيلها ، ثم أعرض عنها ، وأهمل أمرها : حق السلخ عنها ، وعرى منها ، لملوم فى فعله ، مغبون فى رأيه غير رشيد ، ولا موفق . لا سيا وهو يرى طالبى النعم الخارجة : كيف يتجشمون الأسفار البعيدة الخطرة ، ويقطعون السبل المخوفة الوعرة ، ويتعرضون لضروب المكاره ، وأنواع التلف : من السباع العادية ، وطبقات الأشراف الباغية ، وهم يخيبون فى أكثر الأحوال ،

---

(١) قدعه : كفه ، واقدعوا هذه النفوس : أى كفوها من الآثام .
(٢) دثور النفس : سرعة نسيانها .

مع مقاساة هذه الأهوال . وربما عرضت لهم الندامات المفرطة ، والحسرات المعطبة : التي تقطع أنفاسهم ، وتفصل أعضاءهم . فإن ظفروا بشيء من مطالبهم ، كان لا محالة زائلا عن قرب ، أو معرضاً للزوال ، وغير مطموع في بقائه ، لأنه من خارج ، وما كان خارجاً عنها : فهو غير ممتنع عما يطرقه من الحوادث التي لا تحصى كثرة . وصاحبه مع هذه الحال : شديد الوجل ، دائم الاشفاق ، متعب الجسم والنفس ، بحفظ ما لا يجد إلى حفظه سبيلا ، والحذر على ما لا يغني فيه الحذر فتيلا .

وإن كان طالب هذه الأشياء الخارجة عنا سلطاناً ، أو صاحب سلطان : تضاعفت عليه هذه المكاره أضعافاً كثيرة : بقدر ما يلابسه ، وبحسب ما يقاسيه ، من الأضداد والحساد : على البعد ومن القرب . وبكثرة ما يحتاج إليه من المؤن ، في استصلاح من يليه ، ويلي من يليه : من مداراة من يواليه ويعاديه وهو في كل ذلك ملوم مستبطأ ، ومعتب مستقصر . ويستزيده جميع أهله ، والمتصلين به ، ولا سبيل إلى إرضاء واحد منهم : فضلا عن جميعهم . ولا يزال يلامه عن أخص الناس به : من أولاده وحرمه ، ومن يجري مجراهم : من حاشيته وخوله : ما يملؤه غيظاً وحنقاً ، وهو غير آمن على نفسه من جهتهم : مع التحاسد الذي بينهم : من مكاتبة الأعداء إياهم ، ومواطأة الحساد لهم .

وكلما ازداد من الأعوان ، والأعضاد ، والأنصار : زادوه في شغل القلب ، وجلبوا إليه من المكاره : مالم يكن عنده . فهو غني عن الناس : وهو أشدهم فقراً ، ومحسود : وهو أكثرهم حسداً .

وكيف لا يكون فقيراً ، وحد الفقر : هو كثرة الحاجة . فأكثر الناس حاجة : أشدهم فقراً . كما أن أغنى الناس : أقلهم حاجة(١) ولذلك حكمنا حكما صادقاً : بأن الله تعالى : أغنى الأغنياء : لأنه لا حاجة له إلى شيء من الأشياء .

---

(١) قال الشافعي رضي الله تعالى عنه :

غنى بلا مال : عن الناس كلهم   وليس الغنى : إلا عن الشيء ، لا به

الملوك

وقد حكمنا أيضاً : أن الملوك منا : هم أشد الناس فقراً ، لكثرة حاجتهم إلى الأشياء . ولقد صدق أبو بكر الصديق فى خطبته حيث قال : « أشقى الناس فى الدنيا والآخرة الملوك » ثم وصفهم فقال : « إن الملك إذا ملك : زهده الله فيما فى يده ، ورغبه فيما فى يد غيره ، وانتقصه شطر أجله ، وأشرب قلبه الإشفاق : فهو يحسد على القليل ، ويتسخط بالكثير ، ويسأم الرخاء ، وإن انقطعت عنه اللذة : لا يستعمل الغيرة ، ولا يسكن إلى الثقة . فهو كالدرهم الغش ، والسراب الخادع : جلد الظاهر ، حزين الباطن . فإذا وجبت نفسه ، ونضب عمره ، وضحى ظله : حاسبه فأشد حسابه ، وأقل عفوه . ألا إن الملوك هم المرحومون » .

فهذه صفة الملك : إذا تمكن من ملكه ، لا يغادر منه شيئاً .

ولقد سمعت أعظم من شاهدت من الملوك : يستعيد هذا الكلام : ثم يستعبر[1] : لموافقته ما فى قلبه ، وصدقه عن حاله وصورته .

ولعل من يرى ظاهر الملوك : من الأسرة والفرش ، والزينة والأثاث ، ويشاهدهم فى مواكبهم : محفوفين محشودين . بين أيديهم الجنائب[2] والمراكب ، والعبيد ، والخدم ، والحجاب والحشم : يروعه ذلك فيظن أنهم مسرورون بما يراه لهم .

لا والذى خلقهم ، وكفانا شغلهم : إنهم لفى هذه الأحوال : ذاهلون عما يراه البعيد لهم ، مشغولون بالأفكار التى تعتورهم وتعتريهم فيما قلناه من ضروراتهم ، وقد جربنا ذلك فى اليسير مما ملكناه : فدلنا على الكثير مما وصفناه .

---

(١) يستعبر : أى يبكى ، وتسقط عبراته .

(٢) الجنائب : جمع جنيب ، وهو الذى يقودونه من غير راكب : بجنب الخيل : لكثرتها .

ولعل بعض من يصل إلى الملك أو السلطان : فيلتذ فى المبدإ مدة يسيرة جداً بمقدار ما يتمكن منه ، وتنفتح عينه فيه .

لكنه بعد ذلك : يصير جميع ما ملكه كالشيء الطبيعى له : لا يلتذ به ، ولا يفكر فيه ، ويمد عينه إلى ما لا يملكه .

فلو ملك الدنيا بحذافيرها : لتمنى دنيا أخرى ، أو نزقت[1] همته إلى البقاء الأبدى ، والملك الحقيق : حتى يتبرم بجميع ما وصل إليه وبلغته قدرته .

ذلك أن حفظ الدنيا صعب جداً ، لما فى طبيعتها من الإخلال والتلاشى ، ولما يضطر الملك إليه من الأمور التى وصفناها ، والأموال الجمة المصروفة إلى الجند المرتبطين ، والخدم المقسومين ، والذخائر والكنوز المعدة للآفات والحوادث : التى لا يؤمن طروقها .

فهذه حال طلاب النعم الخارجة عنا . وأما تلك النعم التى هى فى ذواتنا ، فإنها موجودة عندنا وفينا ، وهى غير مفارقة لنا : لأنها موهبة الخالق جل وعلا . وقد أمرنا باستثمارها ، والترقى فيها ، فإذا قبلنا أمره أثمرت لنا نعماً بعد نعم ، ورقينا درجة بعد درجة : حتى تؤدينا إلى النعم الأبدية : التى وصفناها فيما تقدم ، وهو الملك الحقيق : الذى لا يزول ، والغبطة الأبدية الصافية التى لا تحول .

فمن أخسر صفقة ، وأظهر سقطة : ممن أضاع جواهر نفيسة باقية عنده ، وموجودة له : وطلب أعراضاً خسيسة فانية : ليست عنده ، ولا موجودة له .

فإن اتفق أن يجدها : لم تبق له ، ولم تترك عليه ، وذلك أنها تنقل عنه ، أو ينقل عنها لا محالة .

---

(١) نزق الرجل : خف ، وطاش ، ونشط .

القناعة

لذلك قال الحكيم لمن رزق الكفاية ، ووجد القصد من السعادة الخارجة : أن لا يشتغل بفضول العيش : فإنها بلا نهاية .

ومن طلبها : أوقعته فى مهالك لا نهاية لها .

وقد أعلمناك فيما تقدم : ما الكفاية ؟ وما القصد ؟ وأن الغرض الصحيح بينهما هو مداواة الآلام ، والتحرز من الوقوع فيها : لا التمتع وطلب اللذة .

وأن من عالج الجوع والعطش : اللذين هما مرضان مؤلمان حادان : لا ينبغى له أن يقصد لذة البدن : بل صحته ، وسيلتذ لا محالة ، فإن من طلب بالعلاج اللذة لا الصحة : لم تحصل له الصحة ، ولم تبق له اللذة .

وأما من لم يرزق الكفاية ، واحتاج إلى السعى والاضطراب فى تحصيلها : فيجب أن لا يتجاوز القصد ، وقدر حاجته منها إلى ما يضطر معه إلى السعى الحثيث ، والحرص الشديد ، والتعرض لقبيح المكاسب ، أو ضروب المهالك والمعاطب .

بل يجمل فى طلبها إجمال العارف بخساستها . وأنه يضطر إليها لنقصانه : فيطلب منها كسائر الحيوانات فى ضروراتها .

فإن العاقل إذا تصفح أحوالها : وجد منها ما يأكل الميتة ، ومنها ما يأكل الروث وما فى الحش[1] . وهى مسرورة بما تجده من أقواتها ، قريرة العين بها . وليست تحس من نفوسها نفوراً ، ولا تنصرف نفوسها عنها : كما تنصرف نفوس الحيوانات المضادة لها . بل إنما تنصرف من أقوات تلك الأخر التى تضادها فى النظافة .

---

(١) الحش : موضع الغائط .

مثال ذلك : الجعل[١] والخنافس : إذا قيست إلى النحل : فإن تلك تهرب من الروائح الطيبة . والأقوات النظيفة ، وهذا يطلبها ويسر بها .

فإذن لسبة كل حيوان إلى قوته الخاص به : كسكل مقتنع بما يحفظ بقاءه وحياته فهو طالب مسرور به .

فينبغى أن ننظر إلى أقواتنا بهذه العين ، وننزلها منزلة الحش الذى نضطر إلى ملابسته ، لإخراج ما كنا نحرص على الوصول إليه ، فلا نبعدها من هذا الآخر : لأنهما ضرورتان لنا . فنحن نلابسهما لأجل الضرورة ، ولا نشغل عقلنا باختيارهما ، والتمتع بهما ، وإفناء أعمارنا فى التأنق لها ، والتوصل إليهما . ولا نتكاسل أيضاً عن إعداد ضروراتنا منهما . وإنما يفضل أحدهما على الآخر ، ويستحسن السعى فى طلب الدخل ، ولا يستحسن السعى فى طلب الخرج : لأن الأول منهما : هو غذاء موافق لنا : يخلف علينا ما تحلل من أبداننا ، ولا نستقذره . كذلك لا ننفر مما نضمه مكان ما ينقص منه ، وينوب عنه .

وأما الثانى منهما : فهو عصارة ذلك الغذاء ، وما نفته الطبيعة ، وأخذت حاجتها منه . أعنى الذى أحالته دماً صافياً ، وفرقته فى العروق على الأعضاء ، واطرحت التفل : الذى لا حاجة بها إليه ، وهو فى غاية المخالفة والبعد من أمزجتنا ، فنحن نستوحش منه ، وتنفر عنه ، لأجل الضدية والمخالفة . إلا أننا مضطرون إلى إخراجه ، وتنحيته ونفضه عنا : بالآلات الموهوبة : المستعملة فى ذلك ، ليفرغ مكانه لما يأتى بعده ، ويجرى مجراه .

وينبغى لحافظ الصحة على نفسه ، أن لا يحرك قوته الشهوانية ، وقوته الغضبية : بتذكر ما أصابه منهما موجداً لذاته ، بل يتركهما حتى يتحركا بأنفسهما . وذلك أن الإنسان ربما تذكر لذاته : فى إصابة الشهوات وطيبها ، ومراتب كرامته من السلطان وغيرها : فاشتاق إليها . وإذا اشتاق إليها : تحرك نحوها ، فقد جعلها غرضاً له : فيضطر إلى استعمال الروية ،واستخدام النفس الناطقة فيها : لتدبر له الوصول إليها . وهذه صورة من يثير بهائم هادية ، ويهيج سباعاً ضارية : ثم يلتمس معالجتها ، والخلاص منها .

---

(١) الجعل : حشرة كالخنافس ، تقتلها الرائحة الزكية .

وليس يختار العاقل لنفسه هذه الحال ، بل هي من أفعال المجانين : الذين لا يميزون بين الخير والشر ، ولا بين الصواب والخطأ .

ولذلك يجب أن لا يتذكر أعمال هاتين القوتين : لئلا يشتاق إليهما ، ويتحرك نحوهما . بل يتركهما فإنهما سيثوران لأنفسهما ، ويهيجان عند حاجتهما ، ويلتمسان مايحتاج البدن إليه ، ويشخذان من باعث الطبيعة : مايغنيك عن بعثهما بالفكر ، والروية ، والتمييز : فيكون حينئذ فكرك وتمييزك : في إزاحة علتهما ، وتقدير ما تطلقه لهما في الأمر الضروري ، الواجب لأبداننا : الحافظ لصحتها . وهذا هو إمضاء مشيئة الله تعالى ، وإتمام سياسته . لأنه تعالى : إنما وهب هاتين القوتين لنا : لنستخدمهما عند حاجتنا إليهما : لا لنخدمهما وتتعبد لهما .

فكل من استعمل النفس الناطقة في خدمة عبدها : فقد تجاوز أمر الله ، وتعدى حدوده ، وعكس سياسته وتقديره .

وذلك أن خالقنا عز وجل : رتب لنا هذه القوى : بتدبيره وتقديره ، ولا عدل أشرف وأفضل من ترتيبه وتقديره . وكل من خالفه وعدل عنه : فهو أعظم جائر على ذاته ، وأكبر ظالم لنفسه !

حافظ الصحة على نفسه

ينبغي لحافظ الصحة على نفسه : أن يلطف نظره : في كل ما يعمل ويدبر ، ويستعمل فيه آلات بدنه ونفسه : لئلا يجري فيها على عادة تقدمت له : مخالفة لما يوجب تمييزه ورويته . فما أكثر ما يعرض للإنسان من بدو أفعال تخالف ما قدم فيه عزيمته ، وعقد عليه رأيه .

فمن عرض له مثل هذا : فيجب عليه أن يضع لنفسه عقوبات : يقابل بها أمثال هذه الذنوب . فإذا أنكر من نفسه مبادرة إلى طعام ضار ، وترك حمية : قد كان استشعرها ، أو تناول فاكهة غير موافقة ، أو حلواء كذلك : عاقب نفسه بصوم لا يفطر فيه : إلا على ألطف مما يقدر عليه وأقله ، وإن أمكنه الطى (١) فليطو ، ويزيد فى الحمية ، من غير حاجة إليها . ويمكن فى توبيخه لنفسه : أن يقول لها : إنك قصدت تناول النافع : فتناولت الضار ، وهذا فعل من لا عقل له .

ولعل كثيراً من البهائم : أحسن حالا منك : لأنه ليس فيها ما تقصد لذة لها ، ثم تتناول ما يؤلمها : فاستمسكى الآن العقوبة .

وإن أنكر من نفسه مبادرة إلى غضب فى غير موضعه ، أو على من لا يستحقه ، أو زيادة على ما يجب منه : فليقابل ذلك بالتعرض لسفيه يعرفه بالبذاء : ثم ليحتمله ، وليتذلل لمن يعرفه بالخيرية : ممن كان لا يتواضع له قبل ذلك . أو ليفرض على نفسه مالا يخرجه صدقة . وليجعل ذلك نذراً عليه : لا يخل به .

وإن أنكر من نفسه كسلا وتوانياً فى مصلحة له : فليعاقب نفسه : بسعى فيه مشقة ، أو صلاة فيها طول ، أو بعض الأعمال الصالحة : التى فيها كدر وتعب .

وبالجملة فليرسم على نفسه رسوماً : تصير عليها فرائض ، وحدوداً لا يخل بها ، ولا يترخص فيها : إذ أنكر من نفسه مخالفة لعقله ، وتجاوزاً لمرسومه .

وليحذر فى جميع أوقاته : ملابسة رذيلة ، أو مساعدة رفيق عليها ، أو مخالفة صواب . ولا يستحقرن شيئاً مما يأتيه من صغار السيئات ، ولا يطلبن رخصة فيها : فإن ذلك يدعوه إلى أعظم منها .

ومن تعود فى أول نشوه ، وحدثان شبابه : ضبط النفس عن شهواتها عند ثورة غضبه ، وحفظ لسانه ، واحتمال أقرانه : خف عليه ما يثقل على غيره : ممن لم يتأدب بهذه الآداب .

---

(١) طوى فلان : جاع . وطوى البطن : خمص من الجوع . والمراد : ان أمكنه أن يجوع : فليجع . فنى ذلك الخير كل الخير .

وبيان ذلك : أنا نجد العبيد وأشباههم : إذا بلوا بموالى سوء : يسفهون عليهم ، ويسبون أعراضهم : هان عليهم الخطب فيما يسمعونه ، حتى لا يؤثر فيهم ، وربما تضاحكوا عند سماع مكروه شديد ضحكا غير متكلف . ويعملون عند ذلك أعمالهم : ودعين طلقين ، غير قلقين . وقد كانوا قبل ذلك شرسين ، غضوبين : غير محتملين ، ولا ممسكين عن الأجوبة والانتقام بالكلام ، وطلب التشفى بالخصام .

وهذه سبيلنا : إذا ألفنا الفضائل ، وتجنبنا الرذائل ، وأمسكنا عن مقابلة السفهاء ومجاراتهم ، والانتقام منهم .

ويجب على حافظ الصحة على نفسه : أن يتشبه بالملوك الموصوفين بالحزم : فإنهم يستعدون للأعداء : بالعدة والعتاد ، والتحصن قبل هجوم العدو ، وهم فى مهلة من زمانهم ، وفى اتساع من نظرهم . ولو أغفلوا ذلك : إلى أن تحل بهم المكاره ، وتطرقهم الشدائد : لأذهلهم الأمر عن الحيلة ، وعن الرأى السديد .

فعلى هذا الأصل : يجب أن نبنى أمورنا فى الاستعداد لأعدائنا : من الشره والغضب ، وسائر ما يزيلنا عن أغراضنا من الفضائل : بأن نتعود الصبر على ما يجب الصبر عليه ، والحلم عمن ينبغى أن يحلم عنه ، وضبط النفس عن الشهوات الرديئة ، ولا ننتظر دفع هذه الرذائل وقت هيجانها : فإن الأمر عند ذلك : صعب جداً ، ولعله غير ممكن البتة .

معرفة المرء عيوب نفسه

ويجب على حافظ الصحة على نفسه : أن يطلب عيوب نفسه : باستقصاء شديد ، ولا يقنع بما قاله جالينوس فى ذلك .

فإنه ذكر فى كتابه المعروف بتعرف المرء عيوب نفسه : « إنه لما كان كل إنسان يحب نفسه : خفيت عليه معايبه ، ولم يرها : وإن كانت ظاهرة » .

وأشار فى كتابه هذا : بأن يختار من يحب أن يبرأ من العيوب : صديقاً كاملا فاضلا . فيخبره بعد طول المؤانسة : أنه إنما يعرف صدق مودته : إذا أصدقه عن عيوبه حتى يتجنبها ، ويأخذ عهده على ذلك ، ولا يرضى منه إذا قال له : لا أعرف لك عيباً . بل ينكر عليه ، ويعلمه أنه قد اتهمه بالخيانة ، ويعاود مسألته والإلحاح عليه . فإذا لم يخبره بشىء من عيوبه : زاد فى العتب الصريح ، والإلحاح قليلا . فإذا أخبره ببعض ما يعثر عليه منه : فلا يظهر له فى وجهه أو كلامه نكرة ، ولا انقباضاً . بل يبسط له وجهه ، ويظهر السرور بما أخرجه إليه ، ونبهه عليه . ويشكره على الأيام ، وفى أوقات المؤانسة : ليتطرق له إلى إهداء مثله إليه ، ثم يعالج ذلك العيب : بما يزيل أثره ، ويمحو ظله ، ليعلم ذلك المهدى إليك عيبك : أنك من وراء نفسك ، وفى طريق علاج مرضك ، فلا ينقبض عن معاودتك ونصيحتك .

وهذا الذى أشار به جالينوس : معوز غير موجود ، ولا مطموع فيه .

ولعل العدو فى هذا الموضع : أنفع من الصديق . فإن العدو : لا يحتشمنا فى إظهار عيوبنا . بل يتجاوز ما يعرف منا إلى التحرض والكذب فيها .

فلنتنبه على كثير من عيوبنا من جهتها . بل نتجاوز ذلك إلى أن نتهم نفوسنا بما ليس فيها .

ولجالينوس أيضاً مقالة . يقول فيها : إن خيار الناس ينتفعون بأعدائهم .

وهذا صحيح : لا يخالفه فيه أحد . وذلك لما ذكرناه .

فأما ما اختاره أبو يوسف بن إسحق الكندى فى ذلك ، فهو ما حكاه بألفاظه وهو هذا قال :

ينبغى لطالب الفضيلة لنفسه : أن يتخذ صور جميع معارفه من الناس : مرآة له تريه صور كل واحد منهم : عند ما تعرض له آلام الشهوات : التى تثمر السيئات . حتى لا يغيب عنه شىء من السيئات التى له .

وذلك أنه يكون متفقداً سيئات الناس : فمتى رأى سيئة بادية من أحد : ذم نفسه عليها . كأنه هو فعلها ، وأكثر عتبه على نفسه من أجلها . ويعرض عليها كل يوم وليلة : جميع أفعاله ، حتى لا يشذ عنه شيء منها ، فإنه قبيح بنا : أن نجتهد فى حفظ ما نقضناه من الحجارة الدنيئة ، والأرمد[1] الجامدة الغريبة منا : التى لا ينقصنا عدمها البتة فى كل يوم ، ولا نحفظ ما يتفق من ذواتنا التى بتوفيرها بقاؤنا ، وبنقصانها فناؤنا .

فإذا وقفنا على سيئة من أفعالنا : اشتد عدلنا لأنفسنا عليها : ثم لنقيم عليها حداً : نفرضه ولا نضيعه .

وإذا تصفحنا أفعال غيرنا : ووجدنا فيها سيئة : عاتبنا أيضاً نفوسنا عليها . فإن نفوسنا ترتدع حينئذ عن المساوى ، وتألف الحسنات ، وتكون المساوى أبداً ببالنا : لا ننساها ، ولا يأتى عليها زمان طويل : فيمحى ذكرها .

ولذلك ينبغى أن نعمل فى الحسنات لنفرغ إليها ، ولا يفوتنا منها شيء .

قال : (وينبغى أن لا ننقطع : بأن نصير أشباه الدفاتر والكتب : التى تفيد غيرها معانى الحكمة ، وهى عادمة اقتنائها . أو كالمسن : يشحذ ولا يقطع . بل نكون كالشمس : التى تفيد القمر : كلما أشرقت عليه : إنارة من ذاتها . فتفعل له تماماً : حتى يكون له شبهها ، وإن قصر عن نورها) .

فهكذا ينبغى أن يكون حالنا : إذا أفدنا غيرنا الفضائل .

وهذا الذى ذكره الكندى فى ذلك : أبلغ مما قاله من تقدمه .

---

(١) الأرمد : الأغبر ، والوسخ .

المقالة السابعة

رد الصحة على النفس

الأمراض الغالبة على النفس وعلاجها

رد الصحة على النفس إذا لم تكن حاضرة . وهو القول فى علاج أمراضها .

ونبتدىء بمعونة الله تعالى بذكر أجناس هذه الأمراض الغالبة ، ثم بمداواة الأعظم فالأعظم منها نكاية ، والأكثر فالأكثر جناية . فنقول :

أما أجناسها الغالبة : فهى مقابلات الفضائل الأربع : التى أحصيناها فى مبدإ الكتاب .

ولما كانت الفضائل : أوساطاً محدودة ، وأعياناً موجودة : أمكن أن تطلب وتقصد ، وتنتهى إليها الحركة والسعى والاجتهاد .

وأما سائر النقط التى ليست بأوساط : فإنها غير محدودة ، ولا أعيانها موجودة ، ووجودها بالعرض لا بالذات .

ومثال ذلك : أن الدائرة : لها مركز واحد . ولها نقطة واحدة . ولها وجود فى ذاتها : يقصد ويشار إليها . فإن لم نجد حساً ، أو لم يمكننا الإشارة إليها : أمكننا أن نستخرجها ، ونقيم البرهان على أنها هى المركز دون غيرها من النقط .

وأما النقط التى ليست بمركز : فإنها لا نهاية لها ، ولا وجود لها بالذات . وإنما توجد إذا فرضت فرضاً ، وليست لها عين قائمة . فلذلك لا تقصد ، ولا يمكن استخراجها لأنها مجهولة . ولأنها شائعة فى جميع الدائرة .

وأما الطرفان : اللذان يسميان متضادين ، فهما موجودان معينان . لأنهما طرفا خط مستقيم معين ، والبعد بينهما غاية البعد .

مثال ذلك : أنا إذا أخرجنا من مركز الدائرة خطاً مستقيماً إلى المحيط : صار طرفاه محدودين . أحدهما : المركز . والآخر : نهايته عند المحيط : والبعد بينهما غاية البعد .

ومثاله من المحسوس : البياض والسواد . فإن أحدهما يضاد الآخر ، وهما محدودان موجودان . والبعد بين الضدين : غاية البعد . فأما التي بينهما : فهي بلا نهاية ، وكذلك الألوان : هي بلا نهاية .

وأما أطراف الفضيلة . فلما كانت أكثر من واحد : لم تسم ضداً . لأن لكل ضد ضداً واحداً ، ولا يمكن أن توجد أضداد كثيرة : لضد واحد . والسبب في ذلك : أن البعد بينهما : غاية البعد .

وقد نجد للفضيلة الواحدة أكثر من طرف واحد . وذلك إذا تصورنا الفضيلة : مركزاً ، وأخرجنا منه خطاً مستقيماً ، لحصلت له نهاية : أمكننا أن نخرج من الجانب الآخر المقابل له : خطاً آخر : على استقامته ، فتصير له نهاية أخرى ويصيران جميعاً : مقابلين للمركز الذي فرضناه فضيلة . إلا أن أحدهما : يجري مجرى الإفراط والغلو ، والآخر يجري مجرى التفريط والتقتير .

وإذ قد فهم ذلك : فليعلم أن لكل فضيلة طرفين محدودين ، يمكن الإشارة إليهما . وأوساط بينهما كثيرة : لا نهاية لها ، ولا يمكن الإشارة إليها . إلا أن الوسط الحقيقي : هو واحد ، وهو الذي سميناه فضيلة .

ثم ليعلم أننا بحسب هذا البيان : نجعل أجناس الشرور ، والرذائل : ثمانية . لأنها ضعف الفضائل الأربع : التي تقدم شرحها . وهي هذه :

التهور ، والجبن : طرفان للوسط ، الذي هو الشجاعة .

والشره والخمود : طرفان للوسط ، الذي هو العفة .

والسفه والبله : طرفان للوسط ، الذي هو الحكمة .

والجور والمهانة : «أعني الظلم والانظلام» طرفان للوسط . الذي هو العدالة .

فهذه أجناس الأمراض : التى تقابل الفضائل ، التى هى صحة النفس . وتحت هذه الأجناس : أنواع لا نهاية لها . ونبدأ بذكر التهور والجبن : اللذين هما طرفا الشجاعة . وهى فضيلة النفس وصحتها . فنقول :

التهوُّر، والجبن

إن سببهما ، ومبدأهما : النفس الغضبية . ولذلك صارت الثلاثة بأسرها : من علائق الغضب .

والغضب فى الحقيقة : هو حركة للنفس : يحدث بها غليان دم القلب : شهوة للانتقام . فإذا كانت هذه الحركة عنيفة : أججت نار الغضب ، وأضرمتها : فاحتدّ غليان دم القلب ، وامتلأت الشرايين والدماغ : دخاناً مظلماً مضطرباً : يسوء منه حال العقل ، ويضعف فعله ، ويصير مثل الإنسان عند ذلك على ما حكته الحكماء : مثل كهف ملئ حريقاً ، وأضرم ناراً : فاختنق فيه اللهيب والدخان ، وعلا التأجج والصوت المسمى وحى النار : فيصعب علاجه ، ويتعذر إطفاؤه ، ويصير كل ما يدنيه للإطفاء : سبباً لزيادته ومادة لقوته .

فلذلك يعمى الإنسان عن الرشد ، ويصم عن الموعظة . بل تصير المواعظ فى تلك الحال : سبباً للزيادة فى الغضب ، ومادة اللهب والتأجج . وليس له فى تلك الحال حيلة .

وإنما يتفاوت الناس فى ذلك : بحسب المزاج . فإن كان المزاج حاراً يابساً : كان قريب الحال من حال الكبريت : الذى إذا أدنيت منه الشرارة الضعيفة التهب .

وإن كان بالضد : فحاله بالضد . وهذا فى مبدإ أمره ، وعنفوان حركة الغضب به .

فأما إذا احتدم : فيكاد الحال يتقارب فيه ، وتصور ذلك من الحطب اليابس والرطب . ومبدأ اشتعال النار بسرعة وشدة : من الكبريت والنفط . ثم انحدر منهما

إلى الأذهان المتوسطة ، إلى أن تنتهى إلى الاحتكاك . فإن الاحتكاك وإن كان ضعيفاً فى توليد النار : فربما قوى حتى تلتهب منه الأجمة العظيمة .

وكذلك مثل السحاب : الذى هو من البخارين : كيف يحتك حتى تنقدح بينهما النيران ، وينزل منهما الصواعق : التى لا يثبت أثرها شىء من المواد ، ولا يفارق ما يتعلق به حتى يصير رميا ، وإن كان جبلا أطلس[1] وحجراً أصم .

وأما بقراطس ، فإنه قال : أنى للسفينة : إذا عصفت الرياح وتلاطمت عليها الأمواج ، وقذفت بها إلى اللجج التى كالجبال : أرجى منى للغضبان الملتهب .

وذلك أن السفينة فى تلك الحال : يلطف لها الملاحون ، ويخلصونها بضروب الحيل .

وأما النفس إذا استشاطت غضباً : فليس يرجى لها حيلة البتة .

وذلك أن كل ما رجى به الغضب من التضرع والمواعظ والخضوع : يصير له بمنزلة الجزل من الحطب : يوهجه ويزيده اشتعالا .

أما أسبابه المولدة : فهى العجب ، والافتخار ، والمراء ، واللجاج ، والمزاح ، والتيه ، والاستهزاء ، والغدر ، والضيم ، وطلب الأمور التى فيها لذة ، ويتنافس فيها الناس ، ويتحاسدون عليها .

وشهوة الانتقام : غاية لجميعها . لأنها بأجمعها تنتهى إليه ، ومن لواحقه : الندامة ، وتوقع المجازاة بالعقاب : عاجلا وآجلا ، وتغير المزاج ، وتعجل الألم .

وذلك أن الغضب : جنون ساعة ، وربما أدى إلى التلف : باختناق حرارة القلب فيه . وربما كان سبباً لأمراض صعبة مؤدية إلى التلف . ثم من لواحقه : مقت الأصدقاء ، وشماتة الأعداء ، واستهزاء الحساد والأراذل من الناس .

ولكل واحد من هذه الأسباب : علاج يبدأ به : حتى يقلع من أصله . فأما إذا تقدمنا لحسم هذه الأسباب وإماطتها : فقد أوهنا قوة الغضب ، وقطعنا مادتها ، وأمنا غائلتها .

---

(١) الأطلس : الأغبر الأسود .

فإن عرض لنا منها عارض : كان بحيث نطيع العقل ، ونلتزم شرائطه ، وحدثت فضيلته ، أعنى الشجاعة : فيكون حينئذ إقدامنا على ما نقدم عليه كما يجب ، وبحيث يجب ، وبالمقدار الذى يجب ، وعلى من يجب .

العُجب ، والافتخار

أما العجب لحقيقته إذا حددناه : أنه ظن كاذب بالنفس ، باستحقاق مرتبة هى غير مستحقة لها .

وحقيق على من عرف نفسه : أن يعرف كثرة العيوب والنقائص : التى تعتورها . فإن الفضل مقسوم بين البشر ، وليس يكمل الواحد منهم إلا بفضائل غيره .

وكل من كانت فضيلته عند غيره : فواجب عليه أن لا يعجب بنفسه .

وكذلك الافتخار . فإن الفخر هو المباهاة بالأشياء الخارجة عنا . ومن باهى بما هو خارج عنه : فقد باهى بما لا يملكه ، وكيف يملك ما هو معرض للآفات والزوال : فى كل ساعة ، وفى كل لحظة . ولسنا على ثقة منه فى شىء من الأوقات . وأصح الأمثال وأصدقها فيه ما قاله الله عز وجل ﴿واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب﴾ إلى قوله ﴿فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها﴾ .

وقال تعالى ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شىء مقتدرا﴾ .

وفى القرآن من هذه الأمثال شىء كثير .

وكذلك فى الأخبار المروية عن النبى عليه الصلاة والسلام .

وأما المفتخر بنسبه : فأكثر ما يدعيه إذا كان صادقاً : أن أباه كان فاضلا . فلو حضر ذلك الفاضل ، وقال : إن الفضل الذى تدعيه لى أنا مستبد به دونك . فما الذى عندك منه مما ليس عند غيرك : لا لحمه وأسكته .

وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا المعنى : أخبار كثيرة صحيحة . منها أنه قال « لا تأتونى بأنسابكم وائتونى بأعمالكم » أو ما هذا معناه .

ويحكى عن مملوك : كان لبعض الفلاسفة ، أنه افتخر عليه بعض رؤساء زمانه . فقال له : إن افتخرت على بفرسك : فالحسن والفراهة للفرس لا لك .

وإن افتخرت بثيابك وآلاتك : فالحسن لها دونك .

وإن افتخرت بآبائك : فالفضل كان فيهم دونك .

فإذاً كانت الفضائل والمحاسن : خارجة عنك ، وأنت منسلخ عنها ، وقد رددناها على أصحابها ، بل لم تخرج عنهم : فترد عليهم . وأنت من يحقق ذلك إن شاء الله تعالى .

وحكى عن بعض الفلاسفة : أنه دخل على بعض أهل اليسار والثروة ، وكان يحتشد فى الزينة ، ويفتخر بكثرة آلاته ، وقد حضرت الفيلسوف بصقة : فتنخع لها ، والتفت فى البيت يميناً وشمالا : ثم بصق فى وجه صاحب البيت ، فلما عوتب على ذلك قال : « إنى نظرت إلى البيت وجميع ما فيه : فلم أجد هناك أقبح منه فبصقت عليه » .

وهكذا يستحق من كان خالياً من فضائل نفسه ، وافتخر بالخارجات عنه .

فأما المراء واللجاج . فقد ذكرنا قبح صورتهما ، فى المقالة التى قبل هذه ، وما يولدانه من الشتات ، والفرقة والتباغض بين الإخوان .

المزاح ، والتيه ، والاستهزاء

وأما المزاح : فإن المعتدل منه محمود . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم : يمزح ولا يقول إلا حقاً .

وكان أمير المؤمنين : كثير المزاح ، حتى عابه بعض الناس . فقال : لولا دعابة فيه .

ولكن الوقوف على المقدار المعتدل منه صعب . وأكثر الناس يبتدىء ولا يدرى أين يقف منه . فيخرج عن حده ، ويروم الزيادة فيه على صاحبه : حتى يصير سبباً للوحشة ، فيثير غضباً كامناً ، ويزرع حقداً باقياً . فلذلك عددناه فى الأسباب ، فينبغى أن يحذره من لا يعرف حده ، ويذكر قول القائل .

ورب جـد جره اللعب وبعض الحرب أوله مزاح

ثم يهيج فتنة لا يهتدى لعلاجها .

وأما التيه : فهو قريب من العجب . والفرق بينهما أن المعجب يكذب نفسه فيما يظن لها . والتياه يتيه على غيره ، ولا يكذب نفسه ، إلا أن علاجه علاج المعجب بنفسه .

وذلك بأن يعرف أن مايتيه به : لا مقدار له عند العقلاء ، وأنهم لا يعتدون به : لخساسة قدره ، ونزارة حظه من السعادة . ولأنه متغير زائل : غير موثوق ببقائه . ولأن المال والأثاث ، وسائر الأعراض : قد توجد عند كل صنف من الناس : الأراذل ، والأشراف ، والجهال .

فأما الحكمة : فليست توجد إلا عند الحكماء خاصة .

وأما الاستهزاء : فإنه يستعمله المجان من الناس والمساخر ، ومن لا يبالى بما يقابل به : لأنه قد وضع فى نفسه احتمال مثل ذلك وأضعافه : فهو ضاحك قرير العين : بضروب الاستخفافات التى تلحقه . وإنما يتعيش بالدخول تحت المذلة والصغار . بل إنما يتعرض بقليل ما يبتدىء به لكثير ما يعامل به : ليضحك غيره . وينال اليسير من بره . والحر الفاضل : بعيد من هذا المقام جداً . لأنه يكرم نفسه وعرضه : عن تعريضهما السفهاء ، وبيعهما بجميع خزائن الملوك : فضلا عن الحقير التافه !

الغَدْر ، والضَّيْم

وأما الغـــدر : فوجوهه كثيرة . أعنى أنه قد يستعمل فى المـال ، وفى الجاه ، وفى الحرم ، وفى المودة . وهو على كثرة وجوهه : مذموم بكل لسان ، ومعيب عند كل أحـد : ينفر السماع من ذكره ، ولا يعترف به إنسان ، وإن قل حظه من الإنسانيـة . وليس يوجد إلا فى جنس من أجناس العبيد : فيتوقاهم النـاس ، ويأنف منهم سائر أجناس العبيد .

ذلك أن الوفاء الذى ضده موجود فى جنس الحبشة ، والروم ، والنوبة .

وقد شاهدنا من حسن وفاء كثير من العبيد : مالم نشاهده فى كثير من المتسمين بالأحرار . ومن عرف قبح الغدر باسمه ، ونفور العقلاء منه . ثم عرف معناه فليس يستعمله . وبالأخص من له طبيعة جيدة ، أو قرأ ما تقدم فى هذا الكتاب ، وتخلق به ، وانتهى فى قراءته إلى هذا الموضع .

وأما الضيم : فهو تكليف احتمال الظلم والغضب ، وربما يعرض منه شهوة الانتقام . وقد ذكرنا فيما تقدم الظلم والانظلام ، وشرحنا الحال فيهما .

فينبغى أن لا نسرع إلى الانتقام : عند ضيم يلحقنا ، حتى ننظر فيه ، ونحذر : أن لا يورد علينا الانتقام بضرر أعظم من احتمال ذلك الضيم .

وهذا النظر والحذر : هو استشارة العقل وهو الحلم بعينه .

المقتنيات ، والجواهر النفيسة

وأما طلب الأمور التى فيها عزة ، وتتنافس فيها الناس ، فهو خطأ من الملوك والعظماء ، فضلا عن أوساط الناس .

وذلك أن الملك إذا حصل فى خزانته علق[1] كريم ، أو جوهر نفيس : فهو متعرض به للجزع عند فقده ، ولا بد من حلول الآفات به : لما عليه طبيعة عالم الكون ، والفساد من تغيير الأمور وإحالتها ، وإدخال الفساد على كل ما يدخر ويقتنى .

فإذا فقد الملك ذخيرة عزيزة الوجود : ظهر عليه ما يظهر على المفجوع المصاب : بما يعز عليه ، وتبين فقره إلى نظيره الذى لا يجده ، فيطالع الصديق والعدو على حزنه وكآبته .

وحكى عن بعض الملوك : أنه أهدى إليه قبة بلور : صافية عجيبة النقاء والصفاء ، محكمة الخرط ، قد استخرج منها أساطين وصور : خاطر بها صانعها مرة بعد مرة فى تلخيص النقوش والخروق ، والتجاويف التى بين الصور ، والأوراق . فلما حصلت بين يديه : كثر عجبه منها وإعجابه بها . وأمر فرفعت فى خاص خزائنه : فلم يأت عليها كثير زمان : حتى أصابها ما يصيب أمثالها من المتالف ، وبلغ الملك ذلك : فظهر عليه من الأسف والجزع : ما منعه من التصرف فى أموره ، والنظر فى مهماته ، والجلوس لجنده وحاشيته ،

---

(١) العلق : النفيس من كل شىء : يتعلق به القلب .

واجتهد الناس فى وجود شىء شبيه بها : فتعذر عليهم ، فظهر أيضاً من عجزه وامتناع مطلوبه عليه ، ما تضاعف به جزعه وحزنه .

وأما أوساط الناس : فإنهم متى ادخروا آلة كريمة ، أو جوهراً نفيساً ، أو اتخذوا مركوباً فارهاً ، أو ما أشبه هذه الأشياء : التمسها منه من لا يمكنه رده عنها : فإن حجزها عنه ، وبخل بها : فقد عرض نفسه ولعمته للبوار ، وإن سمح بها ، لحقه من الغم والجزع : ما كان مستغنياً عنه .

وأما الأحجار المتنافس فيها : من اليواقيت وأشباهها ، مما تبعد عنها الآفات فى أنفسها : فليس تبعد عنها الآفات الخارجة عنها : من السرقة ووجوه الحيل فيها ، وإذا ادخرها الملك : قل انتفاعه بها عند حاجته إليها ، وربما عدم الانتفاع بها دفعة .

ذلك أنه إذا اضطر إليها : لم تنفعه فى عاجل أمره وحاضر ضرورة الملك .

وقد شاهدنا أعظم الملوك خطراً فى عصرنا : لما احتاج إليها بعد فناء أمواله ، ونفاد ما فى خزائنه وقلاعه : لم يجد ثمنها ولا قريباً من ثمنها عند أحد ، ولم يتحصل منها إلا على الفضيحة فى حاجته إلى رعيته فى بعض قيمتها ، وهو لا يقدر على قليل ولا كثير من أثمانها ، وهى مبذولة مبتذلة فى أيدى الدلالين والتجار والسوقة ، يتعجبون منها ، ولا يقدرون عليها . ومن قدر منهم على ثمن شىء منها : لم يتجاسر عليها خوفاً من تتبعه بعد ذلك ، وظهور أمره وانتزاعها منه .

فهذه حال هذه الذخائر عند الملوك .

أما التجار الموسومون بهذه الصناعة ، فربما اتفق لهم زمان صلاح وسكون من الرؤساء ، وأمن فى السرب ، وحينئذ تكون بضاعتهم شبيهة بالكاسدة ، لأنها لا تنفق إلا على الملوك الودعين : الذين لا يحزنهم شىء من نوائب الدهر ، وقد استمر بهم الخفض[1] ، وفضلت أموالهم عن الخزائن والقلاع : فحينئذ ينفترون بالزمان : فيقعون فى مثل هذه الخدائع . ثم تؤول عاقبتهم إلى ما حذرنا منه .

---

(١) خفض العيش والشىء : سهل ولان . والمعنى : استمر بهم الرخاء والسعة .

أسبابُ الغضبْ

فهذه أسباب الغضب ، والأمراض الحادثة منها ، ومن عرف العدالة وتخلق بها كما بيناه فيما تقدم : سهل عليه علاج هذا المرض ، لأنه جور ، وخروج عن الاعتدال .

ولذلك لا ينبغى أن نسميه بأسماء المديح .

وأعنى بذلك أن قوماً يسمون هذا النوع من الجور أعنى الغضب فى غير موضعه : رجولية وشدة شكيمة : ويذهبون به مذهب الشجاعة ، التى هى بالحقيقة اسم للمدح ، وشتان ما بين المذهبين .

فإن صاحب هذا الخلق الذى ذممناه : تصدر عنه أفعال رديئة كثيرة ، يجور فيها على نفسه ، ثم على إخوانه ، ثم على الأقرب فالأقرب : من معامليه ، حتى ينتهى إلى عبيده ، وإلى حرمه : فيكون عليهم سوط عذاب ، ولا يقيلهم عثرة ، ولا يرحم لهم عبرة ، وإن كانوا برآء من الذنوب : غير مجترمين ولا مكتسبين سوءا . بل يتجرم عليهم ، ويهيج من أدنى سبب يجد به طريقاً إليهم : حتى يبسط لسانه ويده . وهم لا يمتنعون منه ، ولا يتجاسرون على رده عن أنفسهم ، بل يذعنون له ويقرون بذنوب لم يقترفوها : استكفافاً لشره ، وتسكيناً لغضبه ، وهو مع ذلك مستمر على طريقته : لا يكف يداً ولا لساناً ، وربما تجاوز فى هذه المعاملة الناس إلى البهائم : التى لا تعقل ، وإلى الأوانى التى لا تحس .

فإن صاحب هذا الخلق الردىء : ربما قام إلى الحمار والبرذون[1] ، أو إلى الحمام والعصفور : فيتناولها بالضرر والمكروه ، وربما عض القفل إذا تعسر عليه ، وكسر الآنية التى لا يجد فيها طاعة لأمره .

---

(١) البرذون : ضرب من الدواب : يخالف الخيل العراب : عظيم الخلقة غليظ الأعضاء .

وهذا النوع من رداءة الخلق : مشهور فى كثير من الجهال : يستعملونه فى الثوب ، والزجاج ، والحديد ، وسائر الآلات .

أما الملوك من هذه الطائفة : فإنهم يغضبون على الهواء : إذا هب مخالفاً لهواهم ، وعلى القلم إذا لم يجر على رضاهم ، فيسبون ذاك ويكسرون هذا .

وكان بعض من تقدم عهده من الملوك : يغضب على البحر إذا تأخرت سفينة فيه لاضطرابه وحركة الأمواج ، حتى يهدد بطرح الجبال فيه وطمه بها .

وكان بعض السفهاء فى عصرنا : يغضب على القمر ، ويسبه ويهجوه بشعر له مشهور .

وذلك أنه كان يتأذى به إذا نام فيه . وهذه الأفعال كلها قبيحة ، وبعضها مع قبحه : مضحك يهزأ بصاحبه ، فكيف يمدح بالرجولية والشدة وشرف النفس وعزتها ، وهى بالمذمة والفضيحة ، أولى منها بالمديح . أى حظ لها فى العزة والشدة ، ونحن نجدها فى النساء أكثر منها فى الرجال ، وفى المرضى أقوى منها فى الأصحاء ، ونجد الصبيان أسرع غضباً وضجراً من الرجال ، والشيوخ أكثر من الشبان ، ونجد رذيلة الغضب مع رذيلة الشره .

فإن الشره إذا تعذر عليه ما يشتهيه : غضب وضجر على من يهيء طعامه وشرابه : من نسائه وأولاده وخدمه ، وسائر من يلابس أمره .

والبخيل إذا فقد شيئاً من ماله : تسرع بالغضب على أصدقائه ومخالطيه ، وتوجهت تهمته إلى أهل الثقة من خدمه ومواليه ، وهؤلاء الطبقة لا يحصلون من أخلاقهم إلا على فقد الصديق وعدم النصيح ، وعلى الذم السريع ، واللوم الوجيع .

وهذه حال لا تتم معها غبطة ولا سرور ، وصاحبها أبداً محزون كئيب متنغص بعيشه ، متبرم بأموره ، وهذه حال الشقى المحروم .

أما الشجاع العزيز النفس : فهو الذى يقهر بحلمه : غضبه ، ويتمكن من التمييز والنظر فيما يدهم ، ولا يستفزه ما يرد عليه من المحركات لغضبه : حتى يتروى وينظر كيف ينتقم ممن وعلى أى قدر .

وكيف يصفح ويغضى عن ، وفى أى ذنب .

حكى عن الإسكندر : أنه نمى إليه عن بعض أصحابه : أنه يعيبه وينتقصه . فقال له بعض أصحابه : لو أدبته أيها الملك بعقوبة تنهكه بها . فقال له : وكيف يكون إنها كه بعد عقوبتى إياه فى ثلبى وطلب معايبى ، لأنه حينئذ أبسط لساناً ، وأعذر عند الناس .

وأتى يوماً ببعض أعدائه : من المتغلبين الخارجين عليه ، وكان قد عاث فى أطراف بلاده عيثاً كثيراً ، فصفح عنه . فقال له بعض جلسائه : لو كنت أنا أنت : لقتلته . فقال له الإسكندر : ولكن لم أكن أنا أنت فلست بقاتله .

فقد ذكرنا معظم أسباب الغضب ، ودللنا على معالجتها وحسمها ، وهو النوع الأعظم من أمراض النفس ، وإذا تقدم الإنسان فى حسم سببه : لم يخش تمكنه منه . وكان ما يعرض له : سهل العـــلاج ، قريب الزوال . لا مادة له تلهبه وتمده ، ولا سبب يسعره ويوقده .

وتجد الروية موضعاً لإجالة النظر والفكر فى فضيلة الحلم ، واستعمال المكافأة : إن كان صواباً . أو التغافل إن كان حزماً . والذى يتلو معالجة هذا النوع من أمراض النفس : معالجة الجبن . الذى هو الطرف الآخر من صحتها .

ولما كانت الأضداد يعرف بعضها من بعض ، وقد عرفنا الطرف الذى حددناه بحركة للنفس : عنيفة قوية : يحدث منها غليان دم القلب : شهوة للانتقام . فقد عرفنا إذاً مقابله ، أعنى الطرف الآخر : الذى هو سكون للنفس عند ما يجب أن تتحرك فيه ، وبطلان شهوة الانتقام وهذا هو سبب الجبن والخور .

الجُبن، والخَوَر

وتتبعهما إهانة النفس، وسوء العيش، وطمع طبقات الأنذال وغيرهم: من الأهل والأولاد، والمعاملين، وقلة الثبات والصبر: فى المواطن التى يجب فيها الثبات، وهما أيضاً سبب الكسل، ومحبة الراحة: اللذين هما سبب كل رذيلة، ومن لواحقهما: الاستخذاء[1] لكل أحد، والرضا بكل رذيلة وضيم. والدخول تحت كل فضيحة، فى النفس والأهل والمال، وسماع كل قبيحة فاحشة: من الشتم والقذف، واحتمال كل ظلم من كل معامل، وقلة الأنفة مما يأنف منه الناس.

— وعلاج هذه الأسباب واللواحق، يكون بأضدادها. وذلك بأن توقظ النفس التى تمرض هذا المرض: بالهزّ والتحريك.

فإن الإنسان لا يخلو من القوة الغضبية رأساً، حتى تجلب إليه من مكان آخر، ولكنها تكون ناقصة عن الواجب. فهى بمنزلة النار الخامدة: التى فيها بقية لقبول الترويح والنفخ، فهى تتحرك لا محالة: إذا حركت بما يلائمها، وتبعث ما فى طبيعتها من التوقد والتلهب.

وقد حكى عن بعض المتفلسفين: أنه كان يتعمد مواطن الخوف: فيقف فيها. ويحمل نفسه على المخاطرات العظيمة، بالتعرض لها، ويركب البحر عند اضطرابه وهيجانه: ليعود نفسه الثبات فى المخاوف، ويحرك منها القوة التى تسكن عند الحاجة إلى حركتها، ويخرجها عن رذيلة الكسل ولواحقه، ولا يكره لمثل صاحب هذا المرض بعض المراء، والتعرض للملاحاة، وخصومة من يأمن غائلته، حتى يقرب من الفضيلة، التى هى وسط بين الرذيلتين: أعنى الشجاعة: التى هى صحة النفس المطلوبة، فإذا وجدها، وأحس بها من نفسه: كف ووقف. ولم يتجاوزها حذراً من الوقوع فى الجانب الآخر الذى علمناك علاجه.

---

(١) الاستخذاء: طلب العطاء.

الخوف ، وأسبابه ، وعلاجه

ولما كان الخوف الشديد فى غير موضعه ، من أمراض النفس ، وكان متصلا بهذه القوة ، وجب أن نذكره ، ونذكر أسبابه وعلاجه . فنقول : إن الخوف يعرض من توقع مكروه ، وانتظار محذور ، والتوقع والانتظار : إنما يكونان للحوادث فى الزمان المستقبل .

وهذه الحوادث : ربما كانت عظيمة ، وربما كانت يسيرة : وربما كانت ضرورية ، وربما كانت ممكنة .

والأمور الممكنة ، ربما كنا نحن أسبابها ، وربما كان غيرنا سببها ، وجميع هذه الأقسام ، لا ينبغى للعاقل أن يخاف منها .

أما الأمور الممكنة : فهى بالجملة مترددة بين أن تكون ، وبين أن لا تكون ، ولا يجب أن يصمم على أنها تكون ، فيستشعر الخوف منها ، ويتعجل مكروه التألم بها ، وهى لم تقع بعد ، ولعلها لا تقع ، وقد أحسن الشاعر فى قوله :

وقل للفؤاد إن نزا بك نزوة من الروع : أفرخ[1] : أكثر الروع باطله

فهذه حال ما كان منها عن سبب خارج ، وقد أعلمناك أنها ليست من الواجبات التى لا بد من وقوعها ، وما كان كذلك : فالخوف من مكروهه يجب أن يكون على قدر حدوثه .

وإنما يحسن العيش ، وتطيب الحياة : بالظن الجميل ، والأمل القوى ، وترك الفكر فى كل ما يمكن أن لا يقع من المكاره ، وأما ما كان سببه سوء اختيارنا ، وجنايتنا

---

(١) يقال : أفرخ ، الروع : إذا ذهب .

على أنفسنا ، فينبغى أن نحترز منه ، بترك الذنوب والجنايات ، التى نخاف عواقبها ، ولا نقدم على أمر لا تؤمن غائلته ، فإن هذا فعل من نسى أن الممكن هو الذى يجوز أن يكون ، ويجوز أن لا يكون .

وذلك أنه إذا أتى ذنباً أو جنى جناية : قدر فى نفسه أنه يخفى ولا يظهر ، أو لا يخفى فيظهر : إلا أنه يتجاوز عنه أو لا تكون له غائلة .

وكأنه يجعل طبيعة الممكن واجباً ، كما أن صاحب القسم الأول : يجعل أيضاً الممكن واجباً ، إلا أن هذا يأمن الجانب المحذور خاصة .

وأعنى بهذا أن الممكن لما كان متوسطاً بين الجانب الواجب ، والجانب الممتنع : صار كالشىء الذى له جهتان : إحداهما تلى الواجب ، والأخرى تلى الممتنع .

ومثال ذلك : خط ا ج ب فنقطة ا هى الجانب الواجب ، ونقطة ب هى الجانب الممتنع . وموضع ج هو الممكن ، وبعده من الجانبين بعد واحد : فله إلى نقطة ا جهة ، وله إلى نقطة ب جهة ، فإذا صار مستقبله ماضياً : بطل اسم الممكن عنه ، وحصل إما فى جانب الواجب ، وإما فى جانب الممتنع ، وليس يصح ما دام ممكناً : أن يحسب لا من هذا الجانب ولا من ذاك الجانب ، بل يعتقد فيه طبيعته الخاصة به . وهو أنه يمكن أن يصير إلى ههنا أو إلى هناك . ولهذا قال الحكيم : وجوه الأمور الممكنة فى أعقابها .

وأما الأمور الضرورية : كالهرم وتوابعه ، فعلاج الخوف منه : أن نعلم أن الإنسان إذا أحب طول الحياة : فقد أحب لا محالة الهرم ، واستشعره استشعار ما لا بد منه .

ومع الهرم : يحدث نقصان الحرارة الغريزية ، والرطوبة الأصلية : التابعة لها ، وغلبة ضديهما ، من البرد واليبس ، وضعف الأعضاء الأصلية كلها ، ويتبع ذلك قلة الحركة ، وبطلان النشاط ، وضعف آلات الهضم ، وسقوط آلات الطحن ، ونقصان القوى : المدبرة للحياة ، أعنى القوة الجاذبة ، والقوة الممسكة ، والهاضمة ، والدافعة ، وسائر ما يتبعها من مواد الحياة .

وليست الأمراض والآلام شيئاً غير هذه الأشياء . ثم يتبع ذلك : موت الأحباء ، وفقد الأعزاء ، والمستشعر لهذه الأشياء الملتزم لشرائطها فى مبدإ كونه : لا يخاف منها ، بل ينتظرها ويرجوها ، ويدعى له بها ، ويرغب إلى الله فيها .

فهذه جملة الكلام على الخوف المطلق ، ولما كان أعظم ما يلحق الإنسان منه : هو خوف الموت . وكان هذا الخوف عاماً ، وهو مع عمومه : أشد وأبلغ من جميع المخاوف : وجب أن نبدأ بالكلام فيه فنقول :

علاج الخوف من الموت

إن الخوف من الموت : ليس يعرض إلا لمن لا يدرى : ما الموت على الحقيقة ، أولا يعلم إلى أين تصير نفسه .

أو لأنه يظن أن بدنه إذا انحل وبطل تركيبه : فقد انحلت ذاته ، وبطلت نفسه : بطلان عدم ودثور .

وأن العالم سيبقى موجوداً : وليس هو بموجود فيه ، كما يظنه من يجهل بقاء النفس ، وكيفية المعاد .

أو لأنه يظن أن للموت ألماً عظيما : غير ألم الأمراض : التى ربما تقدمته ، وأدت إليه ، وكانت سبب حلوله .

أو لأنه يعتقد عقوبة تحل به بعد الموت .

أو لأنه متحير : لا يدرى على أى شىء يقدم بعد الموت .

أو لأنه يأسف على ما يخلفه من المال والمقتنيات ، وهذه كلها ظنون باطلة : لا حقيقة لها .

أما من جهل الموت ، ولم يدر ما هو على الحقيقة فإنما تبين له إن الموت ليس لشيء أكثر من ترك النفس استعمال آلاتها . وهي الأعضاء التي يسمى مجموعها بدناً . كما يترك الصانع استعمال آلاته .

وإن النفس : جوهر غير جسماني ، وليست عرضاً . وأنها غير قابلة للفساد . وهذا البيان يحتاج فيه إلى علوم تتقدمه وهو مبرهن مشروح على الاستقصاء في موضعه الخاص به .

ومن تطلع إليه ، ونشط للوقوف عليه : لم يبعد مرامه . ومن قنع بما ذكرته في صدر هذا الكتاب ، وسكنت نفسه إليه : علم أن ذلك الجوهر : مفارق لجوهر البدن ، مباين له كل المباينة ، بذاته وخواصه ، وأفعاله . وآثاره ، فإذا فارق البدن كما قلنا ، وعلى الشريطة التي شرطنا : بقي البقاء الذي يخصه ، ونقي من كدر الطبيعة ، وسعد السعادة التامة ، ولا سبيل إلى فنائه وعدمه . فإن الجوهر لا يفنى : من حيث هو جوهر . ولا تبطل ذاته ، وإنما تبطل الأعراض والنسب والإضافات : التي بينه وبين الأجسام بأضدادها .

فأما الجوهر : فلا ضد له . وكل شيء يفسد : فإنما فساده من ضده . وقد يمكنك أن تقف على ذلك بسهولة من أوائل المنطق : قبل أن تصل إلى براهينه .

وإن أنت تأملت الجوهر الجسماني : الذي هو أخس من ذلك الجوهر الكريم ، واستقريت حاله : وجدته غير فانٍ ، ولا متلاش : من حيث هو جوهر . وإنما يستحيل بعضه إلى بعض : فتبطل خواصه شيئاً فشيئاً منه وأعراضه .

فأما الجوهر نفسه : فهو باقٍ : لا سبيل إلى عدمه وبطلانه .

مثال ذلك : الماء . فإنه يستحيل بخاراً وهواء ، وكذلك الهواء : يستحيل ماءً وناراً : فتبطل عن الجوهر أعراضه وخواصه .

وأما الجوهر من حيث هو جوهر : فإنه لا سبيل إلى عدمه . هذا في الجوهر الجسماني : القابل للاستحالة والتغير .

فأما الجوهر الروحانى : الذى لا يقبل الاستحالة ، ولا التغير فى ذاته . وإنما يقبل كالاته وتمامات صوره . فكيف يتوهم فيه العدم والتلاشى .

وأما من يخاف الموت : لأنه لا يعلم إلى أين تصير نفسه .

أو لأنه يظن أن بدنه إذا انحل ، وبطل تركيبه : فقد انحلت ذاته ، وبطلت نفسه ، وجهل بقاء النفس ، وكيفية المعاد ، فليس يخاف الموت على الحقيقة . وإنما يجهل ماينبغى أن يعلمه .

فالجهل إذاً : هو المخوف . إذ هو سبب الخوف . وهذا الجهل ، هو الذى حمل الحكماء على طلب العلم ، والتعب به ، وتركوا لأجله اللذات الجسمانية ، وراحات البدن . واختاروا عليه النصب والسهر . ورأوا أن الراحة التى تكون من الجهل : هى الراحة الحقيقية . وأن التعب الحقيقى : هو تعب الجهل . لأنه مرض مزمن للنفس . والبرء منه : خلاص لها ، وراحة سرمدية : ولذة أبدية .

ولما تيقن الحكماء ذلك ، واستبصروا فيه ، وهجموا على حقيقته ، ووصلوا إلى الروح والراحة منه : هانت عليهم أمور الدنيا كلها . واستحقروا جميع ما يستعظمه الجمهور : من المال ، والثروة ، واللذات الحسية ، والمطالب التى تؤدى إليها . إذ كانت قليلة الثبات والبقاء . سريعة الزوال والفناء ، كثيرة الهموم إذا وجدت . عظيمة الغموم إذا فقدت . واقتصروا منها على المقدار الضرورى فى الحياة ، وتسلوا عن فضول العيش : الذى فيه ماذكرت من العيوب : ومالم أذكره . ولأنها مع ذلك بلا نهاية . ذلك أن الإنسان إذا بلغ منها إلى غاية : تاقت نفسها إلى غاية أخرى : من غير وقوف على حد ولا انتهاء إلى أمد .

وهذا هو الموت ، لا ما يخاف منه ، والحرص عليه : هو الحرص على الزائل ، والشغل به : هو الشغل بالباطل .

ولذلك جزم الحكماء بأن الموت : موتان ، موت إرادى ، وموت طبيعى .

وكذلك الحياة حياتان : حياة إرادية ، وحياة طبيعية .

وعنوا بالموت الإرادى : إماتة الشهوات ، وترك التعرض لها ، وبالموت الطبيعى : مفارقة النفس البدن .

وعنوا بالحياة الإرادية : ما يسعى له الإنسان لحياته الدنيا ، من المآكل والمشارب والشهوات .

والحياة الطبيعية : بقاء النفس السرمدى ، بما تستفيده من العلوم الحقيقية ، وتبرأ به من الجهل . ولذلك وصى أفلاطون طالب الحكمة بأن قال له : مت بالإرادة تحيا بالطبيعة .

على أن من خاف الموت الطبيعى للإنسان : فقد خاف ما ينبغى أن يرجوه .

ذلك أن هذا الموت : هو تمام حد الإنسان ، لأنه حى ناطق ميت .

فالموت تمامه وكماله ، وبه يصير إلى أفقه الأعلى .

ومن علم أن كل شىء : هو مركب من حد ، وحده : مركب من جنسه ، وفصوله ، وأن جنس الإنسان هو الحى ، وفصلاه الناطق والميت : علم أنه سينحل إلى جنسه وفصوله ، لأن كل مركب لا محالة منحل إلى ما تركب منه .

فمن أجهل ممن يخاف تمام ذاته ؟ ومن أسوأ حالا ممن يظن أن فناءه بحياته ، ونقصانه بتمامه ؟

ذلك أن الناقص : إذا خاف أن يتم ، فقد دل من نفسه على غاية الجهل ، فإذاً الواجب على العاقل : أن يستوحش من النقصان ، ويأنس بالتمام ، ويطلب كل ما يتممه ويكمله ويشرفه ، ويعلى منزلته ، ويخلى رباطه : من الوجه الذى يأمن به الوقوع فى الأسر ، لا من الوجه الذى يشد وثاقه ، ويزيده تركيباً وتعقيداً ، ويثق بأن الجوهر الشريف الإلهى : إذا تخلص من الجوهر الكثيف الجسمانى : خلاص بقاء وصفو : لا خلاص مزاج وكدر ، فقد سعد وعاد إلى ملكوته ، وقرب من بارئه ، وفاز بجوار رب العالمين ، وخالط الأرواح الطيبة : من أشكاله وأشباهه ، ونجا من أضداده وأغياره .

ومن ههنا يعلم أن من فارقت نفسه بدنه : وهى مشتاقة إليه ، مشفقة عليه ، خائفة من فراقه : فهى فى غاية الشقاء والبعد من ذاتها وجوهرها : سالكة إلى أبعد جهاتها : من مستقرها ، طالبة قرار ما لا قرار له .

وأما من ظن أن للموت ألماً عظيما : غير ألم الأمراض التى ربما اتفق أن تتقدم الموت ، وتؤدى إليه : فعلاجه أن يبين له أن هذا ظن كاذب . لأن الألم إنما يكون للحى . والحى هو القابل أثر النفس . وأما الجسم الذى ليس فيه أثر النفس : فإنه لا يألم ، ولا يحس . فإذاً الموت : الذى هو مفارقة النفس البدن : لا ألم له ، لأن البدن إنما كان يألم ويحس : بأثر النفس فيه . فإذا صار جسما لا أثر فيه للنفس فلا حس له ولا ألم ، فقد تبين أن الموت حال للبدن غير محسوس عنده ولا مؤلم . لأنه فراق ما به كان يحس ويتألم .

فأما من خاف الموت ، لأجل العقاب الذى يوعد به بعد : فينبغى أن نبين له أنه ليس يخاف الموت ، بل يخاف العقاب ، والعقاب : إنما يكون على شىء باق بعد البدن الداثر ، ومن اعترف بشىء باق منه بعد البدن ، وهو لا محالة معترف بذنوب له ، وأفعال سيئة يستحق عليها العقاب . ومع ذلك هو معترف بحاكم عدل : يعاقب على السيئات ، لا على الحسنات ، فهو إذاً خائف من ذنوبه : لا من الموت .

ومن خاف عقوبة على ذنب : فالواجب عليه أن يحذر ذلك الذنب ويجتنبه . وقد بينا فيما تقدم ، أن الأفعال الرديئة التى تسمى ذنوباً إنما تصدر عن هيئات رديئة . والهيئات الرديئة ، هى للنفس . وهى الرذائل التى أحصيناها ، وعرفناك أضدادها من الفضائل ، فإذاً الخائف من الموت على هذه الطريقة ومن هذه الجهة : جاهل بما ينبغى أن يخاف منه ، وخائف بما لا أثر له ولا خوف منه ، وعلاج الجهل ، هو العلم . فإذاً الحكمة هى التى تخلصنا من هذه الآلام ، والظنون الكاذبة ، التى هى نتائج الجهالات . والله الموفق لما فيه الخير .

وكذلك نقول لمن خاف الموت لأنه لا يدرى على ما يقدم بعد الموت : لأن هذه حال الجاهل الذى يخاف بجهله ، فعلاجه أن يتعلم ليعلم ويشتاق ، وذلك أن من أثبت لنفسه

حالا بعد الموت ، ثم لم يعلم ما هى تلك الحال ، فقد أقر بالجهل ، وعلاج الجهل : العلم ، ومن علم : فقد وثق ، ومن وثق : فقد عرف سبيل السعادة فهو يسلكها لا محالة ، ومن سلك طريقاً مستقيما إلى غرض صحيح : أفضى إليه بلا شك ولا مرية .

وهذه الثقة التى تكون بالعلم : هى اليقين ، وهى حال المستبصر فى دينه ، المستمسك بحكمته ، وقد عرفناك مرتبته ومقامه فيما سلف من القول .

أما من زعم أنه ليس يخاف الموت ، وإنما يحزن على ما يخاف من أهله وولده وماله ونسبه ، ويأسف على ما يفوته من ملاذ الدنيا وشهواتها .

فينبغى أن نبين له أن الحزن : تعجل ألم ومكروه على ما يجدى الحزن إليه بطائل ، وسنذكر علاج الحزن فى باب مفرد له خاص . لأنا فى هذا الباب إنما نذكر علاج الخوف ، وقد أتينا منه على ما فيه مقتنع وكفاية ، إلا أننا نزيده بياناً ووضوحاً فنقول : إن الإنسان من جملة الأمور الكائنة . وقد يبين فى الآراء الفلسفية أن كل كائن فاسد لا محالة ، فمن أحب أن لا يفسد : فقد أحب أن لا يكون . ومن أحب أن لا يكون : فقد أحب فساد ذاته ، فكأنه يحب أن يفسد ، ويحب أن لا يفسد ، ويحب أن يكون ، ويحب أن لا يكون ، وهذا محال لا يخطر ببال عاقل .

وأيضاً فإنه لو لم يمت أسلافنا وآباؤنا : لم ينته الوجود إلينا .

ولو جاز أن يبقى الإنسان : لبقى من تقدمنا .

ولو بقى من تقدمنا من الناس على ما هم عليه من التناسل ولم يموتوا : لما وسعتهم الأرض .

وأنت تتبين ذلك مما أقول :

هب أن رجلا واحداً ممن كان منذ أربعمائة سنة هو موجود الآن ، وليكن من مشاهير الناس حتى يمكن أن يحصل أولاده موجودين معروفين : كعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه مثلا ، ثم ولد له أولاد ، ولأولاده أولاد ، وبقوا كذلك : يتناسلون ولا يموت منهم أحد ،

كم يكون مقدار من يجتمع منهم فى وقتنا هذا ؟ فإنك تجدهم أكثر من عشرة آلاف ألف رجل . وذلك أن بقيتهم الآن مع ما قدر فيهم من الموت والقتل الذريع : أكثر من مائة ألف نسمة فى جميع الأرض . وأحسب لمن كان فى ذلك العصر من الناس على بسيط الأرض ، مثل هذا الحساب . فإنهم إذا تضاعفوا هذا التضاعف : لم تضبطهم كثرة ، ولم تحصهم عدداً .

ثم امسح بسيط الأرض : فإنه محدود معروف ، لتعلم أن الأرض حينئذ لا تسعهم قياماً : فكيف قعوداً أو منصرفين ؟ ولا يبقى موضع عمارة يفضل عنهم ، ولا مكان زراعة ، ولا مسير لأحد ولا حركة . فضلا عن غيرها ، وهذه مدة يسيرة من الزمان : فكيف إذا امتد الزمان وتضاعف الناس على هذه النسبة .

فهذه حال من يتمنى الحياة الأبدية للبدن ، ويكره الموت ، ويظن أن ذلك ممكن ، أو مطموع فيه : من الجهل والغباوة .

فإذن الحكمة البالغة ، والعدل المبسوط : بالتدبير الإلهى : هو الصواب الذى لا معدل عنه ، ولا محيص منه ، وهو غاية الجود : الذى ليس وراءه غاية أخرى لطالب مستزيد ، أو راغب مستفيد .

والخائف منه : هو الخائف من عدل البارى وحكمته . بل هو الخائف من وجوده وعطائه ، فقد ظهر ظهوراً حسياً : أن الموت ليس برديء ، كما يظنه جمهور الناس : وإنما الردىء : هو الخوف منه . وأن الذى يخاف منه : هو الجاهل به وبذاته .

وقد ظهر أيضاً فيما تقدم من قولنا أن حقيقة الموت : هى مفارقة النفس البدن . وهذه المفارقة ليست فساداً للنفس ، وإنما هى فساد التركيب .

وأما جوهر النفس : الذى هو ذات الإنسان ولبه وخلاصته : فهو باق ، وليس بجسم فيلزم فيه مالزم فى الأجسام : مما أوردناه قبل . بل لا يلزمه شىء من أعراض الأجسام ، أى لا يتزاحم فى المكان : لاستغنائه عن المكان . ولا يحرص على البقاء الزمانى : لاستغنائه

عن الزمان . وإنما استفاد بالحواس والأجسام كمالا . فإذا كمل بها ، ثم خاص منها : صار إلى عالمه الشريف : القريب إلى بارئه ومنشئه تعالى وتقدس . وهـــذا الكمال الذى يستفيده فى هذا العالم الحسى : قد بيناه ، وعرفناك الطريق إليه بما سلف من القول فى هذا الباب . وأنه السعادة القصوى للإنسان ، وأعلمناك ضده الذى هو الشقاء الأقصى له . وبينا مع ذلك مراتب السعادة ، ومنازل الأبرار ، ودرجاتهم : من رضوان الله وجنته : التى هى دار القرار . كما بينا لك أضدادها من سخطه . ودركاتهم من النار التى هى الهاوية بلا قرار : نسأل الله حسن المعونة على مايقربنا منه ، ويبعدنا من سخطه : إنه جواد كريم ، رؤوف رحيم .

علاج الحزن

الحزن : ألم نفسانى يعرض لفقد محبوب ، أو فوت مطلوب . وسببه الحرص على القنيات الجسمانية ، والشره إلى الشهوات البدنية ، والحسرة على مايفقده أو يفوته منها . وإنما يحزن ويجزع : على فقد محبوباته ، وفوت مطلوباته : من يظن أن ما يحصل له من محبوبات الدنيا : يجوز أن يبقى ويثبت عنده ، أو أن جميع ما يطلبه من مفقوداتها : لابد أن يحصل له ويصير فى ملكه . فإذا أنصف نفسه ، وعلم أن جميع ما فى عالم الكون والفساد : غير ثابت ، ولا باق . وإنما الثابت الباقى : هو ما يكون فى عالم العقل : لم يطمع فى المحال ، ولم يطلبه . وإذا لم يطمع فيه : لم يحزن لفقد ما يهواه ، ولا لفوت ما يتمناه : فى هذا العالم . وصرف سعيه إلى المطلوبات الصافية . واقتصر بهمته على طلب المحبوبات الباقية . وأعرض عما ليس فى طبعه أن يثبت ويبقى . وإذا حصل له منه شىء : بادر إلى وضعه فى موضعه ، وأخذ منه مقدار الحاجة إلى دفع الآلام التى أحصيناها : من الجوع ، والعرى ، والضرورات التى تشبهها . وترك الادخار والاستكثار ، والتماس المباهاة والافتخار ، ولم يحــدث نفسه بالمكاثرة بها ، والتمنى لها . وإذا فارقته :

لم يأسف عليها ، ولم يبال بها . فإن من فعل ذلك : أمن فلم يجزع ، وفرح فلم يحزن ، وسعد فلم يشق .

ومن لم يقبل هذه الوصية ، ولم يعالج نفسه بهذا العلاج : لم يزل فى جزع دائم ، وحزن غير منتقص . وذلك أنه لا يعدم فى كل حال : فوت مطلوب ، أو فقد محبوب .

وهذا لازم لعالمنا هذا : لأنه عالم الكون والفساد . ومن طمع من الكائن الفاسد : أن لا يكون ولا يفسد : فقد طمع فى المحال . ومن طمع فى المحال : لم يزل خائباً . والخائب أبداً محزون . والمحزون شقى .

ومن استشعر بالعادة الجميلة ، ورضى بكل ما يجده ، ولا يحزن لشىء يفقده : لم يزل مسروراً سعيداً . فإن ظن ظان أن هذا الاستشعار لا يتم له ، أو لا ينتفع به ، فلينظر إلى استشعارات الناس : فى مطالبهم ومعايشهم ، واختلافهم فيها : بحسب قوة الاستشعار . فإنه سيرى رؤية بينة ظاهرة : فرح المتعيشين بمعايشهم على تفاوتها ، وسرور أصحاب الحرف المختلفة بمذاهبهم على تباينها . وليتصفح ذلك فى طبقة طبقة : من طبقات الدهماء . فإنه لا يخفى عليه فرح التاجر بتجارته ، والجندى بشجاعته ، والمقامر بقماره ، والشاطر[1] بشطارته ، والمخنث بتخنثه : حتى يظن كل واحد منهم : أن المغبون من عدم تلك الحالة ، حتى فقد بهجتها ، والمجنون من غبي عنها لحرم لذتها . وليس ذلك إلا لقوة استشعار كل طائفة بحسن مذهبها ، ولزومها إياه بالعادة الطويلة .

وإذا لزم طالب الفضيلة مذهبه ، وقوى استشعاره وحسن رأيه ، وطالت عادته : كان أولى بالسرور من هذه الطبقات : الذين يخبطون فى جهالاتهم . وكان أحظاهم بالنعيم المقيم : لأنه محق ، وهم مبطلون ، وهو متيقن وهم ظانون . ثم هو صحيح ، وهم مرضى ، وهو سعيد ، وهم أشقياء ، وهو ولى الله عز وجل ، وهم أعداؤه .

وقد قال الله عز من قائل ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

---

[1] الشاطر : اللص . سمى به : لأنه يشطر المال من صاحبه .

وقال الكندى فى كتاب دفع الأحزان : مما يدلك دلالة واضحة أن الحزن شىء يجلبه الإنسان ، ويضعه وضعاً . وليس هو من الأشياء الطبيعية : أن من فقد ملكا ، أو طلب أمراً فلم يجده فلحقه حزن ، ثم نظر فى حزنه ذلك : نظراً حكيما ، وعرف أن أسباب حزنه : هى أسباب غير ضرورية ، وأن كثيراً من الناس : ليس لهم ذلك الملك ، وهم غير محزونين : بل فرحون مغبوطون . علم علماً لا ريب فيه : أن الحزن ليس بضرورى ، ولا طبيعى ، وأن من حزن من الناس ، وجلب لنفسه هذا العارض : فهو لا محالة سيسلو ويعود إلى حاله الطبيعى .

فقد شاهدنا قوماً : فقدوا من الأولاد ، والأعزة ، والأصدقاء : ما اشتد حزنهم عليه ثم لم يلبثوا أن يعودوا إلى حالة المسرة ، والضحك ، والغبطة ، ويصيرون إلى حال من لم يحزن قط .

ولذلك نشاهد من يفقد المال ، والضياع ، وجميع ما يقتنيه الإنسان ، مما يعز عليه ويحزنه : فإنه لا محالة يتسلى ويزول حزنه ، ويعاود أنسه واغتباطه .

فالعاقل إذا نظر إلى أحوال الناس : فى الحزن وأسبابه : علم أن ليس يختص من بينهم بمصيبة غريبة ، ولا يتميز عنهم بمحنة بديعة ، وأن غايته من مصيبته السلوة .

وأن الحزن : هو مرض عارض ، يجرى مجرى سائر الرداءات : فلم يضع لنفسه عارضا رديئاً ، ولم يكتسب مرضاً وضعياً : أعنى مجتلباً غير طبيعى .

وينبغى أن نتذكر ما قدمنا ذكره : من حال من يحيا بتحية : على أن يشملها ، ويتمتع بها : ثم يردها ليشملها غيره ويتمتع بها سواء ، فأطمعته نفسه فيها ، وظن أنها موهوبة له هبة أبدية . فلما أخذت منه : حزن وأسف وغضب . فإن هذه حال من عدم عقله ، وطمع فيما لا مطمع فيه . وهذه حالة الحسود ، لأنه يحب أن يستبد بالخيرات : من غير مشاركة الناس .

والحسد أقبح الأمراض ، وأشنع الشرور . لذلك قالت الحكماء : من أحب أن ينال الشر أعداءه : فهو محب للشر ، ومحب الشر : شرير .

وشر من هذا : من أحب الشر لمن ليس له بعدو .

وأسوأ من هذا حالا : من أحب أن لا ينال أصدقاءه خيراً ، ومن أحب أن يحرم صديقه الخير : فقد أحب له الشر . ويجب له من هذه الرداءات الحزن على ما يتناوله الناس من الخيرات ، وأن يحسدهم على ما يصلون إليه منها . وسواء كانت هذه الخيرات : من قنياتنا وما ملكناه ، أو بما لم نقتنه ولم نملكه . لأن الجميع مشترك للناس ، وهي ودائع الله عند خلقه [1] .

وله أن يرتجع العارية متى شاء ، على يد من شاء ، ولا سيئة علينا ولا عار : إذا رددنا الودائع . وإنما العار والسيئة : أن نحزن إذا ارتجعت منا . وهو مع ذلك : كفر للنعمة ، لأن أقل ما يجب من الشكر للمنعم : أن نرد عليه عاريته عن طيب نفس ، ونسرع إلى إجابته إذا استردها ، ولا سيما إذا ترك المعير علينا أفضل ما أعارنا ، وارتجع أخسه .

قال : وأعني بالأفضل : ما لا تصل إليه يد ، ولا يشركنا فيه أحد . أعني النفس ، والعقل ، والفضائل الموهوبة لنا : هبة لا تسترد ولا ترتجع . ويقول : إن كان ارتجع الأقل الأخس كما اقتضاه العدل : فقد أبقى الأكثر الأفضل . وأنه لو كان واجباً أن نحزن على كل ما نفقده : لوجب أن نكون أبداً محزونين .

فينبغي للعاقل : أن لا يفكر في الأشياء الضارة المؤلمة ، وأن يقل القنية ما استطاع ، إذ كان فقدها سبباً للأحزان .

وقد حكي عن سقراط : أنه سئل عن سبب نشاطه ، وقلة حزنه ، فقال : لأنني لا أقتني : ما إذا فقدته حزنت عليه .

---

(١) قال الشاعر :

وأظلم أهل الأرض : من بات حاسداً ... لمن بات في نعمائه يتقلب

وإذ قد ذكرنا أجناس الأمراض : الغالبة التي تخص النفس ، وأشرنا إلى علاجاتها ، ودللنا على شفائها ، فليس يتعذر على العاقل : المحب لنفسه ، الساعي لما فيما يخلصها من آلامها ، وينجيها من مهالكها : أن يتصفح الأمراض التي تحت هذه الأجناس : من أنواعها وأشخاصها : فيداوي نفسه منه ، ويعالجها بمقابلاتها من العلاجات : الراغبة إلى الله عز وجل بعد ذلك في التوفيق : فإن التوفيق مقرون بالاجتهاد ، وليس يتم أحدهما إلا بالآخر .

هذا آخر المقالة السابعة . وهي تمام الكتاب ، والحمد لله رب العالمين ، والصلاة على النبي محمد وآله وأصحابه أجمعين ، وحسبنا الله ونعم المعين !



خاتمة

الحمد لله : الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على رسوله المبعوث بأجلى الآيات البينات ، وأوضح المعجزات الظاهرات ؛ وعلى آله وصحبه : المنعوتين بأحسن الصفات ، الناقلين عنه ما تحلى به من أكرم الأخلاق ، وأطيب الأعراق : دون سائر المخلوقات !

أما بعد : فإنه مما لا يختلف فيه إثنان من ذوى العقول : أن خير ما يتحلى به إنسان : خلق يزينه ، ويبعده عما يشينه ! وعقل يهديه إلى ما يعليه : ويحول بينه وبين حماقة ترديه ، ومصاب يبتليه !

فالأخلاق الفاضلة تنجى ، وعكسها يردى !

وطاعة الله تعالى مبنية كلها على الأخلاق . ولا تنس — يرحمك الله — قول الحكيم العليم « وقولوا للناس حسناً » .

والقول الحسن : عماد الأخلاق ، على الإطلاق .

ولا يصح للمسلم أن يقول حسناً ، ويضمر سوءاً !

وفى القول الحسن : تربية للنفس ، وتزكية لها ، وإبعاد عن مصادر البغى ، والظلم ، والقسر !

وقد كان هذا الكتاب : من خير ما كتبه الفلاسفة : قبل الإسلام ، وبعده .

ومن العجيب : أن من تكلم فيه من الفلاسفة قبل الإسلام : كانوا أعرف بحقوق الله تعالى ، وأقدر من غيرهم فى إبانة حقيقة وجوده ، وصدق ما جاء به القرآن : من ذكر الآخرة ، وما فيها من نعيم مقيم وعذاب أليم !

كما ترى فى هذا الكتاب : صغير المبنى ، كبير المعنى . الذى جمع فأوعى ، ولم يدع زيادة لمستزيد !

وقد حققناه وسع طاقتنا ، وشرحناه وسع علمنا .

وما كان لبشر إلا أن يخطىء . ولله تعالى وحده العصمة !

وهذا جهد المقل ، وغاية المتأمل . والله أسأل أن يستر عيوبنا ، ويغفر ذنوبنا ، ويلقينا — فى جنته — « تحية وسلاما : خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاما » .

ابن الخطيب

فهـــــرس
تهذيب الأخلاق لابن مسكويه

